محاصرة.. وإبادة

موقف الغرب من الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم
قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله
صدق الله العظيم

محاصرة..وإبادة

د. زينب عبد العزيز

محاصرة.. وإبادة

موقف الغرب من الإسلام

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1414 هـ - 1993 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف : 802428 -802407 -802296
ص. ب : 6311/113 - بيروت - لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم
ألا نعبد إلا الله وألا نشرك به شيئاً
ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله}..

(آل عمران 64)

مقدمة

حينما تتفاقم الأحداث بإصرار غاشم لتندفع إلى حافة الهاوية، حينما ينذر البركان الثائر في الأعماق الدفينة بحممه الجارفة، باقتلاع الكافة وبلا تمييز، فلا بد من وقفة واعية تتم فيها دراسة الأسباب الحقيقية ـ مهما كانت مرارة هذه الدراسة وآلامها..

فبعد كل ما كتب عن الفتنة الطائفية والإشارة إلى العديد أو إلى معظم أسبابها الخارجية والداخلية، تظل هناك نقطة أساسية لم يتطرق إليها أحد هنا، وإن كانت هناك عشرات بل ومئات الأبحاث التي تتناولها في الخارج ولا تجد من ينقلها إلى ساحتنا المحلية ليقوم المختصون بدراستها.. ولعل ذلك يرجع إلى شدة حساسية الموضوع، إلا أن ما يمر به العالم اليوم من صراعات دامية يحتم علينا أن نترك جانباً كافة الحساسيات لبحث الموقف بإرادة واعية..

فلم يعد هناك أي إنسان يتابع مجرى الأحداث في الساحة العالمية، بحياد وموضوعية، ولا يدرك أن القضية ليست مجرد فتنة هنا وهناك، بل هي بكل أسف وكما تشير هذه المراجع وتثبته بالوثائق: أن جمهرة من المتعصبين لا يعترفون بالإسلام، مستندين إلى أقوال مرسلة لهذا أو ذاك، ومن قبيل ما كتبه ميشيل لولنج: «إن الكنيسة تعتبر المسيح خاتم الرسالة لذلك فهي لا تعترف بنبي الإسلام ـ الذي أدانه المنسيحيون بصورة سلبية، تهجمية وعدوانية. والمؤلفات العديدة ـ بكل أسف ـ تشهد على ذلك» [**«ما أنزل الله، نصوص من القرآن والإنجيل»** صفحة 67]. ويوضح موريس بوكاي في مقدمة كتابه: **الإنجيل، القرآن والعلم**: «إن المسيحية لا تأخذ في الاعتبار أية ديانة بعد المسيح ورسله. وبذلك فهي تستبعد القرآن».

ولا يتسع المجال هنا لعرض كافة آراء الباحثين، في محاولة منهم للتقريب بين الديانتين، إلا أن معظمهم أو على الأقل بعض الأبحاث الحديثة منها ـ وكلها تنطلق من فترة مجمع الفاتيكان الثاني، الذي يعتبرونه نقطة تحول جذرية في موقف الكنيسة الكاثوليكية. وهو المجمع الذي تم فيه اتخاذ قرارين أساسيين فيما يتعلق بالديانات غير المسيحية وهما: مبدأ التحاور مع الإسلام، وتبرئة اليهود من دم السيد المسيح ـ مع الاعتذار شفاهة للمسلمين (وفقاً لما هو مكتوب في مصادر عدة)، والاعتذار والأسف كتابة لليهود، في نفس البيان، عن كل ما بدر من أحقاد واضطهادات.. وقد أهاب المجمع بالجميع أن ينسوا الماضي و«أن يعملوا باجتهاد صادق سبيلا للتفاهم فيما بينهم، وأن يتماسكوا من أجل جميع الناس لحماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والحرية».

وعلى الرغم من أن نفس هذا البيان، والصادر في أكتوبر عام 1965، يؤكد «أن الكنيسة تستنكر كل تفرقة وكل عنف يقع على الناس بسبب الجنس أو اللون أوالطبقة أو الدين لأن ذلك يخالف روح المسيح»، إلا أن المرء يصاب بالهلع إذا ما استعرض كافة الحروب العنصرية ومختلف أنواع التعصب التي وقعت منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا ـ وخاصة مجازر الإبادة في البوسنة والهرسك!.. وكلها تحت اسم الدين..

ومن الواضح في هذه المؤلفات أنها تمثل خطوطاً متفاوتة الاتجاه. فمنها من تناول التعصب ومحاربته للإسلام منذ بداية انتشاره، خاصة في الكتب والمراجع والموسوعات، ومنها من تناول الحروب الصليبية المتواصلة في شكل حملاتها الثمانية ـ تلك الحروب التي امتدت لمدة قرنين وبدأت بقرار من البابا أوربان الثاني عام 1095 الذي نادى في مجمع كليرمون ـ تحت زعم تحرير القدس ـ بأن المسلمين يغزون بلادهم ويهدمون الكنائس... وأن الرب هو الذي يناشدهم لإنقاذ إخوانهم المسيحيين من براثن المنسلمين. وطالب بضرورة طردهم، إذ أن المسيح هو الذي يأمر بذلك... ثم وعد كل الذين سيقومون بتلبية هذا النداء أو يصابون أو يموتون وهم يحاربون همج الكفّار... ستغفر لهم ذنوبهم ولهم الجنة.. وذلك بموجب السلطة التى خولها له الله!!.. [جورج تيت: **الشرق أيام الحروب الصليبية**، 1991].

ومن هذه المراجع من راح يجمع كل ما قيل من سب وفريات بغية

تحقير الإسلام والمسلمين ورسولهم، من قبيل كتاب شانتال دراجون: **عرب، أتقول عرب؟** (1991). ومنها نصوص ترجع إلى القرن الخامس عشر.

إلا أن ما يلفت النظر أيضاً في حشد من هذه الدراسات إنما هو تلك السلسلة الطويلة من الأبحاث التي تؤكد كيف أن الإنجيل قد تم تزييفه وتحريف آياته وإصحاحاته حتى يتفق وما تريده الكنيسة الكاثوليكية في روما. ويوضح جيرار ميساديه في كتابه: **الرجل الذي أصبح إلهاً**، 1989، كيف أن هناك «في الولايات المتحدة قرابة ثلاثة آلاف باحث في «جمعية الكتابات الإنجيلية» يقومون بالتحقيق في الحقائق الكامنة في الإنجيل، وأن أبحاثهم لا تظهر إلا في المجلات الشديدة التخصص، وبالتالي فهي بعيدة عن متناول الجماهير العريضة.

ولعل ذلك الموقف الممتد منذ المجامع الأولى حتى يومنا هذا هو السبب في موجة الإلحاد التي تسود المجتمع الغربي، خاصة وأن هذا الاتجاه الكاشف قد بدأ بشكل مكثف مع عصر التنوير الذي قام ضمن ما قامت عليه اسسه على مناقضة الترجمات المغلوطة وعمليات التعتيم وتفشي سلطة رجال الدين ومنها محاكم التفتيش وصكوك الغفران المعروفة ـ وإن كان هذا الخط قد تزايد بعد مجمع الفاتيكان الثاني حتى أن هناك أبحاثاً مثل كتاب، بولتمان: **تاريخ التراث الكنسي**، 1973، وغيره كثير، يوضح عمليات التحريف الأساسية خاصة في مجامع القرون الأولى، ففي مجمع نيقية الأول، المنعقد عام 325 تم خلاله تأليه السيد المسيح، وذلك على عكس أقواله هو شخصياً في الكتاب المقدس، ثم يجيء مجمع القسطانطينية الأول عام 381 ليتم خلاله تأليه الروح القدس ـ وذلك على عكس الوصف المخالف له في نفس نصوص الإنجيل بعهديه، وفي مجمع أفيزا عام 431 تم تحديد الأمومة الإلهية للسيدة العذراء وجعلها أم الله! وفي مجمع خلقيدونيا عام 451 تحددت طبيعة السيد المسيح مرة أخرى بأنها تتضمن طبيعتين في شخص واحد، كما تم استبعاد الكنائس الشرقية المعترضة على ذلك..

وهناك العديد من المراجع التي تناقش بدعة الثالوث الذي قامت الكنيسة بنسجها وتعتبرها سراً من أسرارها ـ علماً بأن السيد المسيح قد فرق في أحاديثه بين شخصه وبين الله (مرقص 17/10 - 18) و(يوحنا 28/14)؛ كما فرق بين

شبخصه وبين الروح القدس (متى 12/ 32) أي أنه ـ بأقواله ـ ليس جزءاً من الثالوث اللاهوتي ولا مساوياً لله ولا للروح القدس. ويعد فوسيوس، بطريرك القسطنطينية من عام 858 إلى 867، والذي كان يعتبر استبعاد كنيسة الاسكندرية أكبر غلطة ارتكبتها كنيسة روما، من أقوى الذين هاجموا، تأليه الروح القدس في كتاب معنون: **سر أسطورة الروح القدس**، وهو أول رفض تفصيلي لتحريف النص اللاتيني للعقيدة. وقد قام مجمع القسطنطينية الرابع، المنعقد عام 869 بإدانة فوسيوس وإقالته..

وهذه كلها مجرد شذرات مما اعترى المسيحية من تغيير وتبديل.. وليس الغرض من هذا السرد الغوص في تفاصيل تخرج عن نطاق هذا البحث وإنما لتوضح كيف أن هناك جمهرة من العلماء والباحثين يؤثرون الحقيقة ـ أياً كانت مرارتها ـ والكشف عن الزيف لتداركه وعدم الاستمرار فيه. وذلك للشعور العارم لديهم بضرورة وقفة واعية أمينة يعاد فيها تحديد أمور عدة..

ومن ناحية أخرى هناك خط آخر من المراجع الشديدة الاهمية والمتعلقة بدراسة الاكتشافات الحديثة في منتصف هذا القرن تقريباً، مثل «أناجيل» نجع حمادي و«مخطوطات البحر الميت» التي تم العثور عليها في منطقة قمران. وتكمن أهمية هذه المخطوطات الأخيرة في أنها تكشف عن أصول المسيحية وإرتباطها بعبادات أخرى سابقة عليها لدى الأسينيين. ومن أهم هذه الكتب البحث الذي أجراه الأب دانييلو: **مخطوطات البحر الميت وجذور المسيحية** (1957 و1974)، وكتاب: **ثلاثون عاماً من الأبحاث في مخطوطات البحر الميت**، بقلم ديبون سومر، عام 1977، وكتاب الأب رولان دي فو: **آثار البحر الميت ومخطوطاته 1973**. بل ومن بين هؤلاء الكتاب من تناول تباين أقوال السيد المسيح في الأناجيل الرسمية، مثل شفايتزر في كتابه: **السر التاريخي لحياة يسوع.**

وهناك أكثر من ذلك، العديد من المراجع التي تناولت موضوع الأناجيل المحتجبة أو تلك التي استبعدتها المجامع على مر العصور، وخاصة في القرون الأولى.. ومنها كتاب دانييل روبس: **الأناجيل المحتجبة** والذي يشير إلى أن هناك العديد من العادات الطقسية التي تمارس حالياً ولا وجود لها البتة في الكتاب المقدس وإنما هي مأخوذة عن الأناجيل المستبعدة، ومنها الاحتفال

بيوم القديس يواكيم والد السيدة مريم العذراء، في 16 أغسطس، ويوم 26 يوليو كعيد للقديسة آن والدتها، ويوم تقديم السيدة العذراء للمعبد في 21 نوفمبر.. وذلك بخلاف ما فرضته المجامع، مثل مجمع لاتران الرابع المنعقد عام 1215 والذي أجبر الكاثوليك على مبدأ «الاعتراف» دورياً، وعلى «المناولة» سنوياً.

وكل هذه الأبحاث والمراجع تتضمن حقائق يؤدي إخفاؤها إلى العديد من التساؤلات، مثلما حدث للقديس اندريه شقيق القديس بطرس والذي حاول منع الجماهير من تسليم السيد المسيح وهرع إلى الصليب حيث ظل يحتضر لمدة يومين!! وهناك برنابا، الحواري الوحيد الذي باع كل ما لديه ليتبع السيد المسيح، والذي اختاره الروح القدس شخصياً ليقوم بالدعوة مع شاؤول (بطرس) [أعمال الرسل 13/ 2 ـ 3].. ومع ذلك فقد تم استبعاد انجيله لأنه يبشر بمجيء سيدنا محمد!!.

أما أهم خط في كل هذه المراجع، على الرغم من أهميتها جميعاً، فهي تلك التي تتناول التنبؤ بمجيء سيدنا محمد في الإنجيل بعهديه، ومنها: **محمد صلّى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل والقرآن** للسيد إبراهيم خليل أحمد، وكان قساً قبل أن يسلم، وكتاب الباحث الهندي عبد الصمد صارم السهواري: **البشائر**، وكتاب: **هكذا بشرت الإناجيل** بقلم بشرى زخاري ميخائيل، وكتاب الأب دانيال بنيامين كلداني الذي أسلم وعنوانه: **محمد في الإنجيل**..

وتتفق هذه المراجع وغيرها ـ حتى وإن لم تستخدم كلها نفس الاستشهادات التي تبشر بمجيء رسول يأتي من بعدي اسمه أحمد»، فإنها تتفق جميعها على أن كلمة «برقليط» التي تمت ترجمتها إلى كلمة «مواسى» أو إلى كلمة «الروح القدس» إنما تعني أحمد. وهو لفظ ثابت في إنجيل يوحنا الذي يعد أحد الأناجيل المتداولة الأربعة. وتم التحريف من «بريكليتوس» وتعني «أحمد» إلى «براقليط» أو إلى «مواسى»!.

ولم نتناول كل هذه الآراء بتشعباتها وتنوع موضوعاتها ـ والتي تشير جميعها إلى تحريف مقصود يتفق وأغراض المتعصبين ـ إلا لنطرح ما يخرج به قارىء هذه المراجع، علماً بأننا لم نشر إلا إلى الجاد والعلمي منها، ألا وهو:

إن التعصب قاد حملات شعواء ضد الإسلام. وها قد تمت المصالحة بين هذا التعصب وبين اليهودية ليشتد الموقف عداءً من الإسلام ـ على الرغم من مطلب مجمع الفاتيكان ـ وأوضح صورة له كما أشرنا من قبل: والتي تعد حرب الإبادة الدائرة في البوسنة والهرسك مجرد جزء منها..

وإذا ما خرجنا من ذلك كله بأن المسيحية تؤمن بكافة الرسلِ والأنبياء حتى السيد المسيح وتتوقف عند ذلك على الرغم من الوثائق التي تشير إلى مجيء محمد(صلعم)، وأن الإسلام يعترف بالديانتين الوحدويتين السابقتين: ألا يستدعي الموقف الحالي وكل ما تتعرض له مصر والشعوب العربية والإسلامية من ضغوط وألاعيب، ألا يستدعي هذا، حقناً لمزيد من المجازر، أن يتكاتف رجال الدين في مصر من أقباط ومسلمين كرجال يؤمنون بالله الواحد وباليوم الآخر، أن يتكاتفوا لدراسة أو إعادة النظر في كل هذه الوثائق والخروج منها برؤية هدفها الحقيقة بعيداً عن التعصب، مما قد يؤدي إلى تصويب ما تم تزييفه عبر القرون، وليس المطلوب من أحد أن يغير عقيدته ولا دينه وإيمانه، لكن المطلوب هو أن يعيد المتعصبون النظر في موقفهم بسماحة عقل وبقلب رحيم، وأن يأخذ كل صاحب حق حقه!.

ألا تستحق كل هذه الأحداث الدامية، التي تخرج بكل تأكيد وثقة عن تعاليم السيد المسيح، ألا تستحق أن تأخذ الكنيسة المصرية مبادرة إيجابية لإدانة هذه الأشكال المتعصبة التي ـ يقيناً ـ لا تستند للمسيحية السمحة، وأن تضرب المثل الأعلى بنفسها في التمسك بالحق، بكل الحق، بدلاً من التواطؤ صمتاً، وبخاصة أن هؤلاء الصرب الذين يقيمون مجازرهم التي تتنافى وأي بُعد إنساني واكتفى العالم المتحضر بإدانتهم كلاماً فحسب، هم للأسف يزعمون أنهم أرثوذكس.. نظنه اختيار واجب شرعاً وإنسانياً..

ليغفر لنا الله جميعاً، فكلنا شركاء بالفعل أو بالصمت، وليعاوننا على أن نسلك طريقاً جديداً لصالح البشر أجمعين، وأن نتعاون لا من أجل مساندة لمسلمي البوسنة والهرسك فحسب وإنما لنبذ التعصب وحروب الإبادة في كل مكان، فدين المسيح الحق قائم على الحب والتسامح والعطاء.. وكلنا عابري سبيل، وسنلاقى وجه الله يوم الحساب.. فتلك الشرعية الدولية التي يتم فرضها قهراً باسم الدين هي سياسة إقتلاع وإبادة لا يقرها أي شرع في الوجود..

لذلك آثرنا أن نتناول في هذه المقدمة «موقف الغرب من الإسلام» بشكل عام قبل أن نتعرض لأهم النقاط الأساسية في فصول مستقلة، لنعرف حقيقة الغرب المتعصب وحقيقة موقفه من الإسلام والمسلمين والعرب..

تمهيد

ففي أواخر القرن العشرين وفي زمن تكشفت فيه كل الحيل والألاعيب التي تستخدم من أجل الإطاحة بدول وحكومات وأفراد، في زمن أصبحت فيه الأحداث كاشفة، تتحدث عن نفسها دون الحاجة إلى مستندات لإثباتها، لم يعد خفياً على أحد ـ اليوم ـ أن القضية الحقيقية ليست مجرد صراع العالم الغربي ضد العالم العربي فحسب وإنما هي بكل أسف صراع التعصب ورياحه ضد الإسلام.. إنها قضية تعصب ديني/ سياسي بعيدة المدى، متعددة الأشكال واستخدم فيها الغرب كل ما يمكن وما لا يمكن تصوره من وسائل لتحقيق أغراضه.

ولن نبدأ بسرد كل ما تعرض له الإسلام منذ بداية انتشاره من حملات تشويهية في مختلف المجالات، وصلت إلى الترجمات المغلوطة لمعاني القرآن. إذ أن معظم ما قام به الغربيون من ترجمات، محرف ومليء بالمغالطات التي تتمشى مع حملة التشهير للحد من انتشار الإسلام، ولا نشير هنا إلا إلى آخر ما ظهر منها وهي ترجمه المستشرق جاك بيرك.. ولن نتناول كل ذلك الدس الفظ للنّيل من مكانة سيدنا محمد (ص) ـ وكلها حملات امتدت طويلاً ولمّا تزل قائمة بل انها تتضاعف في يومنا هذا، ويكفي أن نشير إلى ما طالب به مجمع الفاتيكان الثاني ليكف الغرب عن حملات التشويه المغرضة القديمة الأزل والمسؤولة عن الصورة الباطلة للإسلام في الغرب.

لا.. لن نتناول تلك المحاولات الدؤوب التي بدأت منذ ظهور الإسلام للحد من انتشاره، ويكفي أن نضرب مثلاً لموقف الغرب المتعصب بآخر الأحداث التي تشغل الساحة العالمية وهي.

- غرس الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.
- حرب الخليج المفتعلة.
- حرب الإبادة الدائرة في البوسنة والهرسك.

فعلى الرغم من مضي أكثر من أربعين عاماً على احتلال أرض فلسطين وطرد الفلسطينيين والعمل على طمس معالم وجودهم لم يتخذ الغرب أي موقف حاسم فعال لطرد غزاة متعصبين ومنعهم من إقامة دولة عرقية/ دينية - حتى وإن كانت إقامة هذا الكيان تناقض ما تنص عليه تعاليم الإنجيل الذي يتبعه الغرب، بل حتى وإن جاء ذلك على حساب المسيحيين في الشرق الذين يحاول الغرب «امتصاصهم» في الكنيسة الغربية طمساً لعملية الإنشقاق والخلافات الدينية القديمة، والذي يحاول استخدام المتعصبين منهم في فتن طائفية داخلية.

إن الكيان الصهيوني في فلسطين ليس مجرد تحقيق لوعد سماوي مزعوم، وإنما هو نتيجة لصراعات المصالح الاستعمارية في المنطقة ودرءاً لما يطلقون عليه «عقدة الذنب» التي شعر بها الغرب - أو التي تشعر بها الكنيسة البروتستانتية حيال الكنيسة الكاثوليكية، كما أن هذا الكيان الصهيوني هو بمثابة الحربة التي يوجهها الغرب في قلب الشرق الأوسط بمساندة كاملة من الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يعد خفياً على أحد أن الصهيونية السياسية تستخدم الإنجيل كدعامة أيديولوجية لتنفيذ أغراضها..

وقد أصبح الشعب الذي طردته شعباً بلا اسم ولا أرض، وتم إخفاء العملية برمتها تحت غلالة مفضوحة من العصرية والديمقراطية والعدالة - فلقد تم حذف فلسطين من المعاجم الجغرافية الحديثة، كما تم حذف اسمها من الطبعات الجديدة من الكتاب المقدس راجع الطبعة الحديثة من Pierres Vivantes.. وبعدما كان الحديث يدور حول تحرير يافا والضفة فقد توارت يافا في طي الكتمان ولا تتناول المحادثات حالياً سوى موضوع الضفة.

فهل يدرك الغرب فداحة ما يقترفه ضد المسلمين والعرب، بل وضد العقيدة التي يعتنقها، وبخاصة أن هناك من بينهم قلة لمّا تزل لا تأبه لغير الحق، وبعضهم من رجال الدين المسيحي فها هو الأب جان لاندوزي، وهو واحد من رجال اللاهوت يؤكد كيف أن إقامة دولة اسرائيل المزعومة في العهد القديم

تناقض ما ورد في العهد الجديد وأنه بوفاة المسيح قد أصبحت الأرض المقدسة ملكاً للجميع (...) وأن حق الملكية قد انتقل إلى كل الذين يعيشون عليها وكانت هذه النقاط الرئيسية التي تناولها مؤتمر «المسيحيون في العالم العربي» المنعقد في باريس في شهر سبتمبر عام 1987.

ورغم ذلك للأسف يستمر الغرب في نشر مغالطاتهم السياسية والدينية ويتمادى في تطرفه لدرجة تكوين حركة في سويسرا باسم «المسيحيون الصهاينة» بل ويستمر في مساندة دولة عنصرية حتى وإن كان في ذلك إنكار لحياة السيد المسيح ولمعنى تجربته على الأرض.

لقد كتبت الأديبة سيمون فيل Simone Well قائلة: «لا يمكنني أن أكون مسيحية لأن الديانة المسيحية ما زالت تعبد إله إسرائيل» ولم يُرَدَّ عليها ليفند رفضها هذا أي من رجال اللاهوت (**خطاب إلى أحد رجال الدين**)..

إن الحركة الصهيونية ـ بعد مؤتمر بلتيمورا عام 1942 ـ قد تلفعت بالعصرية والحداثة بنفس المنطق الذي استخدمه «منبوذو أوروبا» لغزو القارة الأمريكية وانتزاعها من أصحابها الهنود الحمر، تحت زعم العصرية والحداثة ويستمر الصمت في الغرب إخفاءً لجرائم تتكرر ولا يتصدى لها أحد طالما أنها تدور مع «الآخر» مع من يطلقون عليه «العالم المتخلف»!. ألا يبدو الأمر وكأن الحركة العنصرية تقول للولايات المتحدة الامريكية: «لقد صمت العالم على فعلتك وعليه أن يصمت على فعلتي» وذلك تحت شعار «الامريكانية = الصهيونية» المعلن آنذاك؟!.

ولا يتسع المجال هنا لتناول حرب الخليج بتفاصيلها وكيفية نسج خيوطها وتنفيذ مخططها اللاإنساني تلك الحرب التي انتقمت فيها أمريكا لفضيحتها في فيتنام، فالمجتمع العالمي يعرف كيف استخدمت الولايات المتحدة الامريكية حكومة العراق لضرب إيران، ثم للتواجد في لبنان ثم لتحتل الكويت وكيف تذرعت الحكومة الأمريكية بذلك التدخل «المرسوم» لتسحق جيش العراق وتضرب الشعب العراقي والمنشآت المدنية العراقية في سرعة بانتقامية لا رحمة ولا منطق فيها سوى منطق «رعاة البقر» التي نشأت عليها.. ويتضافر الغرب ليشارك في لعبة التعتيم والترويج الإعلامي الذي قام بدور رئيسي في هذه الحرب.. ويزداد الصمت صمتاً طالما تم تنفيذ المطلوب.. والمطلوب

هو: ضرب القوى العسكرية في العالم العربي لإضعافه وتقسيمه وبذر الشقاق بين أبنائه واستنزاف أمواله والتحكم في ثرواته النفطية والمعدنية والبشرية، وباختصار: استعماره بشكل عصري متحضر! على أن يتم ذلك كله على حساب العرب بأموال العرب وبأيدي العرب!!.

أما حرب الإبادة الأخرى الدائرة في يوغسلافيا والتي تشنها الصرب ضد شعب البوسنة والهرسك، فإن متابعة أحداثها ومظاهر التعصب فيها تغني عن أي تعليق ويكفي أن نذكر كيف سارع الغرب بالتدخل لإيقاف الصراع فوراً عندما كان الأمر يتعلق باستقلال كرواتيا الدولة المسيحية.. وكيف أنَّ نفس ذلك الغرب ـ بكل ما يلوكه من شعارات الحرية والعدالة والمساواة قد تلفع بالصمت والتواطؤ عندما أصبح الاستقلال يتعلق بشعب البوسنة والهرسك المسلم.. وذلك لأن استقلالها سيؤدي إلى وجود دولة إسلامية في قلب أوروبا، وهو ما يرفضه الغرب ويتكاتف للحيلولة دون وقوعه.. وللغرب موقف سابق مماثل تقريباً إذ أن واقعة تركيا ليست ببعيدة عن الأذهان..

فأولى بوادر إمكانية إنشاء أمة إسلامية عربية موحدة سياسياً من الأمبراطورية العثمانية إلى بقية البلدان العربية قد لاحت في العقد الأول من القرن العشرين تقريباً وسرعان ما تضافر الغرب، لضرب هذه المحاولة، وتقسيم العالم العربي بأيد عربية أيضاً. فقد أغرى الشريف حسين بن علي حاكم مكة آنذاك تحت زعم إقامة أمة عربية موحدة ليعلن الحرب باسم العرب على الدولة العثمانية ودخل الحرب إلى جانب الحلفاء لتحقيق ما لوّحوا له به.. ولكن، سرعان ما أزاحه نفس ذلك الغرب ليتقاسم المنطقة، وهذه هي الحيلة التي استخدمت لتوقيع إتفاقية سايكس/ بيكو، التي أدت إلى تقسيم العالم العربي بين انجلترا وفرنسا.. وتم ضرب الدولة العثمانية لتتحول تركيا إلى دولة علمانية غربية، تستخدم الأحرف اللاتينية بدلاً من اللغة العربية التي هي لغة القرآن وشعار إسلامها.. وما إن تم إعلان فصل الدين عن الدولة حتى سارعوا بإلغاء وزارة الأوقاف وكافة المدارس الدينية.. وفرض الأحرف اللاتينية بدلاً من العربية.

إن إختفاء السلطنة العثمانية عام 1909، وسقوط الأمبراطورية الذي أعقبه إلغاء الخلافة عام 1934 محا بالتدريج ذلك الإطار الذي كان الفكر الإسلامي

يتحرك بداخله، خاصة وأن الامبراطورية العثمانية كانت تمثل ملجأً - حتى وإن كان رمزياً - لكل الذين كانوا يعترضون في مصر على النظام البريطاني والسيطرة السياسية والهيمنة (جورج كوران: **أوروبا والغرب**).. إن القرار المفاجىء بوقف استمرارية المؤسسة السياسية الإسلامية قد أدى إلى موقف لا سابقة له في أرض الإسلام.. ولا شك في أن قرار مصطفى كمال أتاتورك «ليس إلا نتيجة غرس الأفكار العلمانية في أرض الإسلام وهو قرار يأتي في امتداد توسع الغرب وثقافته (....) وبذلك أزيح القانون الديني/ السياسي للإسلام ومحيت شرعيته» (جوزيف مايلا: **المثالية والعنف**) وابتلع البعض طعم «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» كأنهم يرددون ما لقيصر لقيصر وما لله لله!! وأصبحت تركيا أول دولة مسلمة يمتصها الغرب تحت زعم الحرية والعصرية والمدنية.. لقد امتصها لدرجة إدخالها عضواً في السوق الأوروبية المشتركة! وها هو الغرب يحاول تكرار نفس اللعبة تحت زعم مبادىء العصرية والحداثة والتحضر والتقدم.

ويواصل الغرب لعبة الطرد أو الابتلاع.

إن ما قررته فرنسا بالنسبة للمهاجرين العرب وخاصة المغاربة والجزائريين هو بعينه الامتصاص أو الطرد ويكفي مراجعة تقرير وزيرها لوبين Le Pen.. والهدف ليس بجديد على حد قول محمد قاسمي «فالإنسان العربي لم يعد يثير قضايا عرقية فحسب، وإنما يثير قضايا ثقافية كاشفة للغرب تؤدي إلى الرغبة في رفضه أو استبعاده».. وليست كل محاولات الردع التي يكيلها الغرب الممثل في حلفائه الثلاثة، إلا تحالف من أجل تحقيق هدف واحد.

وتطالب فرنسا حالياً، على لسان وزيرها ذاك، بطرد ثلاثة مليون مغربي أو إرغامهم على ترك دينهم ولغتهم والذوبان في الجنسية الفرنسية، مع إصرارها على رفض منحهم حق المواطنة الكاملة، ورفضها حتى إقامة مساجد يؤمون فيها الصلاة.. والغريب أنها في نفس ذلك الوقت، تنتقدهم لقيامهم بالصلاة في الأزقة والأماكن المتدنية، ثم تعلن «إنها غير مستعدة لترى مناظرها الطبيعية ترشق بالمآذن».. (اتيين برونو: **الإسلام الراديكالي**).

وتُكثف فرنسا جهودها لافتعال الحجج لضرب المسلمين وانتقادهم في أراضيها، حتى فيما يتعلق بالزيّ.. ولا نجد ما نرد به على تلك الحملة التي تفجرت بسبب طالبة محجبة إلاّ أن نسأل: هل هناك صورة واحدة للسيدة مريم

بلا حجاب؟! لماذا إذن يطارد الغرب الحجاب بعد أن خلعه؟ ألأنه أصبح رمزاً من رموز الإسلام؟!.

ولا حصر لمختلف أنواع الاضطهاد التي يمارسها الغرب، ذلك لأن الصورة المزيفة التي كونها على مر عصور من الاستعمار الفكري والثقافي والعسكري جعلته يرى العرب بأقلام كبار كتابه ومفكريه على أنهم «شعب من الرعاع» (مونتسكيو)، «أمة سفاح» (دي جوبينو)، «تكرس جسدها وروحها للانتقام (بلزاك) و«أن الإسلام هو الإنكار الكامل لأوربا. فالإسلام هو احتقار العلوم، وإلغاء المجتمع المدني، وهو الغباء القاتل للعقل السامي، والذي يدفع العقل الإنساني إلى الضمور، ويُغْلقه أمام أية فكرة رقيقة، وأمام أي شعور مرهف وأي بحث عقلاني، ليضعه أمام شمولية خالدة هي: الله هو الله».. (15) ومن المؤسف أن يأتي هذا الاستشهاد الأخير على لسان أحد كبار مفكري القرن التاسع عشر في فرنسا، هو القس آرنست رينان Ernest Renan ليضيف آخر، «أن شريعتهم الملعونة التي أعطاها لهم محمد تأمرهم بإيذاء الآخرين الذين لا يدينون بإيمانهم»، ويزايد آخر: «ويقولون أنهم من سلالة إسماعيل بن هاجر، خادمة هذا النبي».. (جان جانيه) ويشهد سفر التكوين بأنها كانت زوجته.. وهي سبة ما زال الغرب يتناقلها كنوع من التحقير والتدني لأصل العرب. بل إنها أحد أسباب التزييف الذي قام به التعصب لاستبعاد إسماعيل ـ أبو العرب أجمعين ـ من نسل إبراهيم وسلبه شرعيته كابن بكر له ضعف ميراث أخوته. وهو ما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد.. بل ها هو جوستاف فلوبير كواحد من كبار أدبائهم يحسم الأمر قائلاً: إنني أطلب باسم الإنسانية أن يسحق الحجر الأسود، ويلقى رماده في الريح، وأن تهدم مكة، وأن يدنس قبر محمد، أنها الوسيلة الوحيدة لإحباط التعصب»!!.. أما عن الحجاج المسلمين، فيقول أحدهم: «إنهم يفقاون عيونهم بعد مشاهدة قبر الرسول حتى لا يروا أيّ شيء دنيوي بعد ذلك» (اجريبا دوبيبيه) وينتهي الأمر بأن يصبح اسم العرب سبة في الأدب الفرنسي.. (الفريد جاري)..

ذلك هو ما تتشربه الأجيال الغربية بأقلام كبار مفكريها على مر العصور.. فمن يا ترى هو المتعصب؟! وإلى جانب هذه الصورة المريرة دأب الغرب على تحريف الأسماء العربية التي قام على أكتافها بالفعل عصر النهضة الأوروبي،

وذلك لطمس جهود العرب وفضلهم على الغرب... وتحولت الأسماء إلى كلمات غربية الإيقاع، من قبيل Albumazar, Avicenne, Averoès بدلاً من ابن رشد وابن سينا وأبو معشر!.. بل وما زال الغرب مصراً على هذا التحريف وخاصة تحريف اسم سيدنا محمد إلى Mahomet بالفرنسية وMacometto بالإيطالية.. والغريب لا أن يستمر الغرب في هذا التحريف حتى يومنا هذا فحسب، وإنما أن يقع بعض المثقفين العرب في هذا المخطط دون تصويبه، ومواصلة تكراره تمشياً مع ما يظنونه عصرية!.. ومن الطريف أن يجيد كُتّاب الغرب كتابة اسم محمد صحيحا حينما يتعلق بأي فرد إلا النبي صلوات الله عليه..

ولم يكتف الغرب باستبعاد العرب عن أصل الحضارة، وإنما يتهمهم من ضمن ما اتهم، بأنهم السبب في حرق مكتبة الاسكندرية بأمر من الخليفة عمر (بولا فيلبيه) وأنهم قاموا بتسخين مياه حمامات الاسكندرية طوال مدة ستة أشهر بمحتوياتها (ديدرو).. في حين أن الخليفة عمر، ليس بريئاً من هذا الإتهام فحسب، بل ها هو واحد من رجالاتهم يؤكد بعد بحث دقيق: «أن مكتبة الاسكندرية والسيرابيون الملحق بها قد حرقها المسيحيون في القرن الرابع الميلادي وقاموا باغتيال هيباتي الشهيرة، في الشوارع، وكانت فيلسوفة وعالمة رياضيات. لاشك أن هذا يعد تطرفاً منهم لكن لا يمكننا أن نلوم الدين عليه، ويجب أن نغسل وصمة الجهل عن هؤلاء العرب المظلومين الذين احتفظت لنا ترجماتهم بروائع الفلسفة والطب والعلوم اليونانية إلى جانب أعمال تبعث بأشعة حيوية في ظلمات عصور الإقطاع» (جيرار دي نرڤال) ولا داعي لإضافة أن هذا الكاتب مثله مثل ڤان جوخ، قد أتهم بالجنون لمجرد خروجه عن السائد المألوف..

ولا نذكر هذا الاستشهاد إلاّ لإتفاقه مع ما هو مكتوب في المراجع الكنسية التاريخية ومع ما قامت به كنيسة روما بالفعل آنذاك، من خلال مجامعها، من عمليات حرق وإبادة أو احتجاز لوثائق تدين تدخلها لتحريف بعض الوقائع والمستندات الدينية لاستبعاد كنيسة الاسكندرية عام 451 من الساحة السياسية العالمية، مثلما قامت بعد ذلك بقليل بحسم معركة الأيقونات لصالحها للحد من الإسلام الآخذ في الانتشار آنذاك (برهييه: **معركة**

الايقونات).. وها هو اليوم يأتي رد القضاء البريطاني في قضية «سلمان رشدي» استمراراً لنفس الموقف حين أعلن: «إن القانون يحمي العقيدة النصرانية وحدها من التطاول، أما إهانة الإسلام ونبيه فهي خارج الموضوع». (جريدة **المسلمون** 29/ 5/ 1992).

ولا يتسع المجال هنا لتناول الحروب الصليبية التي كانت سلاحاً ذا حدين للحد من انتشار الإسلام وانتعاش التجارة والاقتصاد معاً، إلى جانب أنها كانت «أكثر الوسائل فعالية لجمع العناصر المسيحية المشاغبة في الغرب تحت سيادة البابا للقيام بمهمة جريئة شاسعة هي الاستيلاء على الأماكن المقدسة» (جورج تيت: **الشرق والحروب الصليبية**)، وإنما سنشير إلى الصلات الحديثة بين الغرب والشرق، الممثلة في حملة نابليون عام 1798 ـ تلك الحملة التي يرجع إليها البعض بداية «النهضة» في مصر والعالم العربي.. وذلك على الرغم من أن نابليون قد أعلن من ضمن ما أعلنه أنه قد أتى لتحرير العرب وقلبهم ضد الأتراك» (راجع: **العرب والإسلام وأوروبا**).. أي أنها كانت حملة سياسية إلى جانب كونها حملة صليبية جديدة، مقنّعه بفريق من العلماء يحمل لافتة «عصر التنوير».

بل أنها في حقيقة الأمر كانت تمثل جانباً سياسياً أكثر أهمية، ذلك أن احتلال مصر آنذاك يعني في نظر الغرب الفرنسي إمكانية تهديد الطريق إلى الهند عن طريق البحر الأحمر والخليج الفارسي.. مما سمح لفرنسا بعد ذلك الحصول على مواقع تجارية متينة في الشرق الأوسط، وتعويض ضياع جزر الأنتيل التي أحتلها البريطانيون..

«وقد بدأت هذه الحملة الصليبية الفلسفية في أواخر القرن الثامن عشر تحت حماية علم الثورة الثلاثي الألوان، باسم الحرية والمساواة والأخاء... كما أن التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر قد تم أيضاً تحت إسم مثاليات الحرية والتطور وتقدم أوروبا الغربية» (المرجع السابق)..

وفي واقع الأمر ـ أن هذا التوسع الاستعماري لم يبدأ بحملة نابليون فحسب، وإنما بدأ بالفعل عقب معاهدة باريس عام 1763، التي وضعت حداً لحرب السنوات السبع وحرمت فرنسا من ركيزتين بعيدتين هما كندا والهند.. فاتجهت إلى السياسة التوسعية بناء على تقارير شوازول Choiseul وتاليران

Tallayrand لاحتلال الأراضي القريبة منها من شمال أفريقيا.. وقد تم ذلك تحت شعار «الحماية» قبل أن تكشف فرنسا صراحة عن تعبير «الاستعمار».

وليس الغرض من هذا السرد الخاطف للأحداث والوقائع إلاّ لتوضيح أنه على الرغم من كافة عمليات التورية والتعتيم، وعلى الرغم من المظاهر البراقة أو حتى المهينة منها، فإن الغرب لم يكن أميناً أبداً في موقفه من الإسلام والمسلمين، وإنه منذ البداية، ومع انتشار الإسلام، لجأ الغرب إلى حروب صليبية مختلفة، تنوعت مسمياتها .ومجالاتها لكن هدفها لم يتغير.. فحرب الأيديولوجيات وحرب الثقافات، وحرب الإعلام، وحرب القيم والأخلاق، وحرب التجسس والتعذيب، بل وحرب الميكروبات والمجاعات والمخدرات على سبيل المثال لا الحصر، باتت من الأمور التقليدية المفضوحة التي يستخدمها الغرب سواء مباشرة أم عن طريق أجهزة معينة أم حكومات عميلة.. ويكفي أن نقرأ آخر ثمانية كتب ظهرت في فرنسا في شهر مايو وحده من هذا العام (1992)، وكلها تكشف تواطؤ الإعلام الغربي في حرب الخليج.

أما عن حرب المعلومات، ولا نذكر منها غير نموذج واحد من المعاجم على سبيل المثال (تلك المعاجم والموسوعات التي يلجأ إليها المثقفون والباحثون والطلبة يتناقلون عنها دقة المعطيات).. فماذا نقرأ عن المسيحية في واحدة من أكبر الموسوعات هي Encyclopedia Universalis: أن المسيحية انتقلت من العالم الروماني إلى البرابرة وامتدت في الغرب خاصة، ثم منذ القرون الوسطى في الشعوب السلافيه، وإذا ما تراجعت في المناطق التي هزمها الإسلام، **فهي لا تكف عن ارسال المبشرين إلى المناطق النائية انطلاقاً من الغرب**: تجاه آسيا وأميركا اللاتينية في القرن السادس عشر وتجاه الأمريكيتين في القرن السابع عشر، وتجاه إفريقيا في القرن التاسع عشر».. وإذا ما تناولت نفس هذه الموسوعة النصوص الإنجيلية تقول: «إنها ممتازة حتى إذا لم يمكننا التأكد من صحة مضمونها الكتابي في كافة النقاط (...) أن الأناجيل ليست كالقرآن، عبارة عن سيرة ذاتية أملاها الله للنبي بأعجوبة، وإنما هي تقول كلام الله نفسه بأسلوب إنساني (...) وعلى خلاف الكتب المقدسة للديانات الأخرى، فإن الأناجيل ترجع إلى نفس قرن المسيح».. والنص غني عن أي تعليق سواء من حيث دوره التبشيري أم من حيث أن القرآن ليس سوى سيرة

ذاتيه للرسول، وأنه لم ينزل عليه في حينه، ولا من حيث أن الأناجيل الثابت تزييفها وتحريف محتوياتها تقدم على أنها ممتازة حتى إذا ما لاحظ القارىء تضاربها وتناقضها!..

وتستمر لعبة الألفاظ والإسقاط على الأخر.. والمغالطات..

إن حججاً وتعبيرات من قبيل «التعصب» و«التطرف» المقرونة بالإرهاب والتي يفرضها الغرب على العرب تماثل في جوهرها حجة الستار الحديدي قديماً ذلك الستار الذي زعم الغرب أن الإتحاد السوفيتي كان قد أحاط به نفسه، ثم تكشف مع الوقت أن الغرب هو الذي فرضه من حوله.. والنتيجة التدميرية التي آل إليه الاتحاد السوفيتي بأيدي زعامته العميلة ليست بخافية على أحد.. وليس المجال هنا مناقشة هذا الموضوع الذي كشف عنه الغرب بالتفاصيل الفاضحة لأكبر المتواطئين فيها، وإنما لفت الأنظار إلى أن الغرب لم يغير من المخطط الذي وضع منذ القرن السابع إذ يصنعون ستاراً من صنعهم يبررون به محاربة الإسلام ونبيه «المحتال»!! ومحاربة العرب لارتباطهم بالإسلام الذي أتى مكملاً ومصوباً لنفس العقيدة التوحيدية. فعلى حد قول نابليون بونابرت وبالرغم من موقفه الاستعماري إلا أنه أدرك «أن الديانات الثلاث التي نشرت معرفة أن الله دائم غير مخلوق، سيد وخالق البشر، قد خرجت من بلاد العرب. إن موسى، وعيسى المسيح، ومحمد: عرب ولدوا في ممفيس، وفي أريحا، وفي مكة» (الحملة الفرنسية).. إلا أن كنيسة روما قد جاهدت لتعتيم هذه الحقيقة وحجبت ما حجبت تمسكاً بالسلطة وطمعاً في السيطرة..

إن ما حدث في الدين المسيحي من تحريف مخطط أشبه ما يكون بما حدث في لعبة الفن الحديث في مطلع هذا القرن..

ولن نشير هنا إلى العديد من المراجع التي تناولت هذا الموضوع، وإنما سنكتفي بالإشارة إلى إنجيل يوحنا، وهو أحد الأناجيل الأربعة المعترف بها والذي يتضمن بوضوح أن السيد المسيح في العشاء الأخير قد أعلن عن مجيء «رسول» periklytos اخر سيكمل الرسالة من بعده، وأنه سيوحى بها إليه عن طريق السمع وينقلها هو بالكلمة. إلا أن علماء اللاهوت قد حرفوا معنى كلمةPeriklytos اليونانية القديمة إلى كلمة «الروح القدس» وهو ما لا يتفق والمعنى الواضح في الإنجيل وسوف نتناولها بالتفصيل في فصل تال..

وإذا كان أمر استكمال الرسالة بهذا الوضوح في إنجيل يوحنا المعتمد رسمياً، فما عسانا نجده في الأناجيل المحتجبة التي يطلق عليها رجال اللاهوت Apocryphes، أي المحفوظة سراً أو المشكوك فيها؟!

ولا يسعنا المجال هنا إلا لنسأل: لماذا لا يتحدث الغرب عن الحكومة الإندماجية المسيحية لفخامة الأب لوفيڤرMgr.Lefevre في فرنسا وطمس هوية مسيحيي الشرق وأقباطها؟ لماذا لا يتحدث عن التوسع الجامح للأصولية البروتستانتية في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يصب حربه إلا على الإسلام بعد أن وصمه بالتعصب والإرهاب؟!

وخلاصة كل هذا القول من جهة أن الغرب الذي قامت نهضته وحركة تنويره ـ ضمن ما قامت ـ على مواجهة الكتاب المقدس والسلطة البابوية ومناهضتهما، ها هو يتقبل الكتاب المقدس بعهديه، القديم والجديد، بكل ما أجراه فيهما من تعديل وحذف ليصّر على توقف الرسالة عند السيد المسيح، بكل ما في ذلك من تحريف ثابت تاريخياً ووثائقياً.. ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يعترف بالديانتين السابقتين ويستكمل المسيرة ليتمها. وهذا التعنت في الرأي لا مخرج منه بالنسبة للغرب إلا بأحد أمرين:

أما محاربة الإسلام واستبعاده. وأما الإعتراف به وقبوله.. أما عن استبعاد الإسلام من الساحة العالمية، فقد بدأه الغرب بالفعل منذ القرن السابع، بل وما زال هناك من يواصلون محاربته وبمزيد من العنف لحسم الموقف، مثل القس السابق جان كلود بارو Jean. Claude Barreauالذي صدر كتابه في شهر ديسمبر عام 1991، وحصل على جائزة أدبية لنفس ذلك العام، إذ يقول بعد أن زايد في تجريح الإسلام طوال كتابه:

«أنه لا بد من إعادة صياغة القرآن والحديث والسنة خلال عقد أو اثنين، بمفاهيم عصرية، أو على الإسلام أن يختفي»..! (**عن الإسلام والعصر الحديث**) وهو ما يتمشى مع ما «وضعه الغرب من مخططات لاستبعاد المسلمين من البلدان العربية واذابة هويتهم وتحطيم انطلاقتهم والغاء عروبتهم لامتصاصهم أو اذابتهم في دولة اندماجيه» (راجع: **اقباط العالم العربي**).

وأما عن الاعتراف بالإسلام، وقبوله فكيف يتفق هذا مع كل ما وثقناه في بحثنا ـ وهو قليل من كثير ـ ورغم ذلك ليس أمام الغرب إلا أن يتخلى عن

أنانيته ومخططاته التي لا بد وأن تنعكس آثار مدمرة لها عليه، إلا إذا أدرك أنه يمثل جزءاً مكملاً في عقيدة توحيدية واحدة، لا تقتصر على الأنبياء الثلاثة فحسب وإنما تمتد جذورها في أعماق مصر القديمة، حاملة مشعل الحضارة والتي عاش فيها موسى وتشرب حكمتها.. وإنما ترجع إلى اخناتون الذي كان أول من هاجم الوثنية وتعدد الألهية وأقام عبادة الإله الواحد الأحد الذي خلق الكون ولم يخلقه أحد..

ومع هذا السرد الخاطف، لا بد أن نشير إلى أن هذا التوجه العام للغرب من الإسلام والعالم العربي، لم يخل من بدرة من علماء ورجال دين كانوا أمناء في فضح موقف الغرب هذا، بل وناصروا الإسلام وموقفه الحضاري وكشفوا حقيقة دور الغرب.

وبإزاء ذلك كله لا نملك إلا أن نقول: لا. لا لكل الألاعيب الخفية والأيادي العابثة التي لا تضمر لنا ـ مسلمين وعرب ـ غير التعصب من أجل تأكيد زرع الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وتقسيم العالم العربي، وضياع هويته وتحويله إلى دولة علمانية عميلة أو تابعة للغرب ـ على أحسن الفروض ـ وبخاصة بعد نشر بذور التحريف في عقيدتنا وتراثنا بل وقرآننا، باسم العصرية حيناً والحداثة وما إليها حينا أخر.. وذلك كله حتى نفقد هويتنا وأصولنا..

أن على الغرب، ونقولها بلا تجريح أو تعصب، أن يعيد النظر في كل ما اقترفه من تزييف في نصوصه الدينية لتشويه صورة الإسلام وأن يلتزم بالمبادىء التي يتشدق بها، مبادىء الحرية والعدالة والمساواة، وأن يكف عن حروبه الصليبية المستمرة والمختلفة تجاه العالم الإسلامي والعربي والتي يجد فيها متنفساً ليحقق أطماعه وسيطرته وترويج تجارة سلاحه واقتصاده بعامة، وأن يكف عن تقسيم العالم والمجتمعات لساده وعبيد وشمال وجنوب، وليته هنا يلتزم بالتعاليم الإنسانية التي بقيت لديه من أقوال السيد المسيح، وأن يلتزم بما جاء في حديث العشاء الأخير الذي بشر فيه بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم. ومع رَفضِ ذلك كله من جانب الغرب، فليجاهد علماؤنا ومفكرونا في مشروعهم الحضاري علي فضح دور الغرب، وأن نعمل على أن يدرك المواطن الغربي أن الدين لله والأرض للجميع، وأنه لا إله إلا الله، وموسى وعيسى

المسيح ومحمد هم رسل الله لتحقيق ديانة وحدوية واحدة لصالح البشر أجمعين، وأن نعمل على أن يكون لنا مخططنا الفكري والثقافي العام، القائم على القاء الضوء على الجذور الفكرية والثقافية والفنية لحضارتنا واستلهامها في بناء أي مشروع حضاري حتى نمحو عن جبيننا الفكري الحضاري وصمة التبعية للغرب وأن تعود لنا شخصيتنا المستقلة المتميزة.

وقبل أن ننهي هذه المقدمة يجب أن نشير إلى أن المسيحيين في الشرق أصبحوا يمثلون جزءاً متداخلاً من نسيج الأمة العربية، كما أنهم يمثلون حلقة وصل بين الشرق والغرب، لذلك يتعين عليهم التضافر مع المسلمين والعرب بعامة للحد من الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين لدى الغرب، وتصويب هذه الصورة التي يعرفون تماماً تفاصيل تزييفها والغرض من ذلك التزييف.. وبدلاً من التواطوء مع الغرب صمتاً أو الإستعانة به وزعم الإستنجاد به لتدخله وكأنها دعوة صريحة لاستعمار البلاد كما فعل بعض أبناء المهجر المنساقون في مخطط الغرب، لا نذكرهم فقط بعبارة مكرم عبيد حين قال: «إنني مسلم وطناً مسيحي الديانة» وإنما نطالبهم باتخاذ موقف فعال لا لحماية الوطن فحسب وإنما للحد من ذلك التعصب الذي يجتاح العالم متلفعاً بستار الدين..

الفصل الأول

محمد والإسلام

في عيون الغرب..

نتناول في هذا الفصل ما قام به الغرب لمهاجمة سيدنا محمد والإسلام والمسلمين.. موجزين ذلك في خطين أساسيين هما: المجال الأدبي من جهة، وترجمة معاني القرآن من جهة أخرى. والمجال الأدبي هنا يشتمل على استشهادات من الرواية والشعر والمسرح، ومن أدب الرحلات، والأبحاث التاريخية والإجتماعية واللغوية والقواميس والموسوعات ـ وكلها مؤلفات تتم وفقاً لمخطط واحد وتوجيه بعينه، وهو التشويه والتجريح لهدم الإسلام، أو تساهم في هذا الهدف ولو بجملة عابرة..

أما في القسم الثاني من الفصل، فنتناول فيه ترجمات الغرب للقرآن، وكيف أنه منذ أول ترجمة تمت في القرن الثاني عشر، بناء على طلب البابا «بطرس المبجل» ليهاجم بها الإسلام مواكبة للحرب الصليبية واستمراراً لها، حتى آخر ترجمة طالعناها، كلها تتخذ نفس الخط السابق الإشارة إليه: التشويه للهدم مروراً بالتشكيك في نزوله وتثبيته، وصولاً للمطالبة بفرض الدراسة العلمانية على القرآن لفصل الدين عن الدولة.. وقد تناولنا ترجمة المستشرق الفرنسي جاك بيرك كنموذج لهذا الموقف.

في المجال الأدبي

عندما يتأمل المرء هذا الحشد من الأباطيل والمغالطات التي تعج بها المراجع بأقلام كتّاب فقدوا نور الموضوعية وتاهوا في ظلمات التعصب، لا يملك أي باحث عن الموضوعية ـ إن كانت كذلك ـ إلا أن يدرك أن الأمر ليس أمر موضوعية فحسب بل هو الغرض المريض! إنها لا تعمى الأبصار وإنما

تعمى القلوب التي في الصدور.. وها هي بعض هذه الأقوال المسمومة التي تحتاج لأكثر من وقفة:

«من بين كافة الأنسقة السياسية والدينية التي بُليت بها البشرية، لا يوجد ما هو أكثر تكبيلاً للحرية من الإسلام» (الأب جيوم رينال G. Raynal **التاريخ الفلسفي والسياسي للهندين**، 1770).

«لقد ظهر محتال في بلاد العرب وارتجل الأكاذيب باسم السماء واستطاع أن يفرضها على جزء من مواطنيه: وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة، وانتشرت بالسلاح في آسيا وإفريقيا وأوروبا ويسمحون لمتعصبين طموحين أن يغزوا كل الأرض ويروونها بالدماء.. إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح وهي تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامي على انقاضها» (هولباخ Holbach: **الأخلاق العالمية**، 1776).

«الإسلام: دين أتى به محمد الذي ولد عام 591 بمكة، إحدى مدن شبه جزيرة العرب السعيدة، تحت حكم الامبراطور موريس. لقد كان شديد الذكاء بحيث تعلم العهد القديم والجديد، وتخيل منهما ديانة أقامها نقلاً عن ظهر قلب، وقسمها إلى مائة وأربعة عشر فصلاً مليئة بالروايات والأكاذيب. وهي عبارة عن فريات مجنونة لا رحمة فيها ولا نظام. إن هذا الكتاب يعد من يقرأه ألف مرة بحورية في الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح» (**قاموس الفنون والعلوم**، 1732).

«الإسلام يعني: الله هو الله. إنه دين التوحيد وليختفي الإنسان، وليختبىء الجسد.. لا صور فيه ولا فن لأن هذا الرب الغيور يغار حتى من رموزه. إنه يستحوذ على الإنسان ولا بد له من أن يكتفي به.. فالأسرة قد تهدمت تقريباً وكذلك القرابة والقبيلة.. واختبأت المرأة في الحرملك. لقد سمح بأربع زوجات لكنه أقر محظيات بلا عدد.. أن العلاقات قليلة بين الأخوة وذويهم.. ولا يوجد لديهم مسيح ولا أي وسيط ولا إله إنسان.. إن هذا السُلّم الذي منحتنا المسيحية إياه والذي يصعد إلى الله عن طريق القديسين والعذراء والملائكة ويسوع، قد ألغاه محمد كما ألغى أي تدرج إلهي أو إنساني» (الأب ميشليه Michelet: **تاريخ فرنسا**، الجزء الرابع، 1861).

أما ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي يدعى بونو دي كونديلاك B.de Condillac، صاحب المذهب الحسي، فقد كتب عن سيدنا محمد قائلاً: «لقد كوّن مشروعه بمحض الصدفة وسانده بفضل جرأة احتياله واستطاع أن يتمه لأن الظروف قد ساعدته على ذلك، ولقد كان مصاباً بالصرع.. وذات يوم فاجأته زوجته «كاديج» في إحدى النوبات وتخيَّلت أنه في حالة وجد.. واستغل محمد سذاجتها وأكد لها أنه يرى الرؤيا وأن الله يحدثه خلالها عن طريق الملاك جبريل. وقامت «كاديج» بنقل ذلك لنساء أخريات معلنة أن زوجها نبي: وانتشر الخبر وتراكمت النبوءات مع تراكم الكلام وتزايده.. فقامت الجماهير باتباع ذلك الرجل الملهم الذي اقنعهم بسخاء خياله».. (**التاريخ الحديث** 1767).

وكان هناك أب وأديب يدعى لويس موريري L. Moreri، قد كتب قبل ذلك بقرن تقريباً قائلاً في: **القاموس التاريخي الكبير** (عام 1674): «محمد: نبي مزيف، عربي الموطن، ولد عام 571 وفقاً للتقدير العام.. فقد والديه وهو طفل وقام عمه أبو طالب بتربيته. ودفعه الفقر ليخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بامتاع أرملته المسماة «كاديج» لدرجة أنه تزوجها وأصبح وريثها الوحيد. فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته.. وبعد ذلك شارك كل من باتيراس، وهو هرطقي يعقوبي، والأب سرجيوس، وهو راهب نسطوري، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع قرآنه. وبذلك أصبح دينه مكوناً جزئياً من اليهودية وجزءاً آخر من أحلام هرطقية واستسهالات جنسية لطبيعة منحرفة.. وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة».

ولم يكن ما كتبه الأب موريري هذا في قاموسه بغريب، ذلك أن الأديب الفرنسي بييربيل Pierre Bell، والذي يعد واحد من السبّاقين على العصر الفلسفي في القرن الثامن عشر، كان قد كتب عام 1697 في قاموسه المعنون: **القاموس التاريخي والنقدي** قائلاً عن محمد الرسول صلى الله عليه وسلم: «أن الملاك جبريل قد علمه وصفة «طبيخ» تمنحه قوة فائقة للإستمتاع بالنساء.. وكان يتباهى بأن وصفة هذا «الطبيخ» التي تعلمها من الملاك جبريل تقوي الكلى. وعندما أكل منها أول مرة كان من القوة بحيث هزم أربعين رجلاً، ومرة

أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب»!!.

ولم يكن هذا الوصف لسيدنا محمد بغريب أو جديد، إذ أن عالم الإنسانيات الفرنسي دومنيك بوديه D. Baudier كان قد كتب قائلاً: «إن محمد، الغارق في الملذات المنحرفة، نظراً لميوله الطبيعية، لم يخجل من أن يقول في قرآنه أن الله قد حباه من قوة الكلى قوة أربعين شخصاً من أضخم ما جني الدنيا»!! (**التاريخ العام للأتراك**، 1632). ويواصل نفس المؤلف في نفس الكتاب قائلاً: «أن المعجزات من علامات الأنبياء.. وبما أن محمد لم يكن بوسعه أن يقوم الناس بالتأكد من معجزاته، فقد استعان بالخدع والخرافة ليسوق أفكار شعبه الفظ الجاهل ويفرضها على كل العرب. وفي محاولة منه لاستتباب الشرع بمعجزات جديدة اخترع ما يلي: كان يجمع الشعب في الميدان العام، ليكون شاهداً على أن روح الله ينزل عليه، وبينما هو منساق في اختراع الأقاصيص الجديدة، كانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان ما قرب منكبيه وتلتقط الحب الذي كان يضعه لها في فتحة اذنه، موهماً العرب بذلك أنها كانت تمليه إرادة الله وكلمات شرعه»..

بينما كتب الأديب بيير برانتوم، كاتب المذكرات التاريخية الفرنسي الشهير يقول: «هناك كتاب بالعربية عنوانه «من عادات محمد الطيبة» يمتدح قواه الجسدية ويتباهى بأنه كان يمكنه أن يضاجع أحد عشر امرأة تباعاً، وأن يكرر الجولة في ساعة واحدة.. عليه اللعنة ذلك الحقير»! (**حياة نساء مستهترات**، 1610). ولعل هذه اللعنة ووصفة التحقير هذه وما تضمنته المؤلفات التي لا حصر لها في كافة بلدان الغرب في عصر ظلماته الظالمة هي التي ساعدت المؤرخ الفرنسي وعالم الإنسانيات دومنيك بوديه أن يكتب عن سيدنا محمد قائلاً في نفس كتابه المذكور آنفاً: «إنه لم يكتف بإقامة مَبْغًى في الأرض، فأقام آخر في السماء»!!

وإذا ما تساءلنا عن سر هذه الصورة القاتمة المريرة المهانة التي نطالعها في المراجع العلمية والأدبية في الغرب منذ آماد طويلة لم يتوقف نعيقها، نرى الإجابة في مقدمة كتاب شانتال دراجون Chantal Dragon الصادر عام 1990 بعنوان: «**عرب، هل قلت عرب؟**» حيث نقرأ: «أن صورة الإسلام هذه قد تطورت أساساً بدافع من الكنيسة صبيحة الحروب الصليبية ولم يتعرض لها أحد

فيما بعد أو يناقضها بل لقد ظلت الإطار المرجعي الوحيد الذي استمرت الفلسفة والآداب تنهل منه حتى مطلع القرن التاسع عشر».

ولم تكن هذه الرؤية ناجمة عن الدافع أو التيار الديني المتعصب والناجم بوضوح أكبر بعد هزيمة الحروب الصليبية واجهاضها في مهمتها الرئيسية، خاصة وأن الإسلام كان قد تحدى التعصب في معاقله، أي في كل من القدس والقسطنطينية فحسب، وإنما لأن العرب ـ الذين اتخذوا مكانه ثقافياً ومكانة روما عسكرياً قد قاموا بنقل حضارتهم إلى الضفاف الغربية ذلك أن انتشار الإسلام قد واكبه ازدهار متألق في علوم الطب والجبر والبصريات والفلك وغيرها، وفي نفس ذلك الوقت قام العرب بدراسة وترجمة المؤلفات اليونانية، ومنها أعمال كل من أرسطو وبطليموس..

لذلك لم يكن الغرب يرمي إلى صد الإسلام والحد من انتشاره عقائدياً فحسب، وإنما طمس معالمه وآثاره أو تشويهها في كافة المجالات.. وهو ما نراه واضحاً فيما كتبه الأب ارنست رينان كتبرير لتلك الحملات التشهيرية: «أن هذا العلم العربي وهذه الفلسفة لم تكن إلا ترجمات ركيكة للعلم والفلسفة اليونانية. فما إن استيقظت اليونانية الأصيلة حتى اصبحت هذه الترجمات الهزيلة بغير ذات موضوع». لذلك قام فلاسفة عصر النهضة بشن هجوم عليها في شكل حرب صليبية حقيقية» (**عرب، هل قلت عرب؟** صفحة 20).

وهو استشهاد لا يتضمن إيضاحاً لدلالة ذلك الهجوم العلمي الممثل في «حرب صليبية حقيقية» أخرى، وإنما يؤكد في الآن نفسه تلك الحملة التي قادها التعصب من قبل بداية الحروب الصلبية العسكرية. إذ لا يمكن لأحد أن يغفل أو ينكر كيف تعرض الإسلام لهجوم منظم منذ بداية انتشاره بأقلام المؤرخين البيزنطيين وعلماء اللاهوت من أمثال يوحنا الدمشقي، تيودور أبي قرة، وإيليا أو عبد المسيح الكندي ـ ذلك الجمع الذي انضم إليه رهبان أوروبا ابتداء من القرن الثاني عشر حتى يومنا هذا.. ولا يمكن هنا أن نغفل ذلك الدور الذي لعبه جمهرة من المستشرقين لتغذية هذه الحملات، حتى من بين أولئك المتلفعين بالعلم والمناهج العلمية من أمثال الكاتب الأسكتلندي إدوين موير (1887 ـ 1959) القس لامنس، وبرتولد، وبرتلز أو ولهاوسن وساشو.. ذلك أن حشداً ممن قام منهم بزعم الرد على افتراءات الحملات المغرضة السابقة

موضحاً بعض الحقائق أو منصفاً، فإنما قاموا بهذا الدور ليتمكنوا من توجيه ضربات أرادوها أشد وطأة كما سنرى.

وغني عن القول بأن أغلب هذه الحملات قد بدأت حتى بتشويه اسم سيدنا محمد لبلبة القارىء وعدم استقرار اسمه الكريم في الأذهان، وياله من تعصب! فمن قائل مافوميه Maphomet وبافوميه Bophomet، وماتوموس Mathomos وماكوميتسMacomites، وماكومتو macometto، ليستقر في الفرنسية إلى «مأوميه» Mahomet، تحت زعم أن ذلك هو نسخ اسمه في الفرنسية!، ومن الغريب أن نرى كافة كتّاب الغرب وخاصة في فرنسا حيث بدأت وانتشرت واستقرت هذه البدعة «مأوميه» فإنهم جميعاً يعرفون كيف يكتبون اسم محمد صحيحاً حينما يتعلق بأي فرد آخر سوى الرسول عليه الصلاة والسلام.

وسرعان ما أصبح اسم ماكوميه أو باكومتو أو أيّ منها يعني في هذه المؤلفات الموجهة مرادفاً لكلمة ساحر وماجن منحل، وسارق للجمال، وخاطف للنساء، ودجال، ومحتال، بل وكردينال لم يتمكن من أن يصبح واحداً من البابوات فاخترع ديناً جديداً ينتقم فيه وبه من زملائه.. بل حتى اسم خديجة عليها السلام قد تم تحريفه ليصبح «كاديج»Cadige حيناً، كما رأينا آنفاً، أو «كادريج» Cadrige أحياناً أخرى!!

ولا يتسع المجال هنا لتناول كل الذين ساهموا في هذه الحملات التشهيرية المغرضة، مما قد يتطلب مجلدات ومجلدات.. إلا أن أسطورة الغرب المعروفة ضد سيدنا محمد، أو تلك التي «تضفي» عليه صفة الاحتيال قد بدأت تكتسب شكل الإصرار المريض والملح بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي، ونذكر منهم الأب جيبير دي نوجان (1052 - 1124) والأب بيير كلوني Pierre Cluny المتوفى عام 1156، وجاك دي فيتري J. de Vitry (المتوفي عام 1244) الذي أكد أن الشيطان قد زود الرسول عليه الصلاة والسلام بسادة ومعاونين من الشياطين، ومارتيه بولنكو M. Polonco (المتوفي عام 1274) الذي «أضفى» عليه صفة رئيس عصابة متحالف مع الشيطان الذي أملاه ديانته، وفنسان دي بوفيه (1190 - 1264) V. de Bouvais صاحب الموسوعة المكونة من أربعة أجزاء والمسماة **سبيكولوم** Speculum، أي المرآة والتي تناول فيها

سيرة «ذلك الآفّاق واحتيالاته»، وبيير بسكازيو (1228 - 1300) P. Pascasio الذي ابتدع قصة ذلك الذي حاول أن يصبح كردينالا وفشل فابتدع عقيدة جديدة انتقاماً. وهي فرية تناقلتها الأقلام طويلاً. ومنها توماسو توسكو T. Tosco، والراهب الدومنيكاني ريكالدو مونتكروتش (1243 - 1320) R. Montecroce، وما أكثر عدد الرهبان الذين تناولوا هذا المعطى السخيف والمتبذل معاً.

وفي القرن السابع عشر واصلت الجمعية الرهبانية المكلفة بالدعاية للإيمان بتكليف العديد من الأباء مثل بونا فنتورا مالفوزيا B. Malfozia، وفيليب جوادانيول Ph. Guadennol الذي يقول عنه همفري بريدو H. Prudeau إنه «استقى كل توجيهاته ومعلوماته من البابوات ومن المجامع» في كتابه المعروف باسم: **حياة محمد المحتال، كما رآها المؤرخون العرب والفرس واليهود والكلدانيون واليونانيون واللاتينيون، مصحوباً بموجز تقويمي يوضح الزمن الذي عاشوا فيه وأصل وطابع كتاباتهم، باريس عام** 1699!! ويا لها من دقة في التحديد والمعطيات!!.

وتكمن أهمية همفري بريدو هذا في أنه كان من أوائل الذين بدأوا يستعينون بالمراجع العربية وغيرها للدلالة على مصداقيتهم العملية، كما راح يدين بعض الفريات الموغلة في لا معقوليتها. وإذا ما اعتبر البعض المستشرق الهولندي أدريان ريلانت (1676 - 1718) من أوائل الذين أخذوا يتشدقون بالأساليب العلمية والدراسة الدقيقة والابحار العلمي إلا أنه سرعان ما ينكشف لنراه يندد بذلك الطبع لدى المسلمين، الذين ما إن تبدأ النقاش معهم حتى يسارعون بالاستشهاد بالقرآن، ثم يضيف قائلاً: «ومع ذلك بقي أن نناقش معهم نفس حجة القرآن ومصداقيته، وإذا ما استطعنا أن نصل إلى هذا، فليس من الصعب عندئذٍ أن نستخرج لهم من هذا الكتاب بعض الأشياء التي توضح أنه ليس منزلاً» (**دين محمد**، الجزء الثاني، صفحة 138 - 139) ثم ينساق في فريات ضد الإسلام أشد وطأة من فريات من سبقوه.

وفي الإهداء الذي وجهه لأخيه، قبل مقدمة هذا الكتاب، يتساءل آدريان ريلانت قائلاً: «هل من المعقول أن دين بمثل عبث الإسلام كما يصفه لنا المؤلفون المسيحيون يمكنه أن يجد ملايين من البشر الذين هرعوا إليه؟.. فلا

يوجد أي دين من الأديان قد هوجم أو افتري عليه مثلما افتري على الإسلام، ومع ذلك لم يقم واحد مثل الأب ماراتشي Maracci بعد أن لاحظ اعتناق العديد من اليهود والمسيحيين للإسلام، بتفسير هذه الظاهرة الغريبة بأن المسلمين قد استعاروا من المسيحية الكثير من جوانبها؟ من الضروري إذن ألا نحارب الإسلام دون أن نعرفه تماماً، وفرصة هذا الصراع الحكيم تتزايد يوماً بعد يوم بسبب العلاقات المتزايدة بين الأوروبيين ومسلمي تركيا وافريقيا وفارس والهند الهولندية حيث نرى للأسف الكثير من المسيحيين يلطخون المسيحية بالعار. ولا شك في أن فرصة انضواء المسلمين إلى الإيمان الحقيقي هي أن نظهر لهم العطف والتفاهم في المناقشات الدينية معهم، بدلاً من أن نسبهم ونكيل الفريات بكل سذاجة..» ثم يطالب المسيحيين المقيمين في الشرق بألا ينعزلوا وإنما يتعين عليهم التداخل للتعرف على خصومهم من الداخل.

ثم راح يندد بتلك الفكرة القائلة ـ في الغرب ـ بأنه لدينا الكثير من الكتب التي تدين الإسلام أو تحيطنا علماً به. قائلاً: «إن معظم هذه المؤلفات التي حاربت الإسلام لم تحارب سوى الأشباح التي خلقوها، فهي أشبه بالانتصار على العدم» ودليله على ذلك تزايد انتشار الإسلام ـ ومن ثم راح يطالب بضرورة تعلم اللغة العربية وضرورة معرفة آدابها التي هي جزء لا يتجزأ من الدين. وها هو أخيراً يتناول الهدف الذي دفعه إلى هذا العمل الضخم قائلاً:

«إن هدفي لم يكن الدفاع أو تنميق ديانة أبغضها، فما أبعدني من أن أقوم بعلاقة دفاعية وهجومية. إن من يتخذ مثل هذا الحكم يؤذيني ويضر العدل والعدالة. لقد اضطررت إلى الدفاع عن هذه الطائفة من الأشياء التي أدينوا بها عن غير وجه حق، وإلاّ لكنت أهنت الحق بمساندة الأكاذيب والفريات وإذا ما كان هناك من يفضل مساندة وترديد هذه الأكاذيب التي لا تستند إلى أية سلطة شرعية ويكيل للمسلمين تلك الصفات الجميلة مثل: أفظاظ، وحمقى، وحمير وحشية، ومجانين، ومخبولين وأتباع الشيطان، بدلاً من أن يصوب هذه الفريات فذلك يوضح لي كيف أن العالم يؤثر أن يتم خداعه وأن تحكمه الأفكار المسبقة» (صفحة 70 ـ 71).

إن هدف المستشرق آدريان ريلانت من هذا الكتاب ليس الدفاع عن محمد وعن المسلمين، وإنما يرمي إلى تفنيد الأكاذيب والفريات والأفكار

المسبقة التي كالها الغرب ضد محمد والإسلام والمسلمين لكي يتمكن من محاربتهم بشكل أفضل، حيث يقول: «لكي نأخذ الحيطة، نحن المسيحيون، وأن نتناول خلافاتنا معهم بطريقة عقلانية بحذر ولباقة وأن نحاربهم من الآن فصاعداً بمزيد من الوضوح والعمق وليس بعدد الإتهامات والإنكار» (174 - 175) أي أن يحاربوا الإسلام بالكيف وليس بالكم!.

ولقد آثرنا أن تكون لنا وقفة مسهبة هنا حول هذا الكتاب لنوضح خط سير هذه الحملة المبيتة ضد الإسلام والمسلمين وكيف أنها لا تكل ولا تهدأ أو تمل وإنما تأخذ أشكالاً ومظاهر مختلفة. وإذا ما كان هذا الكتاب يرجع إلى مشارف القرن الثامن عشر، فإن آخر ما سنتناوله من هذه القائمة التي لا حصر ولا عدد لنفثات سمومها، إنما هو كتاب الأب جان كلود بارو J. CL. Barreau عن الإسلام والعصر الحديث والذي صدر في باريس في شهر سبتمبر عام 1991 وعنوانه: **عن الإسلام عامة والعصر الحديث بصفة خاصة.**

ويبدأ الأب جان كلود بارو كتابه بإتهام المستشرقين الذين بدأوا يميلون للشرق في كتاباتهم بأن دافعهم إنما هو الخوف من أن يحرموا من زيارة أصبحت شبه تقليدية لكل الذين يعملون في المجال الثقافي بمختلف مجالاته أما الموضوع الرئيسي أو الدافع لكتابه هو ذلك الدور الذي يلعبه الإسلام حالياً على الساحة العالمية والمكانة التي يحتلها في فرنسا بصفة خاصة أو أنه يمثل الديانة الثانية من حيث عدد الأتباع. وأول ما يصب عليه جام غضبه تلك الأسطورة الذهبية القائلة بأن الإسلام دين تقدمي ودين تسامح، والرد على ما يسميه بالزعم القائل بأن الإسلام قد أنجب حضارات كبرى.. وهو يبدأ بتفنيد نزول القرآن وتدوينه أيام الرسول، محاولاً بذلك أن يطرح على القرآن الكريم كل ما أصاب الكتاب المقدس بعهديه من إضافات وتحريف. ثم ينتقل إلى الأمة العربية مشيراً إلى الخلافات القائمة بينها وأنه لا يربط بينها سوى لغة القرآن ليجزم بأن: «فكرة وجود أمة عربية مجرد خرافة».

وبعد إدانة جان كلود بارو لمصداقية نزول وتدوين القرآن، مندداً بمقولة استحالة ترجمته، مشيراً بترجمة ذلك المستشرق الآخر المدعو جاك بيرك (والذي نتناول ترجمته للقرآن في الجزء التالي)، كتب يقول: «إن القرآن أقل بكثير من الكتب الدينية الأخرى كالإنجيل أو البجاماجيتا أو حتى الألياذة!

فالقرآن بالنسبة لهذه الأعمال الجليلة كتاب بالي شديد الملل، ولعل ذلك الملل هو الذي جعل المستشرقين يأنفون من ترجمته»!!، ويا لها من كلمات ونعوت تصدر عن رجل دين مبجل!! واعتباره كل ما في الإنجيل بعهديه من تزييف وتحريف من «الأعمال الجليلة»..

ثم تناول السُنة التي يعرّفها بأنها المكملة للقرآن «حيث أن هذا الكتاب لم يشرّع لأي شيء»..

ولا يسع المجال هنا لعرض هذا الكتاب لكنا سنشير إلى الموضوعات التي تناولها وهي: الإسلام دين منقول وليس منزّل؛ الإسلام دين رأسي بلا وسطاء؛ الإسلام دين سياسي، أي أنه قائم على السلاح والجهاد وليس على التأمل، وأن محمد «ذلك الهارب المُهان» لم يقم بأي اصلاح؛ الإسلام دين تقليد متحجر يدفع على الخبث والرياء؛ وأن الإسلام دين ذاتي لا صلة له بالديانتين التوحيديتين الاخريين ولم ينبع من نفس الأصل؛ وأن الإسلام دين كبير عدداً ومساحة فحسب!.

وهو يكتب فصلاً عن الإسلام والعصرية أو الحداثة ليزعم فيه أن القرآن ضد أي تقدم كما يرفض العصرية وأن «الديانات التي ترفض العصرية مصيرها الزوال إذ أنها تمحى من الوجود».. ثم ينتقد أن المسلمين لا يستطيعون تناول القرآن ولا حياة الرسول بأسلوب نقدي، ثم يدين حقوق الإنسان في الإسلام وحقوق المرأة، والعمل، وينتهي به المطاف ليدين حضارة الإسلام. ولست في حاجة لأشير أن أي منصف بَعُد عن الهوى والغل والتعصب المقيت الذي يخشى في أعماقه سطوة الحق والحقيقة يستطيع أن يدحض كل هذه الأغاليط والترهات التي تناقض صحيح ما آتى به الإسلام عدلاً وصدقاً وحضارةً.

وآخر ما يتناوله هذا القس، الذي عميت بصيرته، من قضايا: هو الإسلام في فرنسا وأنه يتعين على الحكومة أن تعمل على امتصاص تلك الملايين الثلاثة التابعة للإسلام وعدم الرضوخ لمطالبهم الدينية والعمل على ضرورة إعادة تكوينهم واستيعابهم.. وهو يختتم سمومه وكل ما بثه من تحريف ومعاضلات ممجوجة ومليئة بالسخف المفضوح «بأنه يتعين على الإسلام أن يتأقلم ويمتزج بالعصرية أو أن يختفي»!!.

ويكفينا هنا تعليق أحد المثقفين الفرنسيين من أنه «أقذر ما كُتب عن

الإسلام والمسلمين في الآونة الأخيرة».. لذلك فهم يتداولونه سراً.. ولا تعليق لنا عليه سوى كلمة: عار.. عار على من في مثل هذه المكانة أن يكون أسلوبه بمثل هذا الإسفاف، وأدلته وبراهينه بمثل هذه المغالطات والفريات.. عار على الأب جان كلود بارو الذي يشغل منصب «رئيس مكتب الهجرات الدولية»، و«رئيس المعهد الوطني للدراسات الديمغرافية»، إلى جانب وظيفته الرئيسية «كمفتش عام للتعليم القومي» أن يكون بمثل هذا الانحطاط العلمي والأخلاقي..

إن هذه الفريات ـ كما رأينا ـ ليست بجديدة، وإنما تمثل مدداً متواصلاً يمتد منذ بداية انتشار الإسلام في حقبه الأولى حتى يومنا هذا.. لكنه إلى جانب هذا يكشف يقيناً عن ذلك المخطط الذي لا تمثل فيه الحرب الدائرة في البوسنة والهرسك الاحلقة صغيرة في سلسلة طويلة.. نقرأ مداها في ذلك التعبير الذي قاله يبير جوزيف برودون المُشرّع الاشتراكي الفرنسي في مذكراته عام 1846: «ما أن يتم تحرير أفريقيا من محمد وكل الهمج ـ على أيدي الشعوب المسيحية ـ حتى تصبح حرة ومستقلة؛ ونفس الحال بالنسبة للهند والصين: إن ذلك لهو حق الشعوب الجديد».

ويزيد آرنست رينان الأب المستشرق الفرنسي من وضوح هذا المخطط قائلاً في كتاب له عام 1863 عن: **حياة يسوع**: «إن الشرط الأساسي لكي تنتشر الحضارة الأوروبية، هو هدم ذلك الشيء الشديد السامية، أي هدم السلطة الإلهية للإسلام» هنا تكمن الحرب الخالدة، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أبناء إسماعيل من الفقر أو أن يتم دفعه رعباً إلى أعماق الصحراء»!!.

كما قال وليم جيفورد: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلاّ محمد وكتابه».

فإلى كل من لا يزال منساقاً وراء الغرب ـ جهلاً أو عن عمد ـ أهدي ما تقدم من شذرات علها تعاونهم على إتخاذ الطريق الصحيح.. وهي شذرات أو قطرات من بحر لجّى آسن، أو هي بمثابة حبيبات رمل وسط صحارى من الأكاذيب والفريات والمخططات المبيتة.. فهل نستيقظ ونعي؟!..

سؤال لا أظنه بحاجة إلى تعقيب..

في ترجمات القرآن

يقول الأب روبير كاسبار «أن الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبداً، بل ولم يحاول ذلك مطلقاً... وحتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون على مقربة من الإسلام، من أمثال يوحنا الدمشقي، تيودور أبي قرة، أو بولس الصيدوني، فلم يتمكنوا من إدراك جوهر الإسلام وعظمته وهي: التصعيد إلى الله الواحد الأحد... ولعلّ ذلك يرجع أساساً إلى أن الغرب المسيحي قد اكتفى لمدة قرون طويلة بتلطيخ الإسلام ومؤسسه باسخف الأقوال، دون حتى أن يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة. فأول ترجمة لاتينية للقرآن لم تظهر - كما سبق القول - سوى في القرن الثاني عشر - أي بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام، وقد تمت بناء على مبادرة من «بطرس المبجل» وتحت إشراف اسقف دير كلوني. ولا بد لنا هنا من إضافة أن هذه الترجمة وكل الترجمات التي تلتها لم يكن لها أي هدف آخر سوى أن تكون الأساس لتوجيه المزيد من الإدانات ضد القرآن، تلك الإدانات التي امتدت سلسلتها على مدى قرون تتناثر عليها بعض أشهر الأسماء» (**ڤاتيكان اثنين** صفحة 209).

وتمر الأيام، من منتصف القرن الثاني حتى القرن العشرين، من تلك الترجمة الأولى لمعاني القرآن، من أجل زيارة للبابا لإسبانيا فيما بين عامي 1141 و1143. وتتغير المسميات والأسماء لكن الغرض يظل واحداً.. فها هو المستشرق الفرنسي رجيس بلاشير يقول في مقدمة كتابه عن **القرآن**، عن هذا البابا المبجل: «وكان طلبه لترجمة القرآن استمراراً لروح الحروب الصليبية، ومن جهة أخرى لحاجته إلى ما يمحو أية آثار ما زالت عالقة بذهن الإسبان المسلمين الذين تم تنصيرهم حديثاً... ويبدو أن الترجمة التي تمت في مدينة توليدو لم تكن أمينة بالمرة وغير كاملة» (صفحة 10).

والنص ليس بحاجة إلى تعليق، فما تم آنذاك من «غسيل مخ» لمن نجوا من المذابح الصليبية في اسبانيا، هو بعينه ما يدور حالياً لنساء، البوسنة وأهلها الذين تأخذهم الجمعيات الكنسية وغيرها وتفرض عليهم الارتداد عن الإسلام، وإن كانوا حالياً ليسوا بحاجة إلى مزيد من تزييف النصوص فالقهر والاغتصاب يكفي..

ثم توالت الترجمات، وكلها تندفع من نفس المنطلق حتى كان القرن السادس عشر وبدأ يظهر الاستشراق والاهتمام بدراسة اللغة العربية بغية مزيد من التوغل ومزيد من الهدم والتجريح وفي القرن السابع عشر قام اندريه ربيه (1580 ـ 1660) قنصل فرنسا في مصر عام 1630 بعمل أول ترجمه كاملة للنص العربي نشرت عام 1647. وكانت أول محاولة أمينة في ابتعادها عن الصراعات. لكنها ما كادت تظهر حتى تبعتها ترجمتان إحداهما بقلم جرمان دي سليزى والأخرى بقلم لودفيكو ماراتشى لتعودا بترجمات القرآن إلى حظيرة التعصب وحلبة الصراع التي بدأها البابا بطرس المبجل «والتي تم خلالها تفنيد الدين الإسلامي ورفضه من خلال تعاليم القرآن» (بلاشير **القرآن** صفحة 11).

وتتربع ترجمة المستشرق الألماني نولديكة مكانة الصدارة بكل ما تحمله من تحريف يتلفع بأعلى المستويات العلمية اللغوية. أليس هو القائل في وصف القرآن وسيدنا محمد أنه «صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الأسلوب»؟! وهي الترجمة التي يتذرع بها بلاشير ليقول عن القرآن: «ذلك النص الغامض عادة والذي يصعب فهمه في سياقه الذي لا يتفق ـ ونصر على ذلك ـ مع المراحل الأربع المتتالية لنبوة محمد في مكة والمدينة» (المرجع السابق صفحة 13).. ولم يكتف بلاشير بالإصرار على تجريمه بقضية ترتيب الآيات المعروفة ولو رجع لكتب الفقه والتراث الديني لعرفها، وإنما ها هو يرمي بضربته الأخرى قائلاً: «إن الرغبة في فرض نص ثابت لا يتغير تبدو من ذلك الفعل الدنس أو إنتهاك الحرمات الذي تم بإبادة كل الأشياء التي تم تسجيل الآيات عليها بأياد ورعة قامت بجمعها من فم الرسول»!. (صفحة 21).

فعلى الرغم من اللباقة واستخدام الألفاظ المغلفة والمنمقة من ورع وتباكيه على ضياع الأصول، إلا أن فحوى خطابه يتضمن التلاعب وإبادة الأصل لعدم الكشف عما تم من تحريف.. وهي ليست إلا عملية إسقاط لما قامت به الكنيسة في أناجيلها ومجامعها وطرحها على القرآن الكريم الثابت نزوله وتثبيته بلا أي تحريف... بل وها هو يصل به الأمر إلى التشكيك حتى في نص مصحف عثمان اعتماداً على الهجوم الذي يكيله الغرب بمستشرقيه.. وما أغرب إزدواجية رجيس بلاشير هذا فهو من ناحية، يعلم ويقول أن كافة ترجمات القرآن قد تمت بغية إدانته وتجريح شرائعه، ثم ها هو يتذرع بهذه

الانتقادات ذاتها ليقول: «وحيال كل هذه الانتقادات نحن مساقون لأن نسأل الكتابة القديمة أن تأتينا بإجابة عن مسألة الأمانة المطلقة لنص مصحف عثمان» (المرجع السابق صفحة 25).

وتمر الأيام وتتساقط أوراق التوت عن عورة الاستشراق وينكشف أمره.. فهو كمنهج علمي ومحاولة فكرية لفهم حضارة الإسلام وعقيدته وتراثه لم يكن إلا لمهاجمته والتنديد به وبأمة الإسلام.. ولعل ذلك هو ما دفع المستشرق جاك بيرك إلى رفض وإنكار انتمائه إلى الاستشراق والتمسك بأنه دارس للتاريخ ومؤرخ!..

ولم يعد ذلك الموقف المغرض وحده هو ما يدين الاستشراق وأمانته العلمية، وإنما لقد أثبتت الدراسات التي قام بها العلماء العرب والمسلمين بأن أولئك المستشرقين الذين يدّعون فهم العربية، هم في الواقع لا يحسنونها.. وعلى الرغم من هذا الجهل الواضح باللغة، التي تعد أداة العمل العلمي الذي يزعمونه، فهم يصدرون أحكاماً مغرضة من حيث الشكل والمضمون وأمانة تنزيله وذلك فيما يكتبونه من مقدمات علمية، ليست في الواقع سوى معاول هدم متعددة الأوجه، تدور حول محور أساسي هو: زعم أن القرآن عقبة في سبيل إرتقاء الأمم الإسلامية!!.

وذلك بعينه هو ما راح يردده اللورد كرومر في كتابه في مطلع هذا القرن بناءً على آراء مستشاريه من المستشرقين: «إن القرآن هو المسؤول عن تأخر مصر في مضمار الحضارة الحديثة».. أو «لن يفلح الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة ويغطي به القرآن»!!! **(مصر الحديثة ، 1908)**.

وذلك بعينه هو الهدف العام الذي اتبعه المستشرق جاك بيرك في ترجمته للقرآن التي صدرت عام 1990، ولم تكشف عن أنه إنسان بوجهين فحسب، بل أنه يفتقد الأمانة العلمية في ترجمته وفي أسلوبه الذي يشي عن تعصب مغرض أدى به إلى تشويه صورة الإسلام.. ومن المؤسف أن يقوم أحد تلاميذه ليعلن عن لسانه، في مؤتمر «نحو مشروع حضاري جديد» المنعقد في جامعة القاهرة في يونيو (حزيران) 1992، عقب إشارتنا إلى هذه الترجمة المغلوطة قائلاً: أن جاك بيرك يتأسف لما صدر عنه عفواً وهو على استعداد لتصويب هذه الأخطاء»!!.

وهنا لا نملك إلا أن نسأل: ما جدوى الاعتذار الشفهي أو الوعد السيار بالتصويب بينما آلاف النسخ تتداول بين ملايين المسلمين المقيمين في فرنسا أو في مستعمراتها والذين لا يقرأون سوى الفرنسية؟!..

ويقول المثل «لكل عالم هفوة، ولكل حصان كبوة».. ومن البديهي أنه كلما ارتفعت مكانة العالم وارتقى، كلما كانت «هفوته» بنفس القدر انحداراً... ولا شك في أن جاك بيرك يعد أحد عمالقة الفكر الفرنسي المعاصر، ولا شك في أنه واحد من المع المستشرقين، بما أنه حصل على عضوية مجمع اللغة العربية بمصر!! أي، بقول آخر: إنه عملاق في مجاله.. ومن هنا يمكن إدراك عمق «الهاوية» حينما يسقط من في مثل مكانته.

ولا شك في أن الجهد الذي قام به لترجمة معاني القرآن ذلك الجهد الذي استغرق ما يزيد على العشر سنوات ـ على ـ حد قوله في الأحاديث الصحفية (القبس 26/ 1/ 1989) هو جهد عملاق. وكم كنا نود أن تأتي ثماره لتكلل المكانه العلمية التي يحتلها.. لكن، من المؤسف حقاً أن تخرج ترجمته إلى النور وهي تحمل بين صفحاتها العديد من الظلمات والنواقص! وما كنا نرضى لمن في مثل مكانته العلمية بأن يحمل آخر أعماله، وعن القرآن، مثل هذه السقطات.. لكن الأخطاء في الأعمال العملاقة.. عملاقة أيضاً.

ونظراً لخطورة الموضوع وحساسيته الشديدة من ناحية، ونظراً لتعدد عناصره وتشعبها من ناحية أخرى، فلا بد لنا من تناولها تباعاً وبوضوح حتى لا يلتبس الأمر وتتوه الحقائق..

ومنذ البدء، لا أزعم أنني قرأت كل ترجمته لمعاني القرآن، وإنما قرأت بروية المقدمة التي كتبها وتقع في اثنين وثمانين صفحة، ولا أزعم أيضاً أنني من الضالعات أو الضالعين المتخصصين في الدين الإسلامي وفقهه، إلا أن ما ورد في هذه المقدمة من مغالطات وتحريف ومعاني تتخفى بمسوح العبارات اللغوية المعاضلة ـ فأسلوب جاك بيرك مشهور بتحذلقاته الملتوية ـ وكل ما ورد في هذه المقدمة من تشويه واستفزاز، يحتم علي، كأستاذة للحضارة أتمت كل مراحل تعليمها بالفرنسية، أن أقدم ما ورد في هذه المقدمة وبعض ما رأيته في الترجمة حتى يتمكن المختصون والمهتمون بهذا الموضوع من مجابهة فرياته، والاهتمام الواجب للتصدي للعديد مما أتى به جاك بيرك.

وقبل أن نتناول ما ورد في هذه المقدمة، لا بد من أن نتساءل: ترى لماذا هذه الترجمة لمعاني القرآن؟ لماذا وهناك العديد من الترجمات وأغلبها قام بها مستشرقون مثله؟! من المعروف أنه حينما يتعرض المرء لترجمة عمل ما - خاصة وإن كان ذلك من اختياره المطلق وليس بتكليف ما، فإنه عادة ما يرجع لأحد أمرين: سواء أكان إعجاباً بهذا العمل ورغبة منه في نقل ما ورد فيه إلى أكبر عدد ممكن من القراء؛ أم احتجاجاً على ما تضمنه، فترجم للرد عليه أو أملاً في أن يتولى الآخرون هذه المهمة. ولا أعتقد أن ما ورد في مقدمة جاك بيرك يسمح لي بالقول بأنه إنما قام بهذا الجهد كله إعجاباً بالقرآن وبالمسلمين!..

إن هذا السؤال الأول يقود إلى سؤال ثان هو: ترى لمن هذه الترجمة؟ من غير المعقول - بداهة - أنها قد تمت من أجل المسلمين المتحدثين باللغة العربية، فجميعهم يقرأون القرآن في لغته الأصلية التي هي لغتهم الأم. أي أن هذه الترجمة قد تمت - بلا شك - من أجل المتحدثين باللغة الفرنسية. وهم، إما أن يكونوا من الفرنسيين أنفسهم، وأما من الشعوب المتحدثة بالفرنسية - ولا أعتقد أن أغلبهم من المسلمين.

ولعل التعبير الذي قاله جاك بيرك ضمن حديث له مع مراسل جريدة «القبس» (22/ 6/ 1991) يكشف عن الهدف الحقيقي لهذه الترجمة ولهذا الجهد المنبت الذي قام به، إذ يقول ضمن سياق الحديث **«لأن الكثير من الناس والمفكرين الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ويرفضون مجتمع الاستهلاك، هذا المجتمع المادي المحض، ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها»**!. أي أنه أدرك أن تحول العديد من الناس والمفكرين عن معتقداتهم أو دياناتهم غير الإسلامية - سواء في فرنسا أم في البلدان الخاضعة لسيطرتها - واعتناقهم الإسلام هو واقع معاش اليوم، وهو في حقيقة الأمر ما يفزع منه جاك بيرك كما يبين في المضمون الخفي للعبارة فراح يسفه لهم معاني ذلك القرآن الذي يجذبهم بروحانياته وباتزان تعاليمه الشاملة للحياة الدنيا وللآخرة، آملاً الحد من هذه الموجة الآخذة في الانتشار!..

وليس هذا الموقف بغريب أو بجديد على القرآن وعلى الإسلام والمسلمين فها هو مستشرق آخر، ند ومعاصر له ومن بني جلدته، المستشرق

رجيس بلاشير، يقول في مقدمة كتابه عن «القرآن» متحدثاً عن «**الصورة المشوهة بصفة خاصة التي قدمتها أوروبا المسيحية عن محمد**»، مشيراً بذلك إلى العديد من الترجمات التي تمت لمعاني القرآن، منذ القرن الخامس عشر، والتي كانت «**كلها تمثل عنصراً أساسياً في الصراع القائم ضد الإسلام**». ورغم هذا الاعتراف الواضح، ورغم هذا التبرير لكتابة بحث جديد عن القرآن، فإن رجيس بلاشير لم يكن بالأمانة التي يزعمها كما أشرنا وإن كانت تلك قضية أخرى. إلا أن كل ذلك يأتي - للأسف - كاستمرار لنفس الخط ولنفس النغمة النشاز من القرن السابع حتى القرن العشرين.. ألم يكتب صمويل زويمر عام 1907 في كتابه المعنون: «الإسلام، تحد للعقيدة» وذلك في مطلع 1909 مقدمته: «أن كنائس المسيحية قد استيقظت أخيراً لحقيقة أن إحدى المشاكل الكبرى التي لم تحل بعد والتي تواجه إرساليات القرن العشرين هي تبشير العالم الإسلامي»؟!!.

ولا حصر لكل ما كتب قبلهم أو بعدهم، وكم كنا نود ألاَّ نمس هذا الجانب وتلك الحروب التشويهية التي قادتها الحروب الصليبية بأشكالها ضد الإسلام. وهو ما طالب مجمع الفاتيكان الثاني باستبعاد صوره.. إلاّ أن هذه الترجمة الجديدة لجاك بيرك لمعاني القرآن، وكل ما تتضمنه من انتقادات وتساؤلات وتلميحات، وما تتضمنه من نزعة استخفافية برزت من بين ثنايا عباراته بجانب تلك المغالطات التي يشي الكثير منها بدرجة من درجات التعسف في تناول الوقائع، كل ذلك برمته يكشف الوجه الآخر لجاك بيرك.. الوجه الآخر الذي لا يظهر أبداً في أحاديثه السيارة عن العرب والمسلمين أو عن القرآن!!.

ففي الأحاديث التي أجريت معه بصدد هذه الترجمة (القبس الأعداد السابقة) راح جاك بيرك يتشدق بكل صفات الإعجاز في البناء اللغوي والأسلوبي وكل ما يحتوي عليه من إيقاع ونغم وبخاصة إهتمامه بالحفاظ على ذلك كله، مما يوضح مدى صعوبة الترجمة.. وكله مديح قاصر على الشكل إن أمكن القول.. أما حينما يتناول المضمون، ترى ما الذي يقوله؟.

إن المحاور الأساسية التي تناولها في المقدمة تكفينا الكثير وهاك بعض ما ورد فيها.

• التشكيك في نزول وترتيب وتجميع القرآن.

• تأثر القرآن بالشعر الجاهلي وبالفكر اليوناني القديم (مؤكداً على ذلك في أكثر من موضع).

• تأثر القرآن بمزامير داود (وإن أشار للحاجة إلى أدلة أكثر دقة لإثبات ذلك).

• إحتواء القرآن لخط أسطوري ميثولوجي لفلسفة كوارثية النزعة للتاريخ.

• فظاعة صورة الله كما هي واردة في القرآن.

أما النقاط التي تعرض لها عبر دراسته اللغوية المزعومة أو التي تذرع بها ليبث تشويهاته في إطار يحاول التمسح بالأكاديمية واللغويات الحديثة من سمولوجيا وفينومنيولوجيا وسيمانطيقا وسيموطيقا، فننقل منها من قبيل المثال:

• انتقاده لمعيارية القرآن وأنها أبعد ما تكون عن التقنين.

• غموض تعبير الأحكام - على حد زعمه - مما سمح للمفسرين القدماء بحريات من التصرف غير المقبولة من مذاهب أخرى.

• تناقض الشريعة ومنها يخرج بالهجوم على الجماعات الإسلامية وعدم فصل الدين عن السياسة.

• جدل العلمانية الكاذب - وضرب العلمانية الحديثة.

• إثارة قضية فتنة خلق القرآن من جديد.

• زعمه بتحريف القرآن للأساطير «في شكل حوار مشبوب بعلم النفس الفارقي وبالطرافة»!.

• إتهام المفسرين بالغاء بعض الآيات أن كانت تخرج عن قبضتهم، أو تحريفهم لمعناها.

• محاولته لإيجاد توازي ما بين الفكر اليوناني ومفهوم الله في القرآن!.

وبغض الطرف عن أن كل هذه الموضوعات وغيرها كثير قد قتلت بحثاً وحسمها جمهرة من العلماء، فليست هذه هي جوهر القضية هنا.. وإنما لا بد من الإشارة إلى إصراره الغريب، منذ بداية المقدمة حتى نهايتها، على تأكيد تأثر القرآن بالفكر اليوناني بأكثر من وسيلة، سواء عن طريق اصداء فلاسفة الماضي

وخاصة بارمنيدس (515 - 440 وق.م.)، أو أصداء القانون المدني وتقنين الكنيسة السورية. ويذهب في نهاية تحليله إلى عمل نوع من التوازي بين الفكر اليوناني والإسلام قائلاً: **«إن العصرية الدينية في الإسلام تتلاقى في الطبيعية حيث تعكس إعادة بناء نفسها. وهكذا فهي تعيد إحياء معطيات قرآنية لا جدال فيها. ومع ذلك، أليس ذلك هو ما فعله الإسلام منذ البداية؟ لقد فعله بأن أخذ على عاتقه جزءاً من الميراث الجاهلي، بأن تقلد جزءاً من ميراث اليونانيين، بعد أن فرض على كل منهما تعديلات استعلائية صارمة»** (صفحة 792).. ويا لها من أمانة علمية!!.

ثم يختتم هذه المقدمة قائلاً: **«إن مشكلة الإسلام اليوم هي إذن ذلك الانفصال الذي يمكنه أن يتفاقم بين مواقف العقيدة ومسيرة العالم الفعلية، بل مسيرة العالم الإسلامي نفسه. فالإسلام يبحث عن ملجأ باتجاهه إلى الأصول. إلاّ أن عدم إمكانية إخضاعها إلى النقد التاريخي ونقلها إلى الحاضر، فإن ذلك لا يعيد لها قوتها الأصلية. إذ أن «الذكر» الحقيقي هو الذي يحوّل الذكرى إلى مستقبل. وهي عملية خلاقة، تبرمج العصرية بالاصالة، وتبدو لا غنى عنها في مواجهة هذه التجديدات التي يجب على كل نظام في العالم الحالي أن يقترح حلولاً ممكنة»**.

ترى أية حلول وأية تجديدات وأي نظام؟ ويسارع جاك بيرك بالإجابة في الفقرة التالية قائلاً: **الثورة التقنية والعلمية التي تتعدى بالفعل مراحل لم تصل إليها من قبل؛ انعكاسات هذه الثورة المتزايدة في التصرفات الفردية والجماعية، التوحيد المتزايد للكرة الأرضية والتحدّيات الناجمة عنه، بالإضافة إلى التصاعد الضمني للنوعيات؛ عناء العلماء القدامى ومتطلبات جماهير العالم الثالث في مجال الرفاهية، وحقوق الإنسان، والحريات.**

كُليمات... كليمات.. حيث المعنى الكامن أن الإسلام لا يواكب التقنية والعلمية وتحديات العصر بعامة، والإسلام هنا هو القرآن الذي قام بترجمة معانيه وليس المسلمون المعاصرون وإلا لكان لكلامه بعض المعنى.

ثم يختتم بيرك مقدمته المشحونة بالفقرة التالية: **«وهنا يؤدي تساؤلنا إلى تساؤل أكبر: هل الديانات الإبراهيمية قادرة على تحقيق مجهود التأقلم في المستقبل، ذلك المجهود الذي يقع على عاتقها جميعاً؟ ترى**

بأية طريقة؟ بأية شروط؟ وبأي ثمن؟ فيما يتعلق بالإسلام، حيال هذه المهام، فإن الصفحات السابقة تجعلنا نعتقد أنه ما زال أقل من الإمكانيات التي يتيحها له نصه الأساسي» (صفحة 793)!..

وبغض النظر عن محاولته المتعسفة للجمع بين الإسلام والمسيحية واليهودية في صعيد واحد، فها هو يقلل من بينها شأن الإسلام وحده! أليس هو «**ما زال أقل من الامكانيات التي يتيحها له نصه الأساسي**»؟ وهل عز عليه أن تكون آخر كلمة مكتوبة له هي «القرآن» حيث هو «**النص الأساسي**» الذي يشير إليه؟! ثم بأي حق يصدر حكمه بإدانة الإسلام بعد أن قام بتشويه صورته؟ ألم يكن من الانصاف أن يقصر نقده على المسلمين إذا ما كانوا مقصرين - في نظره - في تعاليم دينهم ونصوصه؟!

ترى هل تتفق هذه الصورة أو هذا الرأي مع حقيقة الإسلام أو حتى مع الإعجاب الظاهري الذي لا يكف عن التشدق به في الأحاديث الصحفية؟! ترى هل يتفق هذا الرأي و«الاطمئنان الروحي الذي كان يسعى إليه» ووجده في القرآن؟[2] (على حد قوله مع مجلة الجهاد!).

ومع ذلك، سأترك للمختصين الرد على ما أورده في مقدمته من نقاط ومحاور..

أما فيما يتعلق بالترجمة، فلقد بدأت بالفهرس.. ولم أفهم حكمة جاك بيرك في عدم اتباع منهج علمي واحد: فهناك عناوين سور لم يترجمها وإنما دوّن نطقها بالأحرف اللاتينية مثل سورة «الحِجْر» (15) فكتبها AL-Hijr̂ وسورة «الاحقاف» (46) AL- Ahqâf ألم يستطع أن يجد لهما معنى أو تعليلاً رغم كل التفاسير التي اطلع عليها؟ ولا أعتقد أنها صعبة الترجمة إذ أنه استعان بأولى الآيات لترجمة عناوين أخرى.

وقد استوقفتني بعض الترجمات أكثر مثل سورة «الإسراء» (17) فلم يكتف بترجمة معناها الذي حرفه إلى Le Trajet nocturne أي «المسيرة الليلية»، وإنما أضاف بعده عنواناً آخر هو «أو أبناء إسرائيل» فجاء على النحو التالي Le Trajet nocturne ou les fils d'Israël وهو غير وارد في المصاحف المتداولة.

ونفس الشيء مع سورة «غافر» (40) ترجمها إلى ما معناه «المؤمن أو

المتسامح» إذ كتب«Le Croyant **ou l'indulgent**» وغيرها كثير، أما سورة «النصر» (110) فقد ترجمها إلى «النجدة المنتصرة»! Le secours victorieux..

وهنا لا بد من وقفة فكلنا نعرف أن كلمة «النصر» معناها بالفرنسية La victoire وبالإنجليزية victoryإلا أن جاك بيرك قد أصر على عدم استخدام هذا المعنى. فكلمة النصر التي ترد في القرآن أحد عشر مرة، وتصل تصريفاتها اللغوية إلى قرابة المائة مرة، لم يترجمها مرة واحدة بمعناها الحقيقي. ففي سورة «البقرة» مثلاً نرى: «حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله» (214) ترجمها قائلاً:

«ÈEnvoyè de Dieu et ses compagnons dans la foi s'écrièrent: à quand **le secours** de Dieu»!

وفي نفس الآية نرى: «أن نصر الله قريب» ترجمها إلى:

«**le secours** de Dieu est toujours proche»!

وكان لزاماً عليه أن يكتب:

«La victoire de Dieu est proche»!

ولا يسع المجال هنا لتتبع ترجمة هذه الكلمة في كافة أشكالها، إلا أنه ما من مرة إلا وترجمها بكلمة «النجدة» وأحياناً «المساعدة» أو ما شابه ذلك.. وكأنه يأبى كتابة النصر للإسلام أو أن الإسلام قد انتصر!

وسورة «الفتح» (48) التي يتضمن معناها الجلي دلالة النصر قد ترجمها بتعبير «Tout s'ouvre» أي ما معناه: «أن كل شيء ينفتح»!! وهنا بادر جاك بيرك بوضع هامش يبرر فيه اختياره المغرض قائلاً: إن «فتح» اسم فعل «يفتح» ويقال عن الانفتاح الذي تمنحه بعض الانتصارات للمنتصر على المكان. ومعناها المجازي هو دخول في المفتوح وهو ما نراه المعنى الأوضح بسبب الآية الثانية والثالثة» (صفحة 554)!!

ولا يسعني إلا كتابة أول آية من سورة «الفتح» كنموذج على ثقل ومغالطة ترجمته فالآية تقول: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ فترجمها قائلاً«c'est bien Nous qui pour toi ouvrons l'ouverture éclatante»!!

ولست بحاجة للحديث عن ركاكة هذه الترجمة بغض النظر عن تحريف المعنى..

أما سورة «الروم» (30) فترجمها باسم العاصمة روما إذ كتب:Rome!!

ومن الغريب أن يضع هنا أيضاً هامشاً يقول فيه: «نقول روما لأسباب ترخيم الصوت أو التطريب (Euphonie)حيث كان لا بد من وضع كلمة «البيزنطيون» بالطبع» (صفحة 431)!! ويا للمغالطة السافرة! فمتى كانت الترجمة أو اختيار الكلمات يتم من باب الترخيم والتطريب بعيداً عن المعنى؟!

إن أبجدية أصول الترجمة تعني الأمانة في نقل المعنى بأوضح ما يمكن. غير أنه لو كان قد كتب كلمة «البيزنطيون» لنقل ذهن القارىء إلى عصر الفتوحات الإسلامية، وهو ما يحاول تحاشيه أو التضليل عليه طيلة الوقت.

وسورة «المُلْك» (67) ترجمها بكلمة «La Royauté» وتعني الملكية! علماً بأن كلمة المُلْك ومنها ملكوت الله موجودة في الفرنسية ومستخدمة في الإنجيل بعهديه.. وسورة «التكاثر» (102) ترجمها إلى ما معناه التنافس عن طريق العدد»: Rivaliser par le nombre! أية منافسة وأي عدد؟!

ولا يتسع المجال هنا لاستعراض الفهرس بأكمله ولا كل ما تضمنه من مغالطات وأخطاء لا أعتقد أنها قد صدرت بصورة عفوية ممن في مثل مكانته العلمية، غير أن هناك ما يؤكد سوء النية المبيّت، وذلك مثل إصراره على ترجمة كلمة «الرسول» ومعناها الأكيد في سياق القرآن هو النبي (صلعم)، وهي بالفرنسية: Le Prophète لكنه أبى استخدام هذا اللفظ ليبعد معنى النبوءة عن ذهن القارىء واستخدم كلمة: L'Envoyé ومعناها «المرسل من قبل فلان» أو المرسال.

ومما يزيد من تأكيد إصراره على سوء النية في نفس السياق عدم استخدامه مطلقاً لكلمة مسجد والمقابل لها في الفرنسية هو Mosquée بل والمعروف لغوياً وما يكتب في القواميس الفرنسية أنها كلمة «من أصل عربي» وراح يكتب مكانها كلمة Sanctuaire وأحياناً كلمة Oratoire! والمعروف أن كلمة Sanctuaire مشتقة من اللاتينية وتعني «جزء من الكنيسة حول المذبح حيث تتم فيه المراسم الطقسية»؛ وقد تعني «مكاناً مقدساً بصفة عامة وكلمة Oratoire مشتقة من اللاتينية ومعناها «كنيسة صغيرة من أجل استخدام جماعة معينة». فبأي حق يترجم «المسجد الحرام» (9 - 28) بـ Sanctuaire consacré؟

وعندما ترجم سورة «الإسراء» «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» (1/17) كتب يقول:

«O transcendance de celui qui fit aller de nuit, en un instant de la nuit, son adorateur de l'Oratoire consacré à l'Oratoire ultime»!

كما أن كلمة ultimeمعناها: «النهائي» أو «الأخير»، فهل تعبر عن المسجد الأقصى والمقصود به المسجد القائم في القدس؟ أم أنه أبى أن يذكر كلمة القدس لكي لا يربطها بالإسلام منذ ظهوره؟! ثم لماذا أضاف من عنده بعد ليلاً فقرة «en un instant de la nuit»والتي تعني «في لحظة من الليل» وهو استطراد غير موجود بالآية؟!

وأكثر من ذلك أنه لا يلتزم حتى باختيار واحد من هذه الاختيارات المغرضة ولا يستقر عليها. فالمسجد الحرام يكتبه تارة «le sanctuaire consacré» (2\144)وتارة أخرى يكتبه. (5\2) «l' Oratoire sacré». ومن أبجدية تعاليم الترجمة الالتزام بالتعبير الواحد المقابل للفظ المعين وعدم تبديله حتى لا يلتبس الأمر على القارىء..

ونفس الشيء بالنسبة لكلمة «الحرام» (بمعنى المقدس) فتارة يكتبها sacré وتارة أخرى يكتبها consacré!

أما عن عدم الدقة في الترجمة فلا شك في أن الخلفية القائمة على المغالطة والتمويه - إن لم يكن التجريح أحياناً - هي السائدة. فمثلما استبعد كلمة «النبي» «le Prophète»، «والمسجد» «la Mosquée» وخاصة المسجد الأقصى وغيره، فعادة ما نراه يستبعد ما يمت إلى العقيدة ومراسمها أيضاً. فتعبير «شعائر الله» (2/5) ترجمه إلى: «les **repérages** de Dieu»، وهذه الكلمة تعني «وضع علامات» بغية تعليم الشيء (من العلامة)، ولا تحمل المعنى الذي يعكسه تعبير كلمة rites(شعائر) المرتبط بالدين والذي كان يتعين عليه استخدامه.

وعلى سبيل المثال أيضاً، نورد ترجمته لإحدى آيات سورة «يوسف»: «فلما رأى قميصه **قُدّ** من دبر» (13/ 28) ترجمها قائلاً: «sa chemise était **trouée par** derrière»!علماً بأنه قد ترجمها في الآية (25) بأنها مزقت قميصه من الخلف: «واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر» كتبها: «elle lui **déchira** la chemise par derrière»فلماذا التغيير والنص واحد؟ ترى هل جاك بيرك الضالع في اللغة العربية - على حد قوله أيضاً - لا يعرف أن: قَدّ الثوب يعني: شقه

طولاً؟! وأن كلمة Trouer التي استخدمها معناها: يثقب أو يخرق؟! وأن الفرق لشديد الوضوح والاختلاف بين شق الثوب طولاً وبين خرقه؟؟

أما إصراره على ترجمة كلمة «الألباب» بكلمة «النخاع» فيفوق أي تعليق.. ولو سلمنا جدلاً بأن معنى كلمة Moelle(نخاع) المجازي في اللغة الفرنسية يعني «أهم ما في الشيء» فإن وقعها في الترجمة يثير السخرية لدى القارىء، ذلك لأن معناها الحرفي أو المباشر ـ أي النخاع ـ هو الأكثر شيوعاً. ومع مراعاة أن كلمة الألباب ترد ستة عشر مرة في القرآن، وإنه لم يترجمها ولو مرة واحدة بمعناها المقصود أو المنطقي والذي يعني «ذوي العقول والأفهام» لأدركنا مدى تجاوزاته.. وذلك على الرغم من وجود العديد من التعبيرات والمترادفات التي تشير إلى الألباب من غير لفظة نخاع التي اختارها!

وليت لبه أو نخاعه قد أدرك قدسية وعد الله بين المسلمين حتى لا يترجم آية: «أن الله لا يخلف الميعاد» (9/3) على النحو التالي: «Dieu ne manque pas au **rendez-vous**»!! ترى هل يمكن أن يصل الاستهزاء من عالم هو عضو مجمع اللغة العربية بمصر كي يترجم لفظة «الميعاد» والتي تعني وعد الله أو حتى وعيده بكلمة rendez-vous؟ (راند يڤو) بغض الطرف عن معناها الشعبي السائد.. ومن البديهي هنا أن المعنى المقصود بالميعاد هو الوعد وكان لزاماً عليه أن يكتب: «Dieu ne manque pas à sa **promesse**» ففي المرات الست التي وردت فيها هذه الكلمة في القرآن ـ ولا أتحدث عن تنويعاتها ـ ترجمها أربع مرات بتعبير Rendez-vous، ومرة بكلمة pacte أي اتفاق، ومرة واحدة بمعناها الصحيح، وذلك في سورة «الزمر»: «لا يخلف الله الميعاد» (20/39) إذ كتب: «Dieu ne saurait faillir à sa promesse»

كما أنه أحياناً يبدل من نهايات الآيات مثلما فعل في سورة «آل عمران» على سبيل المثال. فالآية الثالثة والتي تنتهي بقوله تعالى: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ قد أنهاها في منتصف الآية الرابعة عند قوله ﴿وأنزل الفرقان﴾ وهو ما لم نره عند غيره ممن ترجموا معاني القرآن.

وليست هذه النماذج العابرة إلا أمثلة تؤكد غياب النزاهة العلمية عند جاك بيرك، تلك النزاهة التي راح يتهم الآخرين بغيابها لديهم، مثلما قال عن حمزة بو بكر(9) وترجمته لمعاني القرآن..

وإذا ما طبقنا علوم البلاغة الجديدة من تحليل منطقي وسيميوطيقا وسيمانطيقا وما إلى آخره مما تلفع به، على نفس الأسلوب الذي صاغ به مقدمته لخرجنا من أول إلى آخر كلمة بما لا يشرفه من مغالطات واستخفاف ولا نذكر منها على سبيل المثال إلا ما يلي:

ففي أول جملة تناول فيها نقطة تجميع القرآن يقول: «A en croire les sources traditionnelles» ومعناها: «على حد زعم المصادر التقليدية، فإن» أي أن التشكيك المبيّت لديه يتجلى من أول كلمة كتبها وكان بمقدوره أن يكتب تعبير D'après les sources أو selon les sources وكلاهما يعني «وفقاً للمصادر» وذلك في حالة استخدام صيغة الحياد العلمي وليس التشكيك..

أما أسلوبه في وصف الله فنورد منه ما كتبه عن القرآن: «Le coran évoque avec une splendeur terrible les transes qui vous saisiront devant le Juge. Un frisson, déjà, fait frémir votre peau au seul prononcé de son nom»! (759)

أي ما معناه: «أن القرآن يشير بروعة مرعبة إلى الارتعادات والذعر الذي سيصيبكم أمام الحاكم (ويقصد الله). وها هي القشعريرة تسري في أبدانكم عند مجرد ذكر اسمه «صفحة 759)! ويا له من تخويف يتجاوز أي تعليق..

أما إشارته إلى «المستشرق الكبير نولديكه» Noldeke - على حد زعمه، والذي بدراسته للقرآن **«قد شرح الأسلوب والقواعد والمفردات مشيراً إلى ثقل الأسلوب هنا، وإلى التكرار هناك، وإلى عدم الصحة، وبعدها بقليل إلى إيجاز أو حذف، بل وإلى أخطاء»** (صفحة 738)، فيكفي جاك بيرك استشهاده بمن قام بأكبر تجريح لمعاني القرآن وأسلوبه، وتكبيره كمستشرق، ليكون متضامناً معه في الرأي حتى وإن تظاهر بالاختلاف معه.. فكلنا ندرك كيفية التهرب من تحمل مسؤولية الكلمة وإلصاق الرأي الجارح باستشهادات للآخرين.

غير أن تلاعب جاك بيرك بالألفاظ يصل إلى الذروة عندما يتحدث عن وجهة النظر التطورية (évolutioniste)، مستشهداً بآية: ﴿لكل أمة أجل﴾ (10/49) وكيف أن النظام يزايد (في تطوره) بأن يقول: ﴿لكل أجل كتاب﴾ (13/38). ثم يضيف قائلاً: **بما أن الله يمحو، ويبدل ويؤكد النبوءات وفقاً**

لهواه (à Son gré)، أقصد هذا النقل المتتالي والجزئي للأصل، الذي يظل دائماً أبداً في صدره» (39/13) والطريف أنه يضع رقم السورة والآية كتصديق لأسلوبه، ثم يواصل قائلاً: «هل يمكننا التمادي ودفع النسبية التاريخية لدرجة قلب كلمات التضمين القرآني ونقول: «لكل كتاب أجل»؟ ثم يضيف باللاتينية قائلاً: «**إنني لأرتجف وأنا أقولها!** ترى أي مفكر حر تجرأ على هذا اللعب الإجرامي بالألفاظ؟ لا تبحث: إنه الخليفة أبو بكر» (صفحة 787).

ثم يضع هامشاً مصداقياً لتوثيق كلامه يورد فيه: الطبري، المجلد 13، صفحة 111، السطر .14. ويا للدقة التي يتظاهر بها!

لنضع جانباً الاستخفاف الذي تناول به مضمون الآية: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ (39/13)، ليكتبها: «أن الله يمحو ويبدل ويؤكد النبؤات وفقاً لهواه» ثم يخفف من وقعها قائلاً: «أقصد هنا النقل المتتالي والجزئي للأصل الذي يظل دائماً أبداً في صدره».. لندع كل هذا جانباً ونرى تعبير «لكل كتاب أجل» بالصورة التي أوردها وهي:

«Pour tout Ecrit, un terme»

ووضعه لكلمة كتاب **Ecrit** بالحرف الكبير تعني أن القرآن هو المقصود وأن القرآن له أجل!! وإن كان ذلك هو ما يتمناه المستشرق «النزيه» جاك بيرك فلماذا يلصق أمنيته الشخصية بأبي بكر، مستشهداً بالطبري، وهو يعلم ـ من ناحية ـ أنه ما من قارىء سيقوم ليتأكد من المرجع الذي ذكره، على الأقل من باب الثقة في مكانته العلمية، ومن ناحية أخرى، أنه يعلم يقيناً أن سيدنا أبي بكر لم يقلها بهذا المعنى. ولن أقول للباحث «الأمين» جاك بيرك أن يكلف خاطره وينظر في التفاسير ليفهم معناها المشروح، وإنما، وهو أضعف الإيمان، أن ينظر في أبسط قواميس اللغة العربية ليرى أن كلمة «الكتاب» تأتي أيضاً بمعنى: الحُكم، والأجل، والقدر..

وذلك إذا ما كان فعلاً لا يعتمد على اللعب «الإجرامي» بالألفاظ.. ولا يعتمد على أن أحداً لن يقرأ ويكشف مغالطاته.. أم علّ ذلك هو ما يسميه جاك بيرك «الخوف والحشمة وتقديم ترجمة جيدة وأمينة» على حد زعمه بمجلة الجهاد؟ (يناير 1990).

وفي النهاية، لا يسعني إلا أن أقول لمن «يستنكر ويرفض بشكل قاطع

كلمة مستشرق» (الجهاد: مايو 1991)، لارتباطها بالمغالطات والتضليل. أقول لمن يقول عن نفسه: «أنا مؤرخ اجتماعي وباحث متخصص في شؤون العالم الإسلامي» (المرجع السابق).. أقول له: لقد هويت يا من كنت عملاقاً، ويا لها من هاوية.

وإنه يتعين عليك أن تبدأ المشوار من جديد بأن تعيد النظر في الثقة التي منحها لك مجمع اللغة العربية بمصر واستغللتها كتصريح لنشر كتابك بكل ما يتضمنه من فريات: فكل ما ورد في هذه الصفحات لم يكن إلا كنماذج على سبيل المثال، وما خفي كان أعظم... نعم، أقول له: أن يبدأ المشوار من جديد بتعلم أبجدية البحث العلمي، وأبجدية الأمانة العلمية، وأبجدية الترجمة، وقبل ذلك كله أن يتعلم أبجدية احترام معتقدات الآخرين ومقدساتهم..

وفيما يتصل بترجمة معاني القرآن للفرنسية، فليست هذه الترجمة هي نهاية المطاف، فقد ظهرت بعدها ترجمتان أخريتان.. لذلك أناشد المسئولين في الأزهر وفي المؤسسات الإسلامية المختصة الحد من هذا التقصير الذي طال مداه، وتكوين فريق عمل للقيام بترجمة معاني القرآن باللغة الفرنسية، منعاً لكل هذه العناصر التخريبية. وأقول فريق عمل لأن الجهد الذهني والمستوى العلمي والمعلومات المطلوبة تتعدى إمكانيات الفرد الواحد..

الفصل الثاني

حول الدين والدنيا

كثر الحديث في الآونة الأخيرة ليتخذ نوعاً من الإصرار المتزايد في الغرب، ولدى البعض هنا، في الساحة المحلية، عن ضرورة فصل الدين عن السياسة!!، وقد بدأت هذه النغمة تتردد بدأب في الغرب بعد نجاح أولى المحاولات التي قادها لفصل الدين عن السياسة في تركيا عقب الحرب العالمية الأولى..

وإذا قلنا إجمالاً أن ديانة الغرب هي المسيحية وأن دين الدولة هنا وفي العالم العربي هو الإسلام، فلا نملك إلا أن نتساءل: لماذا يستبيح الغرب لنفسه ما لا حق له فيه، ويحرم الآخرين من حقهم؟ وإن كان السؤال على هذا النحو غير صحيح تماماً، لأن الديانة المسيحية في صميمها لا علاقة لها بالسياسة، بينما الإسلام أساساً هو دين دنيا وآخرة، أي أن الإيمان وشؤون الدنيا بكل أبعادها لا ينفصلان فيه ويمثلان كياناً واحداً.. بمعنى آخر فإن الكنيسة عندما تتناول أو تتدخل في الشؤون السياسية فهي آنئذٍ تتعدى حدود شرعيتها، وتتجاوز تعاليم السيد المسيح، بينما يقوم فقه الدين الإسلامي وتشريعه على عدم الفصم بين ما يتصل بكافة أمور الدنيا والدين، فهو ينظم شؤون الدنيا والآخرة. ورجل الدين الإسلامي والمسلم بعامة (إذ أنه لا يوجد في الإسلام كهنوت) عندما يتدخل في الشؤون السياسية فهو ينفذ تعاليم دينه ويلتزم بها، ذلك أن القرآن ـ وهو المصدر الأول للتشريع في الإسلام، وكذلك السُنّة النبوية قد ألزما بهذا الوفاق الذي لا يعرف فصلاً بين الدين والدنيا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون ـ كما أتت في آيات ثلاث من سورة المائدة 44، 45، .47 في حين أن الكتاب المقدس بعهديه ـ وبكل ما أجرى فيه،

قد نأى عن هذا التداخل بين شؤون الحكم وشأن السماء، وقد قال السيد المسيح للفريسيين: «لماذا تجربونني يا مراؤون.. أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متّى 22: 21). كما أن «الرسالة الخاصة التي عهد بها المسيح إلى كنيسته ليست سياسية ولا اقتصادية أو اجتماعية لأن الهدف الذي رسمه لها هدف ديني» [وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، صفحة 75، الطبعة الثانية، عام 1979]. ويقول البابا بيوس الثاني في خطابه إلى علماء التاريخ والفن، في التاسع من شهر مارس عام 1956: «إن مؤسسها الإلهي يسوع المسيح لم يخولها [أي للكنيسة] أي تفويض ولم يحدد لها أي هدف من الناحية الثقافية. إن الغاية التي رسمها المسيح لها هي دينية فقط» (أعمال الكرسي الرسولي 48 (1956) صفحة 212).

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة فيما يتصل بالمسيحية والتي لا جدال فيها فيما يتصل بفصل الدين عن الدولة (الكنيسة عن السياسة)، فإن موقف الكنيسة الكاثوليكية / البابوية لم يكف ـ منذ نشأتها ـ عن الصراع من أجل السيطرة على السلطة والتحكم في السياسة لفرض نفوذها على العالم، حتى وإن خالف ذلك صريح النص الذي لم ينج من التحريف والتزييف. مما نجم عنه انقسامات جعلت من المسيحية أكثر الديانات انقساماً وتبايناً من الناحية العقائدية بدءاً بميلاد السيد المسيح وهويته وصلبه مروراً باختلاق الثالوث والقربان والمناولة والاعتراف، وصولاً لتأليه السيدة العذراء وجعلها أم الله!!.. ولم تتم هذه الاختلافات بلا عواقب جسيمة أو مجازر..

فما إن تم الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية في الأمبراطورية الرومانية عام 313، وبدأ الأمبراطور قسطنطين يحميها ويمنح رجالها بعض المكاسب، حتى بدأت الكنيسة هناك تسعى للاستقلال عن السلطة والاستحواذ عليها. ولا حصر ولا عدد للمراجع التي تتناول نشأة الكنيسة الكاثوليكية بتعصبها الجامح وتاريخها الدامي، سواء أكان في الغرب نفسه أم في الشرق.. وما أكثر المراجع التي تتناول عشرات المذاهب التي انقسمت إليها المسيحية منذ أولى محاولاتها المكشوفة في التحريف، من قبيل تأليه السيد المسيح، ثم تأليه الروح القدس! وما أكثر المراجع التي تقشعر لقراءتها الأبدان وهي تقص كل ما دار من صراعات ومقاومة وبخاصة مع الكنيسة الشرقية، مما أدى إلى استبعاد كنيسة

الاسكندرية تماماً.. وما كل تلك الآلاف من الرهبان والمواطنين المسيحيين الذين ذبحوا في الاسكندرية لمجرد رفضهم لتعصب البابا وتزييفه غير واحدة من نتائج لا حصر لها نراها في مؤلفات مسيحيي الغرب نفسه بقدر ما نقرأها في المراجع التاريخية بعامة.

وقد استطاعت الكنيسة الغربية أن تثبت أركان استقرارها فيما بين القرن الرابع والخامس، بعد صراعاتها المذهبية الدامية، بينما كانت الأمبراطورية الرومانية ـ في نفس ذلك الوقت ـ تعيش لحظات أفولها.. وما إن أصبح الغرب بلا أمبراطور حتى بدت الفرصة مواتية للبابا ليمد نفوذه بالتدريج إلى الساحة السياسية..

وتتزامن الصراعات الدينية والسياسية بين مختلف مقاطعات أوروبا، بينما يد التعصب تحكم قبضتها على العصور الوسطى لتجعل منها عصر الظلمات الدامي والباطش لكل من يعترض أو ينشق على السلطة البابوية. ولا نذكر الشذرات التالية إلا على سبيل المثال لا الحصر للتدليل على تدخل الكنيسة في شؤون الدنيا:

لقد انتشرت الحروب الدينية في فرنسا عندما قام الكاثوليك بمحاربة البروتستانت فيما بين عامي 1562 و1598. وكانت هذه المجازر نتيجة للتقدم الذي تحرزه العلوم من جهة والقهر المتواصل لعملية الإصلاح الديني من جهة أخرى. ولم تنته هذه الحروب الدينية إلا بتراجع هنري الرابع واعتناقه الكاثوليكية وتوقيع معاهدتي السلام عام 1598. وكانت الأولى في مدينة ڤرڤان ليضع حداً للحروب الدينية الخارجية مع إسبانيا، بينما كانت الثانية في مدينة نانت ليضع حداً للحروب الداخلية مع الكنيسة الكاثوليكية ولتقنين الوجود الشرعي للكنيسة البروتستانتية.

ومن ناحية أخرى، ففيما بين أواخر أغسطس ومنتصف سبتمبر عام 1572، وهو تاريخ معركة واحدة من معارك الحروب الدينية، قام التعصب الكاثوليكي بذبح خمسين ألف بروتستانتي فرنسي، وقد احتفل البابا جريجوار الثالث بهذه المناسبة وأمر بإشعال الأنوار ابتهاجاً بالمذبحة وضحاياها، كما قام بصك ميدالية تذكارية احتفالاً وتخليداً لهذه المناسبة / المجزرة!! وفي شهر اكتوبر عام 1685 تم اجتياح الكنائس البروتستانتية وطرد ثلاثمائة ألف من صفوة شخصيات فرنسا

وإن هرب البعض منهم إلى سويسرا بينما لاقى البعض الآخر مصيره المحتوم..

أما في تلك الفترة التاريخية المعروفة باسم «عصر الرعب» والتي امتدت من الخامس من شهر سبتمبر عام 1793 إلى 27 يوليو 1794، فقد تم خلالها فصل أكثر من ألف وخمسمائة رأس بالمقصلة! أما محاكم التفتيش في إسبانيا فقد امتدت من القرن العاشر حتى عام 1808، حينما قام نابليون بونابرت بإلغائها.. ولقد أبادت عشرات الآلاف بتمزيق أوصالهم أو بحرقهم أحياء، أو بإعدامهم، تحت زعم أنهم ملحدون أو منشقون أو سحرة!!.. وفي عام 1813 عندما أعلن المحامي كورتيس Cortès أن محاكم التفتيش كانت غير دستورية، اعترض الفاتيكان بشدة على ذلك ـ على الرغم من قول السيد المسيح في إحدى وصاياه: «لن تقتل أبداً».

ومن المعروف كيف أن الحروب الصليبية كانت حروباً استعمارية ـ اقتصادية لذلك قال عنها نيتشه «إنها كانت عملية قرصنة» ولقد تم إعلان أولها تحت زعم تحرير القدس وباسم السيد المسيح لتلبس مسوح الدين وذلك منذ تلك اللحظة التي وقف فيها البابا أورban الثاني Urbain II ليلقي كلمته للأساقفة والآباء في السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام 1095 في مجمع كليرمون Clermont، وجاء نصها كما يلي:

«من المهم أن تهبوا، وبلا تأخير، لنجدة اخوانكم الذين يقطنون بلاد الشرق والذين طالبوا مراراً بمعاونتكم. وبالفعل، كما تعرفون، فإن هناك شعباً من الأتراك قادم من بلاد الفرس قد غزا بلادهم. ولقد تقدموا حتى البحر الأبيض المتوسط وبالتحديد إلى ما يطلق عليه ذراع القديس جورج. وهم يتقدمون في البلاد الرومانية على حساب أراضي المسيحيين، الذين انهزموا سبع مرات في الحرب، ولقي كثير منهم حتفه؛ وكثير قد تحولوا إلى عبيد. إن هؤلاء الأتراك يهدمون الكنائس ويخربون مملكة الله.

«وإذا ما ظللتم دون عمل أي شيء فإن عدد الضحايا من المؤمنين سيزداد بسبب هذا الغزو. لذلك فإنني أحثكم وأتوسل إليكم ـ لا لست أنا الذي أحثكم ـ إنه الرب بنفسه ـ هو الذي يحثكم أنتم يا رافعي لواء المسيح، وأياً كانت الطبقة الاجتماعية التي تنتمون إليها، فرساناً كنتم أم حفاة، أغنياء أم فقراء، أن

تذهبوا لنجدة المسيحيين وأن تصدوا هذا الشعب الشؤم بعيداً عن أراضينا. أقولها للحاضرين هنا، وأطلبها من الغائبين: أن المسيح يأمر بذلك.

«إن كل الذين سيذهبون ويموتون على الطريق، سواء على الأرض أم في البحر، أو أولئك الذين سيموتون وهم يحاربون الكفار، فإن ذنوبهم ستغفر لهم. وسأمنح الغفران لكل الذين سيساهمون في هذه الرحلة بموجب السلطة التي منحني الرب إياها.

«ويا للعار إذا ما انتصر مثل هذا الشعب الحقير، المنحط، عابد الشياطين، على الأمة التي تعبد الرب وتفخر بأنها مسيحية! أي لوم سيوجهه لكم الرب بنفسه إذا لم تجدوا الرجال الكافية الجديرة مثلكم بلقب المسيحيين!

«ليذهب إذن هؤلاء الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً على حساب المؤمنين، ليذهبوا إلى المعركة ضد الكفّار - إنها معركة جديرة بأن تبدأ ورهينة بأن تنتهي بالنصر! وليصبحوا من الآن فرسان المسيح، بعد أن كانوا قطاع طرق! ليحاربوا الآن ضد البرابرة بدلاً من أن يحاربوا ذويهم وإخوانهم! ولسوف ينالون المكاسب الخالدة، بعد أن كانوا مرتزقة من أجل بضعة فلسات. ولسوف يعملون من أجل شرف مزدوج بدلاً من الشقاء على حساب جسدهم وروحهم. لقد كانوا هنا حزانى ومساكين وسيصبحون هناك سعداء أثرياء. لقد كانوا هنا أعداء الرب وهناك سيصبحون أصدقاءه» (جورج تيت **L'Orient des Croisades:** G. Tate صفحات 130 - 131).

أما في **قاموس الشرق المسيحي** الصادر عام 1991 (Dictionnaire de l'Orient Chrétien) فنقرأ عن هذه الحروب الصليبية: «أن البابا أوربان الثاني قد أعلنها **لتحرير الشرق المسيحي من الإسلام**... أي أنها كانت رغبته في تحرير المسيحية من عدوها الخارجي، الإسلام، ومن عدوها الداخلي، الهرطقة، **وإقامة كنيسة موحدة تخضع للقوى الغربية وتحت سيطرة روما**» (صفحة 117 - 118).

ولا تعليق!!.. فالمخطط واحد ومعلن بصريح العبارة..

كانت هذه الكلمة التي تعبر عن نفسها شرارة البدء لهذه الحروب الاستعمارية - الاقتصادية التي تلفعت بالدين المسيحي وأهدرت قيمه لتنتهي بحملاتها الثمانية عام 1291، وليفهم الغرب أنه لا جدوى من محاولة فرض

عقيدته على الإسلام.. وإذ به ينتقل - أو يسترد أنفاسه - ليفرضها بالسلاح على بقاع عديدة ليس بآخرها فرضها على هنود القارة الأمريكية، حيث كانت مهمة السلاح المشهر وضع حد للوثنية بجانب تأكيد ملكية مستعمرات العالم الجديد وتبعيته للتعصب البابوي الذي لا يجد حرجاً حتى في ذبح أخوة الدّين الذين اختلفوا حول التحريفات المتعددة..

ولم نستشهد بهذه الشذرات القليلة، من محيطٍ دام جد بشع، إلاّ لنشير، ببعض مما تتضمنه صفحات التاريخ المتداولة، إلى ذلك التيار المتعصب الذي يزداد شراسة وكفراً بتعاليم السيد المسيح التي تنادي بالحب والاخاء والتسامح.. ولا يسعنا، لاستكمال هذا العرض الخاطف، إلاّ أن نلقي بعض الضوء على المجامع الكنيسية أو المسكونية الرسمية والتي توضح كيف أن هذا التعصب لا يكف عن الخروج على العقيدة باقتحامه الساحة السياسية والتحكم فيها. وبما أنه ليس من شأننا أن نغوص في وثائقها الرسمية والرجوع إلى أصولها، فإننا نتناولها من المراجع والموسوعات العامة المتاحة للجميع، أو لنقل من تلك المراجع الرسمية التي أقرت التيارات الحاكمة تداولها!!!..

لقد تنوعت أشكال وأعداد وبنية المجامع على مدى تاريخ الكنيسة. ولا غرابة في ذلك فهي لم تتلق من مؤسسها سوى الإلتزامات (وعددها سبعة: التعميد، سر الميرون، القربان، التوبة، المسحة الأخيرة، الرهبنة والزواج - وإن كان البروتستانت لا يعتدون إلاّ باثنتين: التعميد والقربان)، وجماعة الحواريين الإثني عشر، وتوصية المحبة الأخوية. وتختلف الظروف التي تجتمع فيها المجامع وفقاً لاختلاف الأحداث الاجتماعية والسياسية، لتتخذ القرارات الملزمة للجماعة المسيحية، بصفتها أعلى سلطة تقود هذه الجماعة.

وتكمن أهمية المجمع في الحصول على موافقة جميع الحاضرين بالإجماع وليس بأغلبية الأصوات. مما يوضح أهمية الدور الذي تقوم به الكنيسة كمؤسسة. ولا يمكن للمجمع المسكوني أن ينعقد من غير البابا - ذلك أن بابا روما يمثل السلطة العليا أو التفويض فوق العادة للبت في أمور العقيدة والإيمان.. و.. و...

وفي الواقع لا تقتصر أهمية المجامع ودورها على تلك السيادة العقائدية فحسب، وإنما هي تتابع أحداث العالم وتوجه خطوطها الكبرى أو العامة، مع

«مواصلة توصيل تعاليم الإنجيل إلى أناس جدد»، كما يتعين على المجامع «أن تقدم ميراث الإيمان في تعبيرات جديدة وفقاً لظروف العصر».. (**انسيكلوبيديا أونيڤرساليس**).

ويبدو مجمع القدس المنعقد عام 49 وكأنه استمرار لإجتماع القدماء حول موسى أيام الخروج، أو كإجتماع القدماء حول الحواريين، على نمط من إجتماع موسى عليه السلام (أفعال الرسل 15). ونظراً لأهمية هذا المجمع وأهمية القرارت التي اتخذها، فقد أصبح نموذجاً لكافة المجامع التي تُضَمُ قراراتها إلى الكتابات المقدسة.. مما يوضح كيف يمكن للأيادي الخفية أن تتلاعب بالنصوص وبالعقيدة» ويبدو من نصوص «أفعال الحواريين» أن الكنيسة كانت قائمة في مجامعها على أساس تدرج هرمي وعلى أساس قاعدة جماعية ـ وهو ما كان متبعاً في معابد اليهود.

ويوضح مؤرخو المجامع القدامى مثل لونان دي تيلمون Le Nain de Tillemont، ودوشين Duchesne، وباتيفول Batiffol، إن الكنيسة قد نقلت القواعد المدنية للمدينة اليونانية في مجامعها المحلية، كما نقلت قواعد مجلس الشيوخ الروماني في مجامعها الاقليمية والعامة. ويشير المؤرخ هيفليه ـ لوكليرك Hefele - Leclerq في مقدمة **تاريخ المجامع** إلى ثمانية أشكال مجمعية على مر التاريخ، إلاّ أن الفترة الحديثة قد أدت فيها الوقائع والصراعات إلى ضرورة استحداث أشكال مجمعية جديدة لإحتواء مجرياتها..

ويمكن تلخيص المجامع على مر العصور على النحو التالي:

• المجامع المحلية أو الاقليمية: اجتمعت هذه المجامع في منتصف القرن الثاني لمواجهة تشعبات علم اللاهوت الذي كان يحول الإيمان إلى نوع من التأمل وفقاً للنمط اليوناني، ولمواجهة المذاهب الانشقاقية ومنها إتباع مونتانوس. وإبتداء من القرن الثالث يظهر تحول جوهري في المجامع، إذ لم تعد القرارات فيها جماعية وفقاً للتعاليم الأولى، وإنما أصبحت قاصرة على الأساقفة. ولم يعد من حق العوام، ممثلي الطبقة العريضة لقاعدة الهرم، إلاّ الاشتراك في انتخاب ممثل كنيستهم، الأمر الذي يوضح كيف بدأ التلاعب ليستقر أمره.

• المجامع المسكونية: وهي مكونة من أساقفة العالم، وإن كانت قديماً

مكونة من أساقفة الأمبرطورية الرومانية، وكان الأمبرطور هو الذي يدعو للاجتماع، ورغم أنه لم يكن يشارك في مداولة القرارات شخصياً، إلاّ أنه كان يوقع عليها كقوانين للامبراطورية. ذلك أنه - وخاصة بعد مصالحة القسطنطينية - كان يعتبر نفسه على قمة العالم المسيحي، ويقوم بتمثيله أحد الأساقفة كمندوب عنه. وسرعان ما أدى تدخل الأمبرطور في الشؤون الدينية إلى صراع حاد مع اسقف روما الذي بدأ يستخدم لقبه كخليفة للقديس بولس لتأكيد رئاسته للمجمع.

• المجامع القومية في القرون الوسطى: أدى سقوط الأمبراطورية الرومانية وانتقال العاصمة إلى القسطنطينة في بيزنطية وفرض المسيحية على الشعوب الأخرى إلى إزدهار المجامع وتزايدها لمواجهة التوسعات وملاحقتها من جهة، ومواجهة الانقسامات الفرعية أو العقائدية من جهة أخرى.

• المجامع البابوية العامة في القرون الوسطى: إعتاد الأساقفة في روما على الاجتماع للتشاور وأتخاذ القرارات الرئيسية في الشؤون الدينية **والسياسية** الهامة في إيطاليا، وسرعان ما تخطت سلطتهم مدينة روما والمناطق المحيطة بها، وبدأ البابوات يدعون الأساقفة من كل مكان ويدعون معهم أمراء المقاطعات المجاورة حتى أصبحت هذه المجامع تمثل أركان السلطة المسيحية الباحثة عن فرض سيطرتها «الروحية» على الغرب بأسره.. وبذلك لم يعد البابا في القرون الوسطى مجرد أسقف روما المسؤول عن بقية أبرشيات الكنيسة فحسب، وإنما أصبح بالفعل الزعيم الرئيسي للمسيحية والمهيمن الوحيد عليها، أي على المجتمع المسيحي الديني والمدني أينما كان.. وبذلك أصبحت المجامع العامة المسكونية أو تلك التي يدعو إليها البابا عبارة عن اجتماع كنسي تناقش فيه وتحدد من خلاله **معالم السياسة المدنية. وذلك مثال مجمع لتران** Latran المنعقد عام 1215 والذي يعد من أهم المجامع إذ ضم أربعمائة واثنا عشر أسقفا وأكثر من ثمانمائة من رجال اللاهوت بدرجاتهم المختلفة، وبخلاف المسائل العقائدية التي تمت مناقشتها فإن هذا المجمع قد أتخذ قرارين لا سابقة لهما في تاريخ الكنيسة وهما: ضرورة استمرار الحروب الصليبية، ومواجهة حركة الإصلاح الكنسي!.

• مجامع الإصلاح في أواخر القرون الوسطى: تأتي هذه المجامع

كامتداد للمجامع السابقة إذ كانت تتكون من ممثلين لرجال اللاهوت ومن وفود اجتماعية. وبالتدريج انتقلت سلطة البابا من ممثل ديني إلى شخص تتمثل فيه الأمة بشقيها **الديني والسياسي**، كما بدأ يتبلور فيه ذلك المفهوم العصري للمفوض العام عن الأمة. كما ترجع فكرة الإيديولوجية التوحيدية بين الكنائس إلى نفس هذه الفترة في القرن الخامس عشر - خاصة منذ استحال على المجامع السابقة تحقيق أهدافها الرئيسية وهي: الحروب الصليبية وإصلاح الكنيسة.

وتمثل فترة الإنشقاق الكبرى فيما بين 1378 و1429 والتي لم يتمكن مجمع بيزا المنعقد عام 1409 من حلها، أعنف الأزمات التي تعرضت لها فكرة التوحيد بين الكنائس، تلك الفكرة التي بدأت تتردد بشكل أوضح في القرن العشرين.

• المجامع الحديثة الكبرى: تمثل أكبر المجامع التي عقدتها الكنيسة الكاثوليكية بعد عصر الإصلاح نقطة انفصال واضحة مع النظم المتبعة في المجامع المسيحية السابقة، فقد اهتمت الكنيسة بتحديد رسالتها الخاصة وتنشيط حركة الاصلاح الداخلية، ومنذ مجمع الفاتيكان الثاني وهي تضاعف الجهود للتوصل لعالمية ظلت تسعى إليها.. ومن ثم فقد اتجهت إلى الانفتاح المسكوني لا على الجماعات المسيحية الأخرى فحسب، بل وعلى اليهود (وتلك قصة أخرى قد انتهت بتبرئتهم من إهدار دم السيد المسيح!!) كما اهتمت بالإلتفات إلى مشاكل العالم والتدخل فيها بشكل أكثر فعالية (مثال الدور الذي لعبته في بولندا ومساندة حركة التضامن «سوليدارنوشتش»). لذلك فهي تضفي على نشاطها المجمعي المعاصر كياناً يتصف باللامركزية، يمتد نشاطه إلى كافة أنحاء العالم. فمن خلال تطوير المؤتمرات الأسقفية ها هي تقيم صلة وثيقة بين المجمع وكيان الكنيسة الكاثوليكية في مختلف أنحاء العالم مما يسمح لها باختراقها من الداخل تدريجياً..

* * *

إذا كانت النظرة التاريخية الخاطفة توضح إجمالاً تلك الخطوط الرئيسية لمختلف أنواع المجامع وأهميتها، فلا بد من وقفة أخرى نوضح فيها أهم ما انعقد من المجامع المسكونية وغيرها، وخاصة أولى هذه المجامع التي

تحددت من خلالها المعالم الأساسية للديانة المسيحية وتشكيل العقيدة بما يتفق والمصالح السياسية والاجتماعية للنفوذ الكنسي المتعصب.

ومن الملفت للنظر أنه لا يوجد حتى اليوم - في حدود المعلومات العامة المتاحة - أية قائمة كاملة رسمية بالمجامع المسماة مسكونية للكنيسة الكاثوليكية، ولا بد للباحث من أن يقوم بتحديدها وتجميعها من المراجع المختلفة التي تتناول تاريخ المجامع بصفة خاصة، ونظن أن عدم التحديد هذا قد يؤدي إلى نوع من حرية التصرف فيما يتعلق بأعمال المجامع، وهو ما يمكن أن يكون له مغزاه المسكوني.. وأقل ما يمكن أن يشار إليه - في ظننا - إنما هو حرية تيار التعصب الذي يمكن من التحكم في إضفاء الأهمية على هذا المجمع أو ذاك، وفي الآن نفسه إغفال أهمية مجمع بعينه أو غيره من هذه المجامع.. فعلى سبيل المثال، لم يعتبر المجمع المنعقد في مدينة القسطنطينية عام 381 مسكونياً إلاّ حديثاً، رغم أنه واحد من أهم المجامع الشرقية في تاريخ الكنيسة. وفي المقابل فإن مجمع أفسوس المنعقد عام 449 قد رفعت عنه صفة المسكونية. كما أضيفت مجامع أخرى واكتسبت صفة المسكونية مثل مجمع القسطنطينية المنعقد عام 869 دون أن يكون هناك أي تبرير واضح لمثل هذه الإضافة.. ولا نشير إلى هذه الملاحظة إلاّ لنبين كيف أن التأكيد على أهمية المجامع مرتبط بأمور غير لاهوتية..

ويضفي التراث الكنسي أهمية خاصة على المجامع المنعقدة في القرون الأولى. وباستثناء مجمع القدس المنعقد عام 49 والذي له مكانة معيارية مميزة، فإن معظم المراجع تتفق على الأهمية الخاصة لمجمع نيقية المنعقد عام 325، ذلك المجمع الذي تحددت فيه الصفة الإلهية للسيد المسيح - ويأتي ذلك عقب الإعتراف بالديانة المسيحية رسمياً عام 313..

والأهمية الخاصة التي تُضفى على المجامع الأربعة الأولى - مجمع نيقية والقسطنطينية، وأفيزاء وخلقيدونيا - ترجع إلى أنها المجامع التي تحددت فيها الأسس الرئيسية للديانة المسيحية وفقاً للصورة التي صنعتها الأيادي العابثة لشخصية وتاريخ السيد المسيح وتعاليمه.. وقد أقرت اللوثرية بعض هذه النقاط وأقرت الكنيسة الإنجليكانية أغلبها. ويمكن القول إجمالاً أن الكاثوليكية والأرثوذكسية تتقبلان المجامع السبعة الأولى، حتى مجمع نيقية الثاني، على

أنها مجامع مسكونية لا جدال في قراراتها. ثم أصبح لكل مذهب قائمة مجامعه الخاصة التي تتفق وعقيدته - وإن كانت تفاصيلها اللاهوتية تخرج عن نطاق هذا البحث.

وهنا نشير باقتضاب إلى المجامع السبعة الأولى والتي تعتبرها كل الكنائس الكاثوليكية والكنائس الأرثوذكسية مجامع مسكونية، لنرى كيف قامت الأيادي الخفية المتطرفة بنسج ملامح العقيدة وفقاً لمتطلباتها **السياسية والاجتماعية**..

1 ـــ مجمع نيقية الأول (عام 325): دعى إليه الأمبراطور قسطنطين بعد أن أصبح سيد الأمبراطورية، لحل المشاكل والنقاط التي تختلف حولها الكنائس الشرقية آنذاك، وهي مشاكل عقائدية وتنظيمية وبخاصة ما كان يطلق عليه «هرطقة أريوس» Arius الذي كان يرفض فكرة الثالوث وفكرة وحدة الجوهر، أي فكرة مساواة السيد المسيح بالله وجعلهما من طبيعة واحدة. إلاّ أن المجمع قد أدان الأب أريوس وأعلن أن السيد المسيح من نفس طبيعة الله على الرغم مما هو وارد في الأناجيل صراحة ومنها: «يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول امام الله وجميع الشعب» (لوقا 24: 19) واعتباره إلهاً. الأمر الذي اعترض عليه أغلبية أساقفة الشرق لما في هذه الفكرة من تناقض، فالله أزلي لا بداية ولا نهاية له، أما السيد المسيح فهو إنسان مخلوق محدد البداية والنهاية. كما أن فكرة التأليه هذه ليست واردة في الأناجيل.. ولقد قام المجمع بتغيير عيد الفصح وجعله يوم الأحد بدلاً من يوم السبت لتمييزه وإبعاده عن اليوم الذي يمثل احتفال اليهودية!.

وبخلاف أهمية القرارات التي أصدرها هذا المجمع، فقد ابتدع نهجاً لا سابقة له حتى ذلك الوقت ألا وهو المجمع المسكوني الملزم للجميع، كما خوّل الكنيسة حق تحديد العقيدة بتعاريف عقائدية وفقاً لأغراضها..

2 ـــ مجمع القسطنطينية الأول (عام 381): وكان الأمبراطور تيودور الاسباني الأصل والمتعصب لفكرة «نفس الكيان» قد صدق عام 380 على فرض هذه الفكرة كتعريف أساس للعقيدة. وخلال هذا المجمع قرر رجال اللاهوت تأليه الروح القدس وجعله مساوياً لله وللسيد المسيح، إلى جانب إدانة ما أطلقوا عليه الهرطقة المقدونية وقاموا بإخضاع مقدونيا للأمبراطورية الرومانية

الشرقية، وأقروا استقلال الأساقفة عن السلطة وإضفاء الأولوية لأساقفة روما والقسطنطينية.

3 ـــ **مجمع أفسوس (عام 431)**: انعقد لإدانة الأب نستوريوس Nestorius قس إنطاكيا الذي كان يشغل منصب بطريرك القسطنطينية منذ عام 428. ذلك لأنه كان يفترض أن هناك طبيعتين متلازمتين للسيد المسيح، احداهما إنسانية والأخرى إلهية. كما كان يرفض تأليه السيدة العذراء وإضفاء لقب «أم الله» عليها.. وقام المجمع بإقالته وإقرار الأمومة الإلهية للسيدة العذراء. (وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكاثوليك كانوا يحتفلون بعيد وفاة السيدة العذراء في الخامس عشر من شهر أغسطس إذ يرون أن الملائكة قد رفعتها للسماء أثناء نومها في هذا اليوم بمعونة السيد المسيح.

(وفي الأول من شهر نوفمبر عام 1950 تحول هذا الاحتفال التراثي إلى عقيدة بناء على إعلان من البابا بيوس الثاني عشر والذي «لم يقدم أي تحديد أو تبرير لهذه المعجزة غير الواردة في الكتاب المقدس». لقد بدأ رجال اللاهوت الكاثوليك تحويل الاحتفال الشعبي ـ الذي استمر كتقليد احتفائي لعادة شعبية عمرها قرابة ألفي عام ـ إلى عقيدة ملزمة أصبحت بذاتها العقيدة الثانية المتعلقة بالسيدة العذراء، إذ أن العقيدة الأولى والتي قنّنها البابا بيوس التاسع عام 1854 كانت تتعلق بحملها الإلهي للسيد المسيح، إذ أن هناك عيد أساس يتصل بمولده عليه السلام!!.

(ومن المفارقات أنهم في بيزنطة لم يحتفلوا بعيد وفاتها إلاّ منذ القرن الرابع، وكان العيد يسمى «نوم العذراء»، كما أن الغرب لم يحتفل به إلاّ في القرن السابع. وعندئذٍ تم استبدال تعبير «نوم العذراء» بكلمة «صعود العذراء»!! وان كان هذا الطقس يرجع إلى أولى الطوائف المسيحية في الشرق وهو يقترن بالآلهة ـ الأم أرتميس والتي كانت الآلهة إيزيس في الديانة المصرية القديمة قبل أن تنتقل إلى الحضارة اليونانية القديمة ومنها إلى الرومانية قبل المسيحية..

وبعد أن أعلن البابا بيوس الثاني عشر العقيدة الجديدة للسيدة العذراء عام 1950، أصدر مرسوماً جديداً عام 1954 يرفعها بموجبه إلى رتبة «مشارك للسيد المسيح في تخليص آلام البشر» وتوجّها «ملكة للسماء» ثم جعلها «أما للكنيسة» عام 1964..

وفيما بين عامي 1954 - 1955 أقر نفس البابا إقامة عام كامل احتفالي للسيدة العذراء، وفيما بين عامي 1987 - 1988 أقر البابا يوحنا - بولس الثاني الاحتفال لمدة عام آخر للسيدة العذراء بمناسبة عيد ميلادها الالفيني..) (فلورنس مونتريينو .Fl. Mantreynaud **Le xx^e^ Siècle des Femmes** , éd. Nathan, Paris, 1992.

وهكذا تتوالى القرارات عبر السنين.

4 ـــ مجمع خلقدونيا (عام 451): انعقد لإدانة ديوسكور السكندري والقائلين بالطبيعة الإلهية الواحدة للسيد المسيح، وقام البابا ليون الأول الأكبر بإقرار طبيعة للسيد المسيح تتضمن طبيعتين في شخص واحد، وأدان الكنائس الشرقية (القبطية والأرمنية والسورية) وقام باستبعاد كنيسة الإسكندرية تماماً لإعتراضها - إلى جانب الخلافات العقائدية - على السيادة المضفاة على بيزنطة والضغوط الناجمة عن احتلالها الشرق والسيطرة عليه، مع كل ما صاحب ذلك من قهر وتعذيب واغتيالات جماعية للاقباط على أيادي أساقفة بيزنطة..

5 ـــ مجمع القسطنطينية الثاني (عام 553): انعقد لإدانة ما أطلقوا عليه «الفصول الثلاثة» من كتابات النستوريين، كنوع من المهادنة للمنادين بالطبيعة الواحدة الذين سبق وتمت إدانتهم بإجحاف في مجمع خلقيدونيا وذلك درءاً لثورات دفينة قد يصعب السيطرة عليها:

6 ـــ مجمع القسطنطينية (عام 680): انقعد لإدانة المنادين بطبيعة إلهية واحدة للسيد المسيح، وأنه لا توجد لديه سوى إرادة واحدة هي الإرادة الإلهية.

7 ـــ مجمع نيقية الثاني (787): انعقد للبت وحسم تلك المعركة الدينية المعروفة تاريخياً باسم «معركة الايقونات»، أي معركة المطالبين بتحريم الصور والرسومات إلتزاماً بالوصية الثانية من وصايا سفر الخروج القائلة: «لن تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض» (اصحاح 20: 4). إلاّ أن المجمع قد أباح شرعية الصور والايقونات واعتبروها بمثابة «إنجيل للأميين». ومن المعروف تاريخياً أن معظم وثائق هذا المجمع قد تم حرقها آنذاك وما بقي منها إنما هي أصداء نجد مظاناً لها في كتابات الآخرين، التي يستشف منها أن السبب

الحقيقي هو ظهور الإسلام وانتشاره ومطالبة المجمع بمحاربته بشتى الوسائل.

8 ـ مجمع القسطنطينية الرابع (عام 869): انعقد لإدانة فوسيوس، رجل اللاهوت والعلامة البيزنطي الذي كان يشغل منصب بطريرك القسطنطينية من عام 858 إلى عام 867 والذي كان على خلاف شديد مع كنيسة روما بسبب إرسال البعثات التبشيرية إلى بلغاريا وتخطي نفوذه، وبسبب دفاعه عن الأرثوذكسية، إذ كان يعتبر استبعاد كنيسة الاسكندرية أكبر خطيئة ارتكبتها كنيسة روما. كما كان فوسيوس من أقوى المعارضين الذين هاجموا تأليه الروح القدس، وذلك في كتاب بعنوان «سر أسطورة الروح القدس» **(Mystagonie de l'Esprit Saint)**. وهو أول رفض تفصيلي لتحريف النص اللاتيني وتحريف العقيدة. وتجدر الملاحظة بأن الآراء تختلف حول اعتبار هذا المجمع الثامن مسكونياً أم لا..

* * *

أما فيما يتعلق بالمجامع الغربية العامة، والتي طالب البابا بانعقادها اعتباراً من القرون الوسطى، فهي توضح بجلاء انتقال السلطة نهائياً من الامبراطور الذي كان هو الذي يدعو لإنعقادها، لتصبح في يد البابا وحده بلا شريك أو منازع.. وتتلخص هذه المجامع على النحو التالي:

• مجمع لاتران الأول (عام 1123): دعي إليه البابا كاليتكس الثاني للموافقة على معاهدة وورمس Worms التي تم توقيعها عام 1122 والخاصة بقيام البابا بتعيين الأساقفة بدلاً من أمبراطور ألمانيا الذي أصبح من حقه فقط أن يمنحهم الخيرات ومزيداً من السلطات. وكانت هذه المعركة القائمة لإنتزاع آخر خيوط للسلطة المدنية على نسيج السلطة الكنسية معروفة باسم «معركة التعيين» أو التنصيب في المراكز العليا..

• مجمع لاتران الثاني (عام 1139): انعقد هذا المجمع لحسم الخلاف القائم بين البابا اينوسنت الثاني وأناكليه الثاني. كما تم خلاله اعتبار جزيرة صقلية مملكة وراثية للكنيسة.

• مجمع لاتران الثالث (عام 1179): كان انعقاده لإعادة النظر وتقنين عملية انتخاب البابا وضرورة أغلبية ثلثي الأعضاء، ولتصفية الصراع القائم بين

البابا وفريدريك بربارروس أمبراطور ألمانيا الذي كان يشن الحملات الحربية على إيطاليا. كما أدان المجمع هرطقة مذهب «ألكاتار» أو عقيدة «التطهر» التي قامت ضد تطرفات رجال اللاهوت الكاثوليكي. وقد تمت إبادتهم بأمر من البابا اينوسنت الثالث.

• مجمع لاتران الرابع (عام 1215): انعقد لمواصلة متابعة المذاهب المنشقة ولتحديد معنى إستحالة القربان (تحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه)، وفرض مبدأ «الاعتراف» دورياً و«المناولة» سنوياً ـ كمزيد من الرقابة والسيطرة على الأفراد.

• مجمع ليون الأول (عام 1245): انعقد لفصل الأمبراطور فريدريك الثاني وحرمانه من الانتماء للعقيدة لمعارضته حقوق الكنيسة في إيطاليا. وكان ملكاً على صقلية (1197 ـ 1250) وأمبراطوراً على ألمانيا (1220 ـ 1250).

• مجمع ليون الثاني (عام 1274): انعقد للقيام بمحاولة جادة للوحدة مع الكنيسة اليونانية، والمطالبة بمجمع كرادلة للانتخابات البابوية، والمطالبة بمواصلة الحروب الصليبية..

• مجمع ڤيينا (عام 1311): انعقد لبحث الصراع القائم مع فيليب لوبل ملك فرنسا الذي كان يمارس سلطة استقلالية عن البابا، واختلف معه فيما يتعلق بالضرائب العشرية وبسبب تنظيم جنود «رتبة الهيكل» الذين أثروا ثراءً فاحشاً، وكان ملك فرنسا آنذاك يواجه مصاعب مالية بسبب غزواته التوسعية. فقام بدعوى ضد «جنود الهيكل» للاستيلاء على ثرواتهم. وأن البابا قد تحايل على ذلك بأن ألغى هذا التنظيم لكي لا تتسرب أمواله للدولة وللسلطة المدنية، كما تدخل هذا المجمع في معركة الفرنسيسكان التي كانوا يخوضونها ضد الفقر.

* * *

أما مجامع عصر النهضة فهي تلك المجامع التي انعقدت في فترة الأزمة المجمعية وأهمها:

• مجمع كونستانس (عام 1414): وقد دعي للاجتماع للحد من

الإنقسام الكبير الذي كان يجتاح الغرب، وحضره بضعة آلاف من رجال اللاهوت والعلمانيين والعسكريين. ووافق الآباء خلاله على قبول استقالة بابا روما جريجوار الثاني عشر وإقالة البابا المجمعي يوحنا الثالث والعشرين، وبابا مدينة آفينتون بِنْوَا الثاني عشر، لتورطهم في مسألة صكوك الغفران، كما قرر المجمع أن يقوم الكرادلة بإنتخاب البابا الجديد (مارتان الخامس). وفي نفس ذلك المجمع تمت إقالة جون هاس John Huss لأنه كان يعارض بيع صكوك الغفران ويساند جون فيكليف J. Wickliff، عالم اللاهوت البريطاني، المناهض لإنحرافات البابوية ورجال اللاهوت وما أدخلوه من إنحرافات في العقيدة. وكان جون هاس عميد جامعة براغ ويندد بأحقية الكنيسة في اشعال الحروب. وقد تم حرقه حياً، كما تمت إدانة فيكليف الذي يعد سبّاقاً في مجال عصر الإصلاح.

• مجمع بال ـ فراري ـ فلورنسا (عام 1431): تم انعقاده في المدن الثلاث على التوالي لعمل محاولة جديدة للوحدة مع الكنيسة اليونانية، والأرمنية، واليعاقبة.

• مجمع لاتران الخامس (عام 1512): انعقد بسبب الخلاف القائم بين البابا ولويس الثاني عشر ملك فرنسا، وحسم الصراع الناجم عن توقيع الاتفاقية بين البابا ليون العاشر والملك فرانسوا الأول لإنضمامه إلى حروب البروتستانت ضد المقر البابوي، ولإعلانه اللغة الفرنسية بدلاً من اللاتينية في القضاء والسجلات المدنية.

* * *

وهناك المجامع الحديثة الكاثوليكية وحدها، وهي مجامع أساقفة ورجال اللاهوت بدون مشاركة الأمراء أو زعماء الدول المدنيين، وأن كانت اهتماماتها عالمية، ومنها:

• مجمع ترانت (عام 1545): انعقد للبت في مسائل عقائدية في تلك الفترة المواكبة لأعنف الانقسامات الكنسية ومناقشة الكتاب المقدس، والتراث، والخطيئة الأولى، والعدالة، وأضفوا تعريفاً جديداً حول التضحية والمناولة والأسرار وعبادة القديسين وتبجيل الصور والايقونات، وكان البروتستانت قد قاموا بتحريمها ثانية.

•مجمع الفاتيكان الأول: (عام 1869): انعقد لمناقشة موقف الكنيسة في مواجهة العصر الحديث، والعقلانية، والاكتشافات العلمية الجيولوجية وخاصة علم الانثروبولوجيا الذي جعل من المحال التسليم بأن عمر الإنسان على الأرض مجرد قرابة ستة آلاف سنة أو أقل وفقاً للتقويم الوارد في جداول الأناجيل أو كما تفرضه الكنيسة ضمن ما تفرضه من قضايا على اتباعها يتم تقبلها بلا مناقشة.. فوفقاً لهذه الجداول آدم قد ولد قبل 1948 عاماً من سيدنا إبراهيم، والفرق بين سيدنا إبراهيم وبداية العصر المسيحي 1621 والأمر الذي يحدد عمر وجود الإنسان إذا ما أضفنا فترة العصر الحديث [1948 + 1621 + 1992] 5561 عاماً!! وهنا يقول موريس بوكاي Maurice Bucaille: «وكل ما اكتفوا به هو حذف هذه الجداول» **(La Bible, le Coran et la Science,** Seghers, Paris, 1978). كما أكد هذا المجمع سيادة البابا على كل شيء وأنه معصوم من الخطأ!! الأمر الذي أدى إلى خلافات وانقسامات جديدة..

•مجمع الفاتيكان الثاني (عام 1962/ 1965): انعقد لتدارس موقف الكنيسة حيال العصر الحديث، وقام بطبع رسالة افتتاح وختام المجمع عام 1965، وهي رسائل موجهة للعالم أجمع وأكثر ما لفت الأنظار في هذه البيانات ذلك البيان الخاص بحرية العقيدة والديانات غير المسيحية، فقد اتخذ المجمع قرارين لا سابقة لهما في تاريخ المجامع وهما: تبرئة اليهود من قتل السيد المسيح (على الرغم من كل ما هو وارد صراحة في العهد الجديد من إدانة لهم)، والموافقة على فتح حوار مع المسلمين، وذلك إلى جانب البيان الخاص بضرورة توحيد الكنائس، ودراسة كيفية توجيه وسائل الإعلام كالصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما!!.

ونظراً لأهمية هذا المجمع، فسوف نفرد له دراسة منفصلة تتسم بشيء من التفصيل.

* * *

وقبل أن ننهي هذا العرض الموجز لتاريخ المجامع، والذي تابعنا خلاله تلك المسيرة الملطخة بالدماء، وذلك الصراع من أجل السلطة والسيطرة والذي نراه أبعد ما يكون عن تعاليم السيد المسيح، بجانب ذلك التعصب المذهبي

المرير إلى أن تصبح المسيحية «أكثر الديانات انقساماً وانشقاقاً».. فلا بد من أن نتناول ملمحاً آخر مكملاً لهذه المجامع ومواكباً لها، ألا وهو «الرسائل البابوية» والتي سنكتفي بالإشارة إلى أهمها..

والرسائل البابوية هي تلك الخطب والتوجيهات العامة الصادرة عن البابا كتحديد للسياسة العامة للكنيسة، وهي موجهة إلى كافة الأساقفة، ليقوموا بدورهم بتوجيهها إلى اتباع الكنيسة في العالم أجمع أو في منطقة بعينها. ولن نتناول هنا سوى التنويه عن مضمون أهم هذه الرسائل - في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين فحسب - لتوضيح الدور الذي تقوم به الكنيسة فعلاً كمؤسسة تتولى توجيه شؤون العالم الغربي السياسية وتخطيها بذلك لحدودها العقائدية:

- **أهم رسائل البابا بيوس التاسع:**

في عام 1849: ضد الاشتراكية؛ في عام 1861: ضد الأنظمة السياسية التي تسمح بالعبادات غير الكاثولكية؛ وفي عام 1863: حول السلطة الزمنية؛ وفي الثامن من ديسمبر عام 1864: إدانة للمذاهب السياسية الطبيعية، وحرية العبادات، والديمقراطية.. الخ. وكانت هذه الرسالة البابوية مصحوبة بكشف يتضمن «ثمانين خطأ من أخطاء العصر» في نظره؛ وفي عام 1875 كانت رسالته ضد سياسة بيسمارك المسماة: Kulturkampf.

- **أهم رسائل البابا ليون الثالث عشر:**

في عام 1879: ضد العقلانية، في عام 1885: حول الديمقراطية ودور الكنيسة في الدولة، وفي عام 1888 حول الحريات الفردية، وفي الخامس عشر من شهر مايو عام 1891: حول المسألة الاجتماعية، وفي عام 1893 حول تعليم الإنجيل وضرورة التقريب بين الكنائس (ضماً إلى الكنيسة الكاثوليكية بالطبع)؛ وفي عام 1896 جاءت رسالته حول ضرورة التقريب بين الكنائس مرة أخرى.

- **أهم رسائل البابا بيوس العاشر:**

في عام 1906: إدانة قانون فصل الكنيسة عن الدولة الصادر في ديسمبر عام 1905 في فرنسا؛ وفي عام 1907: إدانة العصرية (modernisme) أو

التجديدية في المجال الديني، (والبابا بيوس العاشر هو الذي أدان القس لوازي Loisy وكان من أهم المنادين بضرورة التجديد).

• **أهم رسائل البابا بِنْوَا الخامس عشر:**

في عام 1914: عن السلام، وفي عام 1920: حول الإنجيل.

• **أهم رسائل البابا بيوس الحادي عشر:**

في عام 1924: عن جمعيات الأبرشيات: وفي عام 1929: حول التعليم المسيحي؛ وفي عام 1930: حول الزواج والأسرة. وقد هاجم البابا وأدان تحديد النسل الإرادي، وفي عام 1931: ضد نقد الإنجيل عقلانياً، وفي الخامس عشر من مايو عام 1931: ضد الأنظمة السياسية الشمولية؛ وفي عام 1937: إدانة الشيوعية الملحدة وهذه الرسالة البابوية معاصرة للرسالة التي تدين النازية.

• **أهم رسائل البابا بيوس الثاني عشر:**

في عام 1939: ضد الحرب، وفي عام 1950: ضد النظريات الحديثة؛ ورسالة غيرها حول الإرساليات وعملها؛ ورسالة أخرى حول الاحتفال تخليداً لذكرى مجمع خلقيدونيا المنعقد في عام 451 والذي تم خلاله تحديد طبيعة السيد المسيح بأنها تتضمن طبيعتين إلهية وإنسانية في شخص واحد، كما تم استبعاد الكنيسة القبطية لرفضها ذلك ورفضها اعتبار الروح القدس مساوياً لله.

وفي عام 1951: التوصية بتلاوة المسبحة ولعل نيافته قد فرض تلاوتها لكي تنطبق الآيات الخاصة بالتسبيح على المسيحيين ولا تعد دليلاً على الإسلام والمسلمين! وفي عام 1954: حول إعلان السنة الخاصة بالسيدة مريم العذراء ـ ذلك أن الكنيسة منذ عام 1950 قد فرضت عقيدة قيام السيد المسيح بمعجزة تصعيد جسد السيدة العذراء إلى السماء بمعاونة الملائكة...

• **أهم رسائل البابا يوحنا الثالث والعشرون:**

في عام 1959: حول التوصية بتلاوة المسبحة، وحول الإرساليات؛ وفي عام 1960: حول «الدم الثمين»، وفي عام 1961: حول ليون الأكبر بابا روما من 440 إلى 461 والذي انقذها من سلب الهانز، وحول التعاليم الكنسية والمشاكل الاجتماعية؛ وفي عام 1962: حول مجمع فاتيكان الثاني، وفي عام 1963: حول

مذهب الكنيسة فيما يتعلق بالسلام وعلاقتها بالعالم الشيوعي.

• **أهم رسائل البابا يوحنا بولس السادس:**

في عام 1967: حول التقدم، وتبتل القساوسة، وفي عام 1968: عن موقف الكنيسة فيما يتعلق بالسيطرة على الإنجاب ورفضها لوسائل منع الحمل لدى المسيحيين..

* * *

وبعد هذا العرض الخاطف لشذرات من معلومات أصبحت من أبجديات التاريخ والحضارة، والتي توضح بشكل صارخ تدخّل معقل البابوية للسيطرة على العالم وصياغة تطوره والتحكم فيه وفقاً لكل ما نسخته الأيادي المتعصبة على مر التاريخ.. هل بعد ذلك يحق لأي صوت من تلك الأصوات المنادية بضرورة فصل الدين عن السياسة في الإسلام أن يطالب بما يلوكه ترديداً لأقوال الغرب ومحاولاته أو تواطؤاً مع مصالحه؟! وسواء أكان هذا الترديد عن عمد أم عن جهل، فلقد أصبح يتعين على الجميع هنا في مصر وفي العالم العربي أن يعيدوا النظر في موقفهم، ليس حيال مجازر امتدت عبر التاريخ فحسب، ولا حيال ما يدور حالياً في البوسنة والهرسك من إبادة متعمدة، فمن لم يمت بلهيب السلاح سيموت قطعاً بزمهرير الثلوج، وإنما حيال كل ما يضمره الغرب ويخطط له من عمليات إبادة أخرى قادمة..

فبدلاً من التواطؤ صمتاً أو ترديداً لمصالح الغرب وتعصبه.. وبدلاً من سلب الإسلام قواه وكيانه.. على المسلمين والعرب جميعاً أن يواجهوا مرارة الواقع المحيط بهم والمستقبل الذي ينتظرهم ليس بالأقوال وحدها وإنما بالتخطيط والتصدي على كافة المستويات وفي كافة المجالات، وبالفهم الصحيح للدين الإسلامي الذي لا يجهل الغرب أنه دين دنيا وآخرة.. ولنذكر ما كتبه إرنست رينان المتخصص في اللاهوت والتاريخ قائلاً: «إن الأحرار الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفونه. إن الإسلام هو الاتحاد الذي لا يفصم بين ما هو روحي وما هو دنيوي، إنه حكم العقيدة، أي إنه أثقل أغلال تكبلت بها الإنسانية على الإطلاق»! (في: **الإسلام والعلم، 1883**).

وقبل أن ننهي هذا الجزء الخاص بالدين والدولة، والذي أوضحنا خلاله

الدور السياسي الذي قام به التعصب الكنسي وصراعه للاستحواذ على السلطة المدنية منذ اللحظات الأولى للإعلان عن المسيحية كديانة رسمية عام 313، الأمر الذي يختلف تماماً وتعاليم السيد المسيح الذي كان اهتمامه بالجانب الروحي فحسب، لكن أنّى لمتعصب أن يرعوي أو يلتزم بصحيح دونه، الأمر الذي يدعونا إلى متابعة هذا الاتجاه هوناً لنجلو مزيداً من وقائعه، إلى أن تصل إلى العصر الحديث.

ولن نبدأ بتلك الواقعة المعروفة منذ عام 1947، بعد هزيمة اليابان وقيام الجنرال الأمريكي ماك أرثر بإلغاء الشنتوئية كديانة رسمية للدولة ـ بناء على تعليمات «عليا»، ومحاولة نشر المسيحية.. ولن نذكر ذلك الحديث الشهير الذي أدلى به ليخ ڤاونسا في شهر ابريل عام 1989 عند زيارته للفاتيكان قائلاً: «لولا البابا يوحنا ـ بولس الثاني لما استطاع حزب التضامن (سوليدا رنوشتش) أن يرى الوجود»! وهي عبارة توضح الدور الحقيقي الذي لعبه البابا سياسياً في قلب موازين القوى في الساحة السياسية، الأمر الذي يتمشى واحدى الرسائل البابوية الآنفة الذكر.. فمن المؤكد والثابت وثائقياً أن الكنيسة البولندية قد لعبت دوراً حاسماً في الصراع ضد الشيوعية وضرب حلف وارسو.. وإن كان المجتمع البولندي حالياً قد بدأ يتذمر من التدخل الكنسي المفرط في الشؤون الداخلية (راجع مجلة **Phosphore** عدد شهر ديسمبر عام 1991).. وإنما سنعرض سريعاً لكتاب جان دليمو J. Delumeau، المؤرخ الفرنسي وأستاذ التاريخ في كوليج دي فرانس وعنوانه **La peur en Occident** (**الخوف في الغرب**)، والذي يوضح فيه ذلك الصراع الطويل الذي خاضته الكنيسة ومحاولتها طوال عشرين قرناً السيطرة على شؤون الدولة، وكيف أن القرار الصادر في فرنسا عام 1905 لفصل السلطتين لم يكن بالحسم الكافي في التنفيذ العملي».

ويوضح المؤرخ كيف تسرب النفوذ الديني منذ القرن الرابع، عندما اعتنق الأباطرة المسيحية وأدخلوا الديانة الجديدة في الدولة.. وبدأ الصراع لفرض عقيدة الإله الواحد ومنع عبادة الآلهة الوثنية واستمرار عبادة الأمبراطور.. ويؤكد القديس برنار «أن السيفين» أي السلطة الكنسية والعلمانية «كان كلاهما ملكاً للكنيسة».. ويذخر التاريخ بالوقائع التي توضح كيف كان البابا اينوسنت الثالث

قد مارس سلطة مدنية فعلية على العديد من البلدان المسيحية مثل صقلية، وأراجون، وانجلترا، ومملكة القدس، والأمبراطورية اللاتينية للقسطنطينية وذلك فيما بين 1198 و1216 أيام توليه السلطة البابوية. كما أنه أخضع جان ـ سان ـ تير (J. st - Tyr) وحرمه من الديانة لتدخله في شؤون الكنيسة الانجليزية..

وهذه التفاصيل توضح كيف تطورت الأمور لتصل في القرن الثاني عشر إلى محاكم التفتيش بما أنه «في الأراضي المسيحية لا يجب أن يكون هناك سوى سلطة الدين المسيحي الممثلة في كنيسة روما وأي خروج عن ذلك كان يعتبره البابا اينوسنت الثالث في عام 1199 هرطقة وسباً في الذات العليا»!!.

ويوضح المؤرخ جان دليمو عمليات القمع والتعذيب البشعة التي كانت تتم لإخماد أية «هرطقة» أو إعتراض، وكيف أن الحكم كان يصدر عن الكنيسة التي كانت تترك التنفيذ الإجرامي للسلطة المدنية وجنود الملك!!.

ولقد بدأت محاولات الحد من سيطرة الكنيسة في القرن السابع عشر، لتكون السلطة في أيدي الحكام المدنيين، ومع بداية عصر الثورة الفرنسية ازدادت المواجهة بين السلطتين، بل أنه في عام 1791 لم يأخذ النواب رأي البابا في التصويت على الدستور المدني لرجال الدين الذي يعيد تكوين كنيسة فرنسا. وبدأ اعتبار رجال الدين كموظفي دولة يتقاضون مرتبات مثلهم كمثل بقية الموظفين.. كما قامت الدولة بتعيين الأساقفة ليتم بعدها إعلان البابا بذلك. وهكذا بدأ صراع البابا من جديد..

ولم يخمد هذا الصراع عشر سنوات إلاّ بالمعاهدة التي وقعها نابليون بونابرت والتي تنص على أن تتولى الكنيسة تعيين القسس، وإن احتفظوا بوضعهم الوظيفي، كما نصت الإتفاقية على أن تخضع المجامع لسلطة الدولة. ولم يكف البابا عن الصراع.. ذلك الصراع الذي تم حسمه للمرة الثانية عام 1905 والذي نص على أن الدولة لا تقر ولا تمول أية عقيدة وإن كانت «تكفل حرية العقيدة للجميع».. لكن، هل تشير مجريات الأحداث إلى الإلتزام بذلك؟.

نستطيع أن نشير ـ من خلال الوقائع التي تغص بها المراجع العلمية ـ إلى أنه على الرغم من انتشار العلمنة في أوروبا، (لكي لا نقول شيئاً عن موجة الإلحاد التي سادت بسبب كل ما تم الكشف عنه من تحريف وتزييف للنصوص الدينية)، وعلى الرغم من النصوص أو الاتفاقيات الصريحة التي تنص

على فصل السلطة الدينية عن الدولة في الغرب، فإن واقع الأحداث في الساحة العالمية شاهد بما لا يدع مجالاً للشك على تلك التدخلات السافرة التي تحوّل التدخل إلى مجازر وحشية، يقودهما التعصب تحت زعم التطهير العرقي وغيرها من تكآت تدين أكثر مما تخفي، وتكشف وتعري بأكثر مما تموه، رغم هذا الزعم أو ذاك التمويه.. فعلى الغرب المتعصب أن يذكر نفسه بما نسيه وحاد عنه، من أن الرسالة الخاصة والتي لا يجهلها - التي عهد بها السيد المسيح إلى الكنيسة ليست سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية أو فنية، وأن الهدف الذي رسمه لها هدف ديني فحسب.

ولا نظنه - في ضوء ما يراه الكافة من واقع ووقائع - يحق للغرب أن يطالب الإسلام والمسلمين بالخروج عن تعاليم دينهم والفصل بين الدين والدنيا، فالإسلام - كما نكرر دوماً ويفرضه بتعاليمه، دستور حياة وآخرة، ولا يحق لمخلوق أن يعبث أو أن يتواطأ - جهلاً أو عن عمد - للمساس بما أنزله الله سبحانه وتعالى..

الفصل الثالث

الأصول.. والتحريف

نظراً لكل ما أورده الباحث جيرالد ميساديه G. Messadié في المجلد الثاني من كتابه المعنون: **«الرجل الذي أصبح الله»** من ملاحظات وأبحاث تناقض كل ما حاول التيار المتعصب في الكنيسة الكاثوليكية فرضه على مر العصور، فالجزء الثاني بأسره لا يتضمن سوى مثل هذه الملاحظات الدقيقة والتي لا تستقيم معها فريات تم نسجها بل وما زالت تنسج حتى أواخر القرن العشرين.. ونظراً لأهمية كل ما أورده فيما يتعلق بالأناجيل وتاريخها العصيب، وكل ما تتضمنه من حقائق يصعب تلخيصها، لذلك آثرنا ترجمه هذا الجزء الذي يتناول فيه مناقشة مصداقية الأناجيل وأصولها وما أجري فيها من تحريف..

* * *

«أن المآخذ التي لاحظتها على الأناجيل الرسمية أقل بكثير مما تتضمنه بالفعل من مثالب، وستتناول كل ملاحظاتي نفس تلك التحفظات الشائعة لدى الباحثين في أصول الأناجيل. وعدد هذه التحفظات الرئيسية ثلاثة.

يتعلق **التحفظ الأول** بأن الأناجيل لا تمثل علاقات مباشرة لشهود اسمهم مرقس، لوقا، متى ويوحنا، وإنما هي أناجيل وفقاً لهؤلاء الأشخاص. والدليل على ذلك هو أنه في القرن الثاني، حينما أعلن مرسيون Marcion مجهز السفن بمدينة بيت عانيا، تلميذ بولس والصياد المتحمس، مؤكداً أن الإنجيل الأصلي الوحيد هو إنجيل لوقا ـ وأنه شخصياً قد عدله بعض الشيء ـ قام رجال اللاهوت بإتهامه بالهرطقة، في الوقت الذي يعلمون فيه أنه ما من

إنجيل من الأناجيل الشائعه آنذاك، بما في ذلك تلك التي يطلقون عليها الأناجيل السرية أو المستبعدة، كانت ترجمة مباشرة من الأصل.

والتحفظ الثاني يتعلق بأن النسخ الأولى للأناجيل الرسمية كانت عبارة عن ترجمات باليونانية ابتداء من أصول هي - وفقاً لعلماء اللغة عامة - كانت مكتوبة بلغة سامية. ولقد لفتت لغة مرقس اليونانية أنظار الباحثين من حيث كونها «يونانية الترجمة»، ولا غرابة في هذا الأمر فمن المؤكد أن يسوع كان يتحدث لغة سامية، وإلى حد ما بكل تأكيد كانت الآرامية، أثناء خطبه وأحاديثه مع شعب فلسطين كما أن التدوينات الأولى لأقواله تمت بهذه اللغة أو علها تمت أيضاً بالعبرية. فالكنيسة الأولى في القدس، منبع التراث اليسوعي، كانت ما تزال تتحدث بالآرامية. وقد أصبحت النسخ المدونة باللغة اليونانية ضرورية عندما بدأ الحواريون يبشرون في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت تسيطر اللغة اليونانية التي كانت اللغة المستعملة آنذاك في القرنين الأول والثاني. وربما كان المترجمون الأوائل إلى اليونانية الذين تم جمعهم من المقاطعات التي كانت أيام حصار تيتوس للقدس، عام 70 وما بعده وبخاصة، عند نهب المدينة عام 132، عقب فشل ثورة باركشيبه (Bar Kocheba) لم يعد لهم أية صلة بفلسطين مثلما عرفها يسوع. وإننا لا نعرف من هم هؤلاء المترجمون، لكننا يمكن أن نفترض أن عدداً منهم كانوا فلسطينيين من الشتات الأول، الذين كانوا ما يزالون يتحدثون اللغة الآرامية وأحياناً العبرية دون شك، والذين أصبح واقع العالم اليهودي في الثلث الأول من القرن الأول، يزداد إبهاماً بالنسبة لهم. وهو ما يفسر بعض الأخطاء مثل الخلط بين هيرود الأكبر المتوفي في العام الرابع قبل الميلاد، وابنه هيرود أنتيباس، واختلاق أحداث مثل مذبحة الأبرياء التي لم يذكرها أي مؤرخ، في حين أن كافة أحداث هيرود الأكبر قد قام المؤرخ فلافيوس جوزيف Flavius Joseph بتدوينها بالتفصيل، أو تلك الأخطاء في الترجمة والتي تخلط ما بين يسوع الناصري Jésus le Nazaréen ويسوع الكائن بالناصرة Jésus de Nazareth. ذلك أن أهل الناصرة كانوا طائفة لا علاقة لهم بضيعة الناصرة الغامضة. وهذه النقطة التي قد تدهش البعض قد تم تحليلها في صفحة لاحقة.

فلا يوجد ما يدعو إلى أن نصدق نصوص متعددة الأصول، قد تم

تحريفها بكل تأكيد عبر عدة محاولات للنسخ والترجمات من الآرامية إلى اليونانية، ومن اليونانية إلى اليونانية، ثم من اليونانية إلى اللاتينية عن طريق القديس جيروم. الأمر الذي يعرفه كافة مفسري النصوص الدينية، فلا الأناجيل الرسمية ولا تلك المستبعدة كانت نصوصاً أصلية لم تمس، أتت إلينا من مصادر محددة، ولا يوجد أيضاً ما يدعو للدهشة لأن مفهوم النص التاريخي لم يكن معروفاً آنذاك، وأوائل المؤرخين من أمثال تاسيت Tacite، لم يكونوا سوى محرري حوليات، وكتاب أناجيل، أو بمعنى أدق العدد الكبير من كتاب الأناجيل لم يصوغوا نصوصهم إلاّ بهدف روح التبشير التي هي أبعد ما تكون عن المفهوم العصري للتاريخ. يبقى بعد ذلك أن هذه النصوص قد تمت كتابتها في فترة محددة تاريخياً، وأنها، من هذا المنطلق، تخضع لذلك الشكل من التحليل التاريخي للنصوص ونعني به علم اللغة.

ومن ثم، فإن علم اللغة يؤكد لنا أن الأناجيل الرسمية لا تأتي من تلك المصادر النظرية التي افترضوا لها أسماء لوقا ومرقس ومتى فحسب، بل أن هوية مؤلفيها مشكوك فيها. ففي مقال ورد بالموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britanica إصدار عام 1962، قام الأب أ.إ.ج. رولنصون A.E.J. Rowlinson، اسقف دربي، وصاحب تلك الدراسة حول إنجيل متى والتي ظهرت في تعليقات وستمنستر Westminster Commentaria يوضح أن في مجموع عدد آيات إنجيل مرقس 661 آية، نجد منها مع شيء من التغيير حوالي ستمائة في إنجيل متى وثلاثمائة وخمسون في إنجيل لوقا. ومن أجل ذلك يطلق علي هذه الأناجيل الثلاثة لفظة «متوافقة»، لأنها تستلهم نفس المنبع، بشكل مباشر بالنسبة لمرقس، وبشكل غير مباشر بالنسبة لكل من متّى ولوقا: وهذا المنبع أو الأصل غير معروف لليوم ويطلق عليه المنبع Q، اختصاراً للكلمة الألمانية Quelle وتعني المنبع. ولقد توصل متّى ولوقا إلى هذا المنبع عن طريق مرقس، والذي كان مرقس قد استقى منه مباشرة. وأن تم ذلك بشكل عشوائي فيما يتعلق بالترجمة، لأن مرقس يقترف أخطاءً أجرومية يقوم متّى ولوقا بتصويبها، كما يستخدم كلمات يونانية نادرة، يقوم متى ولوقا باستبدالها بكلمات دارجة أكثر فهماً بالنسبة لمستمعيهم، الأمر الذي يعني أننا لا نعرف أي شيء عن ذلك المصدر Q، الذي يرى الأب رولنصون وغيره من الباحثين أنه لم يكن باللغة

السامية وإنما باللغة اليونانية، وحول هذه النقطة وما يتصل بمختلف منابع الأناجيل فإنه يمكن الرجوع إلى تلك الدراسة القيمة لـ بروس متزجر Bruce Metzger: **الأصول الأولى للعهد الجديد**، ذلك لأنه كانت هناك سبع ترجمات سريانية للأناجيل، وخمس ترجمات قبطية، وست ترجمات أرمنية، وست أخرى جورجية، وخمس ترجمات اثيوبية، وخمس أخرى بلغة آسيا الصغرى، وثلاث ترجمات لاتينية، وخمس ترجمات قوطية، وخمس ترجمات سلافية وثلاث ترجمات أوروبية صغرى..

ودون الخوض هنا في مناقشات تتطلب وحدها مجلداً، أود أن أحدد للقارىء أن العديد من الأبحاث اللغوية حول الأناجيل الرسمية هي التي سمحت بأن نحدد بشكل منطقي ما كان عليه المحتوى الأفتراضي للمنبع Q. ويبدو أن هذا المنبع قد اقتصر أساساً على أقوال يسوع (مثل إنجيل توما). وأن هذا الأصل الأول لا يتضمن أي شيء عن آلام المسيح. وفيما يتعلق بتفاصيل هذه الأعمال، التي يعرفها المختصون، أسمح لنفسي بأن أوجه القارىء لدراسة شديدة العمق قام بها ج.أ. ويلز G.A. Wells (والتي لم تترجم) وهي بعنوان: **هل يسوع وجد حقاً؟**.

وذلك لا يعني أن الآلام لم تحدث، وإنما أن مؤلفي الأناجيل الرسمية (والمستبعدة) قد صاغوا أعمالهم أعتماداً على رواية مختصرة، ربما كان متّى أول من استخدمها. أي أن مرقس ولوقا استوحياها فيما بعد، ذلك لأن يوحنا قد سلك طريقاً آخر.

ومع ذلك فهذا التقويم ليس نهائياً لأنه يبدو أيضاً أنه كانت هناك مراحل في صياغة النصوص التي وصلت إلينا والتي قرروا تعميدها في القرن الخامس. من هنا نجد أن هناك شكلاً سابقاً لإنجيل لوقا يطلق عليه «النص الأول للوقا» «Proto - Luc»، وهو يستحوذ على تفضيل المختصين أكثر من إنجيل متّى.

وهذه الاعتبارات العلمية مهمة في القراءة التحليلية للأناجيل عندما تكون مدعمة بالداراسات النقدية. ذلك أنها تسمح بالفعل بمتابعة اختلافات النصوص في كل إنجيل في علاقتها بمختلف مراحل حياة يسوع وبالكلام الذي يسند إليه. كما أنها تسمح بإدراك وجهة النظر المميزة لكل كاتب من كتّاب الأناجيل بشكل أفضل.

وعلى أي حال فلا يوجد ما يدعونا إلى افتراض أن الأناجيل الرسمية، ولا حتى تلك المجموعة المتوافقة معها، يمكن اعتبارها، وفقاً للتعبير السائد، ككلمات للإنجيل لأنها أولاً قد تمت كتابتها في أماكن شديدة الاختلاف وفي ظروف لم تتبع فيها الموضوعية بكل تأكيد. فإنجيل متَّى، في صيغته الثانية أو الثالثة التي لدينا خالياً قد كتب في الإسكندرية (راجع ويلسن: يسوع ـ البرهان) كما أن به تحيزات ضد السامية أحياناً، وفي أحيان أخرى يكون مناصراً لها. أما إنجيل لوقا، فمن الواضح أنه صيغ من أجل أناس يتحدثون اليونانية من شخص قد تعلم اليونانية وربما تم ذلك في مدينة إنطاكيا (راجع ويلسن). ويؤكد التراث القديم أن إنجيل مرقس قد صيغ في روما من شخص لم تطأ قدماه أرض فلسطين لأنه يجهل جغرافيتها تماماً. ونفس التراث يؤكد أن إنجيل يوحنا قد صيغ في مدينة أفسوس، وأغلبية المفسرين وعلماء اللغة يؤكدون أنه قد تمت كتابته في آسيا الصغرى الهللينية من قبل مؤلف يعرف القدس على الأقل.

ومن المؤكد أنه ما من إنجيل من هذه الأناجيل يمكن اعتباره صياغة أولى وما من إنجيل من هذه الأناجيل قد وصلنا في لغته الأصلية. وربما تم الاكتشاف ذات يوم عن مخطوطات أخرى تكون هي الأصلية.

وليس هذا الأمل افتراضياً وسأقدم المثل هنا ففي عام 1941، اضطر الدكتور مورتن سميث Dr. Morton Smith، الذي أصبح فيما بعد استاذاً للتاريخ القديم في جامعة كولمبيا، في نيويورك، إلى البقاء في فلسطين بسبب الحرب العالمية الثانية. صادق أحد الرهبان اليونانيين الأرثوذكس ودعاه لقضاء بعض الوقت في دير مار سابا، على بعد عشرين كيلومتراً من القدس. ودير مار سابا، بالإضافة إلى دير سانت كاترين، يمثل واحداً من أكبر ديرين ارثوذكس في الصحراء. وعندما عاد سميث مرة ثانية عام 1958، وكان ذلك بناء على دعوة من رهبان الدير، لدراسة وتبويب مجموعة مخطوطاتهم وكتبهم. وقد اكتشف عندئذٍ بآخر صفحة من طبعة لخطابات القديس اغناس في انطاكيا وهي ترجع إلى القرن السابع عشر، على نص مخطوط، يرجع إلى القرن الثامن عشر، وكان نسخة من خطاب كليمنس السكندري، والذي يعد واحداً من أشهر آباء الكنيسة وقد عاش في أواخر القرن الثاني؛ وكان هذا الخطاب موجهاً إلى شخص يدعى تيودور. ويشير الخطاب إلى إنجيل سري، أي مستبعد، لمرقس،

يعتمد على الإنجيل الرسمي لكنه يتضمن إضافات موجهة لبعض تلاميذ المسيح، ويشار إليهم أحياناً على أنهم والذين قد ازدادوا اكتمالاً وأحياناً أخرى» الذين قد تم تدريبهم على الأسرار المبرى». ويذكر هذا الخطاب بعض المقاطع من ذلك الإنجيل الذي لم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت.

وهذه المقاطع تثير القلق بشدّة، خاصة في ذلك الجزء الخاص ببعث عازار Lazare وبداية النص تتفق إجمالاً والنصوص الرسمية: «جاءت امرأة هلعة قد توفي أخوها للتو وارتمت عند أقدام يسوع؛ فصدها الحواريون، لكن يسوع تبعها إلى الحديقة حيث يوجد القبر وبينما كان يقترب منه، سمع صرخة مدوية تنبعث من القبر. وقام يسوع بدحرجة الحجر المستدير الذي يسد القبر، مثل كل مدافن اليهود، ووجد الشاب بداخله. ومد له يسوع يده وأنهضه. لكن الشاب راح ينظر إليه فأحبه وبدأ يرجوه أن يظل معه. ثم خرجا معاً من القبر ودخلا منزل الشاب وكان ثرياً. وبعد ستة أيام قال له يسوع ما كان يتعين عليه أن يفعله، وفي المساء، عاد إليه الشاب مرتدياً رداءً من الكتان على جسمه العاري. وظل مع يسوع ذلك المساء، لأن يسوع علمه سر مملكة الله. ومنذ ذلك الوقت عاد ذلك الشخص الذي بُعث إلى الضفة الأخرى من النهر (Wilson, Jesus - The Evidence. Smith, Clement of Alexandria & a Secret gospel of Mark, the secret gospel).

ويستكمل كليمنتس السكندري هذا الاستشهاد مؤكداً أنه لا يوجد أي شيء في هذا الإنجيل السري يبرر الشائعات التي سمعها تيودور والتي يقال تبعاً لها أن يسوع وهذا الشاب كانا عاريين أثناء إطلاعه على الأسرار. ثم بتصويب فقرة كانت حتى ذلك الوقت ما زالت غامضة في إنجيل مرقس. عندما يكتب مرقس بالفعل في الآية 46 من الإصحاح العاشر: «لقد وصلوا (أتباع يسوع العشرة) إلى أريحا، وبينما كان (المسيح) يغادر المدينة مع حوارييه وجمهرة من الناس...» إلخ وهو تحديد غير مفهوم إذ ما معنى أن يقول أن يسوع ذهب إلى أريحا، لو لم يحدث شيئاً هاماً في تلك البلدة؟ غير أن كليمنتس السكندري قد كتب: «لقد كان هناك أخت الشاب الذي كان يسوع يحبه وأمها وسالومي، ولم يستقبلهم يسوع».

إن هذه الفقرات المجهولة تثير القلق بشدة لأسباب خمسة أساسية

وأخرى جانبية. السبب الأول تلك الليلة التي أمضاها يسوع مع الشخص الذي بعث ليعلمه الأسرار. ومع رجائنا باستبعاد أي شك في علاقة مثلية وقد تم تحليل هذه النقاط في مكان لاحق!!، فلا بد لنا من أن نشير إلى طقس تعليمي سري لا بد وأن يسوع قد مارسه. وربما كان التعميد والذي يمكن تفسيره بأن الشاب الذي بعث لم يكن يرتدي سوى رداء من الكتان، وإنما يشير ببساطة إلى الأسينيين في تعميد المساء. وإن كان هذا التفسير غير كاف وسنعود إليه في الملحوظة الخاصة بالقبض على يسوع، وهي الواقعة التي نلتقي خلالها ثانية بنفس ذلك الشاب.

والسبب الثاني هو أن واقعة بعث عازار (يُفترض أنه هو فعلاً لأن كليمنتس السكندري لا يذكر الاسم) كانت موجودة أصلاً لكن بشكل مختلف في إنجيل مرقس.

ولم نكن نعرفها إلاّ من إنجيل يوحنا، وبشكل غير مباشر تماماً عن طريق إنجيل لوقا (16: 19 ـ 31). إلاّ أنه توجد أسباب جادة تجعلنا نقول أن إنجيل مرقس قد تعرض للبتر، ولا يمكن الحديث بالطبع عن مقدار ما حذف منه.

والسبب الثالث هو أنه وفقاً لمقولة الاستشهاد المسند إلى كليمنتس السكندري فقد كان يوجد إنجيل موازٍ أو على الأقل معاصر لهذا المؤلف وعلى ما يبدو أقدم منه، وكان آنذاك قد تعرض لعمليات بتر في مطلع القرن الثاني؛ أي أنه كانت هناك سلطات تعبث في الشهادات الأولى وفقاً لمقتضيات الكنيسة الناشئة.

والسبب الرابع هو أن نص مرقس، وفقاً لكليمنتس السكندري، يستبعد جزءاً كبيراً من الطابع العيني لبعث عازار. وبالفعل عندما وصل يسوع إلى القبر كان عازار يصرخ، أي أنه كان حياً قبل أن يتمكن يسوع من دحرجة حجر المقبرة. ويسوع لم يفعل أكثر من أنه عاونه على النهوض ويمكن القول بالطبع، في التراث السيار المسيحي إن عازار قد بعث نتيجة لوجود يسوع على مقربة منه، ومع ذلك لا مثيل لذلك في المعجزات الأخرى ليسوع. ويمكن أن نتخيل أن الوحي العلاجي ليسوع هو الذي أشار إليه، وفقاً لقصة أخت عازار (وهي مريم المجدلية على ما يبدو)، من أن عازار لم يكن ميتاً، فحتى يومنا هذا، فإننا نجد حتى في بلد صناعي متقدم مثل فرنسا، الإعلان عن دفن مبكر قبل الوفاة..

والسبب الخامس والأخير للقلق أو الاضطراب هو أن إنجيل مرقس قد كان بمثابة منبع لكل من إنجيل متّى ولوقا، لذلك فإننا نتساءل لماذا لا توجد الواقعة الخاصة بعازار حتى وإن كان في الشكل «المنقح» الذي يتناوله إنجيل يوحنا؟.

ويمكن بالطبع أن نتصور أن الخطاب الذي عثر عليه سميث مختلف، وفي مثل هذه الحالة يظل السؤال الذي سبق طرحه بلا جواب وهو: ما الذي حدث في أريحا؟

إلاّ أن هناك سبباً قوياً للقول بأن هذا الخطاب إنما هو أصلي: فها هي فقرة من إنجيل مرقس المعتمد بالطبع، والتي قد أثارت الفضول لفترات طويلة، وهي تقع في إطار القبض على يسوع: «وتبعه شاب لابساً إزاراً على عُريه فأمسكه الشُبان. فترك الإزار وهرب منهم عرياناً (مرقس 14/ 51 و52). وهذا الشاب ورداؤه يشبهان بشكل غريب ذلك الشخص المجهول الوارد في خطاب كليمنتس. ولا نشك أنه عازار.

ومع ذلك، فإن عازار ليس من الحواريين، في حين أن مرقس يقول (في 24: 32) أن يسوع قد ذهب مع حوارييه إلى جثيماني بعد العشاء الأخير. وبما أن عازار لم يحضر في العشاء الأخير فإننا لا نرى ما الذي يفعله في جثيماني، ولقد سبق للبعض أن افترض أن هذا الشاب الذي هرب عارياً ليلاً كان يوحنا بما أنه هو ويعقوب الحلفي من أصغر اثنين في هذه الجماعة.

ومع ذلك يظل هذا التفسير أعرجا لسببين. الأول أنه لم يجر العرف في العالم اليهودي آنذاك، أن يخرج المرء عارياً في إزار من الكتان وخاصة في شهر إبريل وعادة ما يكون شهراً لما يزل بارداً في فلسطين. لقد كانوا يرتدون إزار أشبه بارديتنا في القرون الوسطى، هي السق، وعليها قميص أو شالوك، يضمه رباط في الوسط، وعليه معطف أو تاليث. والسبب الثاني هو أن الشبه بين الشاب الهارب عازار في الواقعة المبتورة شديد الوضوح، وذلك من حيث العمر وليس لنا أن نهمل مثل هذا المعطى. إذ أن الأسئلة الناجمة عنه مصيرها أن تظل بلا جواب إلى أن يتم العثور على فقرات أخرى من إنجيل مرقس. وأهم هذه الأسئلة هو: هل كان عازار أحد أتباع يسوع تحت اسم لا نعرفه؟.

وهل ظل يحتفظ حتى النهاية بذلك الرداء الفريد كذكرى لتعليمه الأسرار عقب خروجه من القبر؟.

لقد أشرت آنفاً للفقرات المبتورة من مخطوط مرقس. وفي مطلع القرن الثالث كان المؤلف المسيحي هيبوليت يطلق على مرقس «الرسول ذا الأصابع القصيرة» لأن إنجيله كان أقصر الأناجيل الأربعة. وفي القرن التاسع عشر والقرن العشرين أكد علماء اللغة شكوك أوسيبيوس القيصري والقديس جيروم، اللذين يؤكدان أنه على الأقل في نهاية إنجيل مرقس توجد فقرة مقحمة على اليد التي صاغت المخطوط الأصلي. وفي دراسته المفصلة الواردة بالموسوعة البريطانية، فإن هلموت هنريخ كوستر Helmut Heinrich Koster الأستاذ المساعد للكتابات الإنجيلية الحديثة في كلية هارفارد اللاهوتيه، يلخص رأي أغلبية زملائه وهو يعلن قائلاً أن آخر آية أصيلة في إنجيل مرقس هي 16: 8، وأن الباقي كله تراكمات متأخرة كما تثبت ذلك أيضاً تلك الأصول المحفوظة في سيناء والفاتيكان (Codex Sinaiticus & Vaticanus) ويرى كوستر أيضاً أنه من المحتمل أنه كان يوجد «إنجيل أولي» لمرقس يصعب تحديد الأمر الذي يدعم حقيقة استشهاد كليمنتش السكندري.

أي أن إنجيل مرقس الذي لدينا ليس كاملاً وليس أصلياً كلية. ففي فترة ما قبل القرن الثالث قد «عُبث به» لأغراض مجهولة.

وإنجيل متى هو الآخر ليس معصوماً من التحريف الشديد الوضوح، والذي سبق وأشار إليه العديد من المفسرين، الأمر الذي ثبت بشكل قاطع: فلقد كان هناك فعلاً إنجيلاً أقدم من إنجيل متّى ولم يقم «متى» بكتابته لأنه شخص افتراضي مثله مثل «يوحنا»، مثلما سنرى ذلك فيما بعد وإنما كتبه ليفي جابي الضرائب. إذ أن متى جابى الضرائب لم يكن غير ليفي جامع الضرائب. ولا داعي للبحث عن إثبات ذلك من مراجع بها نصوص غامضة، ويكفي أن نرجع إلى إنجيل مرقس إذ يقول: «وفيما هو مجتاز رأى لاوي بن حلفي جالساً عند مكان الجباية فقال له اتبعني. فقام وتبعه» (مرقس 2: 14)، بينما نقرأ في إنجيل متى ما يلي:

(*) في النص الفرنسي يوجد: «فقام ليفي وتبعه» (المترجمة).

«وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى. فقال له اتبعني. فقام وتبعه» (مت 9: 9). ويا له من مركز جباية غريب حيث فقد فيه ليفي هويته ليصبح متى!.

ما معنى هذا التعبير؟ ببساطة أن المؤلف المسمى «متى» شخصية متأخرة استعان بشهادات ليفي ونسبها لنفسه لكنه قدم نفسه فيما بعد كشاهد مباشر ليسوع لكي يدعم سلطته. الأهم من ذلك أن هذا يؤكد أن إنجيل متى ليس أيضاً شهادة مباشرة وإنما تراكم يحق لنا كل الحق أن نشك فيه.

والشك يتولد عن القراءة المتتالية للأناجيل الأربعة المعتمدة: وسرعان ما نلحظ أن متى يفرط في مضاعفة الإضافات التي لا تتعلق بنبوة المسيح وإنما بتأليهه. وبينما نجد في الأناجيل الثلاثة الأخرى أن الحواريين يتوجهون إليه (المسيح) بصيغة المخاطب أو على الأقل لا يدخلون كلامهم إلاّ بكلمة «سيد» Maître، فإننا نجد عند متى أنهم هم والآخرون لا يوجهون الحديث إليه إلاّ بعد نداء دعائي مثل «ابن داود»، «سيد» Seigneur، و«ابن الإنسان» وهي صيغة شديدة التناقض مثلما نوضحه في ملحوظة في مكان لاحق إلى جانب فقرة أخرى يحدده فيها متى على أنه ملك إسرائيل وابن الله!!.

وسأضرب مثلاً بالفقرة التالية المأخوذة عن مرقس: وهي الفقرة المتعلقة بالمرأة المصابة بنزيف: «وامرأة تنزف دم منذ اثنتى عشرة سنة. وقد تألمت كثيراً من أطباء كثيرين وانفقت كل ما عندها ولم تنتفع شيئاً بل صارت إلى حال اردأ لما سمعت بيسوع جاءت في الجمع من وراء ومست ثوبه لأنها قالت إن مسست ولوثوبه شفيت. فللوقت جف ينبوع دمها وعلمت في جسمها أن قد برئت من الداء. فللوقت التفت يسوع بين الجمع شاعراً في نفسه بالقوة التي خرجت منه وقال من لمس ثيابي فقال له تلاميذه أنت تنظر الجمع يرحمك وتقول من لمسني وكان ينظر حوله ليرى التي فعلت هذا. وأما المرأة فجاءت وهي خائفة ومرتعدة عالمة بما حصل لها فخرت وقالت له الحق كله. فقال لها يا ابنة إيمانك قد شفاك! اذهبي بسلام وكوني صحيحة من دائك» (مرقس 5: 25 - 34).

ورغم سذاجته، فإن هذا النص يقدم يسوع كمعالج حامل لتيار مغناطيسي

يهرب منه عند اللمس، حتى غير المباشر، من المرض. كما أنه يسمح أيضاً بأن نفترض أن علاج المرأة يمكن تبريره كظاهرة إيحاء ذاتي، في الإطار الذي يطلق عليه اليوم الطب النفسجسمي (Psychosomatique). أما عند متى فالنص مكتوب على النحو التالي: «وإذا امرأة نازفة دم منذ اثنتي عشرة سنة قد جاءت من ورائه مست هُدب ثوبه لأنها قالت في نفسها إن مست ثوبه شفيت. فالتفت يسوع وأبصرها فقال ثقي يا ابنة إيمانك قد شفاك: فشفيت المرأة من تلك الساعة» (متى 9: 2 - 22). فيقوم متى بتحويل نص مرقس بحيث يضفي على يسوع علم الغيب وقوة سحرية؛ إذ يبدو يسوع يعرف أن المرأة وراءه من قبل أن يراها، وأنها لم تشف إلاّ عندما خاطبها.

تحريفات بسيطة لكنها ثقيلة الأغراض. إلاّ أن متى يحرف أيضاً وبشكل شديد الوضوح نصوص العهد القديم قائلاً لنفسه بلا شك أن أحداً لن يذهب للتحقق منها. وذلك بغية تقوية فكرة أن مولد يسوع كان معلن عنه في كل الأزمنة، خاصة عن طريق أنبياء العهد القديم. فنرى فيما يتعلق بالهلع الذي أصاب هيرود عند إعلان مولد يسوع: «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل» (متى 2: 6) إلاّ أن هذه الآية التي تم تحريفها كانت كالآتي: «أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل» (ميخا 5: 2).. إن «ألوف يهوذا عند ميخا قد تحولت إلى «رؤساء»، وبيت لحم «الصغيرة» أصبحت «صغيرة أن تكوني» أي أبعد ما تكوني، وتعبير «متسلطاً على إسرائيل» أصبحت مدبر يرعى شعبي إسرائيل، إلخ..

وليست هذه المرة الأولى التي يحاول فيها متى تحريف نصوص العهد القديم لدرجة يجعلها تقول العكس تماماً. وبذلك نراه يجعل يسوع يقول الآتي: «لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال فمي وأنطق بمكتوماتٍ منذ تأسيس العالم» (متى 13: 35). وكلنا نعرف النجاح الذي لاقاه هذا النص في يومنا هذه. وهو مأخوذ من: «أفتح بمثلٍ فمي، أذيع الغازاً منذ القدم التي سمعناها وعرفناها وآباؤنا أخبرونا» (مزامير 78: 2 - 3). وكما نرى فلا علاقة بين الاثنين. ولقد أحصى جون اللجرو John Allegro العديد من مثل هذا التحريف المريب

الذي قام به متى وذلك في كتابه المعنون: **مخطوطاتِ البحر الميت ــ إعادة تقييم** ، والحصر الكامل لهذا التحريف يحتاج إلى مجلد بأسره: فأرجو المعذرة إذ تخليت عن ذلك.

والخلاصة الأساسية هي أن إنجيل متى أيضاً لا يمكن أن نثق به فهو نص محرف ومكتوب لأغراض متحيزة جاهد المؤلف لكي يفرض صورة يسوع وقد تم تأليهه، من خلال تعليم بنيوي، في حين أن بنيته لا ترجع إلاّ لذلك المؤلف الذي أرادها على هذا النحو. فبالنسبة لمتى إن تعليم يسوع كان مكتوباً مسبقاً في العهد القديم - وهو غير صحيح بالمرة - وهذا التعليم يبدو أكثر تماسكاً مما لدى الكتبة والفريسيين. ولقد جاهد متى بكل وضوح ليهدىء من تباعد يسوع المستْفِز عن الدين المكتوب مما جلب إليه تنديداً لا نهاية له من قِبَلْ الفريسيين. ومن هذا المنظور فهو شديد الاختلاف عن إنجيل مرقس وخاصة إنجيل يوحنا.

وإذا ما كان إنجيل مرقس يستلهم نصاً ضائعاً وربما أصلياً، وإذا أمكن اعتبار إنجيل متى منقول من نص قديم، ربما كان إنجيلاً مفقوداً كتبه ليفي جابي الضرائب، فالأمر يختلف تماماً بالنسبة لإنجيل لوقا الذي لا يقترب إلاّ من الأصول القديمة Q التي أشرنا اليها سالفاً. إن لوقا هلليني رشيق، وقد كان طبيباً وفقاً للتراث (المشكوك فيه) ويبدو أنه لا يعرف فلسطين وأنه من فترة زمنية متأخرة وذلك للأسباب الأساسية التالية: إنه يتناقض تناقضاً أساسياً مع مرقس ويوحنا، لأنه بالنسبة إليه: لا آلام يسوع، ولا بعثه ولا سقوط القدس (الذي وقع عام 70) يجب أن تؤخذ على أنها من علامات نهاية الأزمنة، على الأقل ذلك هو ما يصفه على لسان يسوع (مثلاً في 17: 2 - 25) يأتي لوقا إذن بعد سقوط القدس الذي كان من المفروض أنه يُعلم عن نهاية العالم وقد لاحظ أنها لم تحدث، مثله مثل الاسينيين الذين كانوا ينتظرون نهاية العالم عند الزلزال الذي وقع عام 30 ق.م. ولم تحدث أيضاً واستمرت الحياة. أي أن لوقا قد كتب في أواخر القرن الأول والأرجح أنه كتب في مطلع القرن الثاني. فلقد تخلى إنجيله بوضوح عن إدعاءات الشهادة التي كان متّى ينميها ليصبح نصاً قدسياً.

إن إنجيل لوقا كتبه شخص واحد ولا يبدو أنه يتضمن إضافات أو

فجوات (الأمر الذي لا يعني: استبعادات) لكن، على الرغم من أغراضه التيولوجية الواضحة، فهو أيضاً أكثر الأناجيل الأربعة رومانسية بالمعنى العصري للكلمة. إن لوقا يقص حكاية يسوع مع إعادة ترتيب الوقائع وفقاً لغرضه، وأحياناً ليس بشكل غير معقول فحسب، بل في عبث بالجغرافيا. إذ من الواضح أن فلسطين قد أصبحت بلداً مبهماً ولن يذهب أي فرد للتأكد من أقواله فإذا ما أمكننا إلى حد ما إعادة تكوين تنقلات يسوع أثناء حياته الوعظية وهو أمر ممكن جدلاً من خلال إنجيلي متى ومرقس إلاّ أنه يصعب تماماً اعتماداً على إنجيل لوقا.

إن إنجيل لوقا فريد لأنه يمثل وجهة نظر «كونفوشية» و«رواقية» ليسوع، (بالمعنى اليوناني للكلمة)، وتشهد على ذلك مقولات من قبيل: «إذا لم تكونوا جديرين بثروات هذا العالم فمن سيسند إليكم الثروات الحقيقية؟». كما أنه يتضمن قيمة «تاريخية» لأنه بالعثور على ما تمت استعارته من إنجيل مرقس، وفرصته أكبر في أن يكون حقاً، إن لم يكن صدقاً فإنه يمكن أن نشك فيه باعتباره «فبركات» لاحقة.

ذلك لأن لوقا يضيف حليات قدسية شديدة الوضوح، مثلما في قصة إغراء الشيطان ليسوع. ولا نشك في أنه لم يراها لكنه يجعل منها نصاً خيالياً سيصبح جزءاً أساسياً من التراث المسبق ـ للرومانسية الألمانية. ولا تكمن سذاجته في السرد المباشر للأحداث، كما عند مرقس، لكن في تلك الحليات الأدبية التي يجعلها البعد الزمني واضحة.

أنه نسخ متأخر نسبياً لفترة نبوة يسوع اعتماداً على وثائق قد ضاعت اليوم، وهو نسخ مغرض بلا شك، وبذلك فإن الأناجيل الرسمية ليست تلك الوثائق الأصلية والأصلية التي يفترضها التراث. وبهذا الصدد فإن التعليم الكاثوليكي يستحوذ على ذلك الإجماع الذي تفرضه قيمة هذه الوثائق والذي ساد حتى مطلع هذا القرن.

فلا بد لنا من توضيح أنه في أواخر القرن التاسع عشر قد بدأ المفسرون وعلماء اللغة في الدراسة الجادة للقيمة الوثائقية الحقيقية للأناجيل. ففي القرن الثامن عشر كان الألماني هـ س. رايماروس H.S. Reimarus قد اتخذ الحيطة، على الرغم من سلطته كأستاذ للغات الشرقية في جامعة هامبورج، بألا يهتم نشر

أبحاثه وتحليلاته إلاّ بعد وفاته، وبعد قرن من الزمان. ولقد فقد د. ف. تشتراوس D.F. Strauss، الأستاذ بجامعة توبنجن، وظيفته لأنه عارض عناصر ما وراء الطبيعة في الأناجيل. أي أن النقد لم يكن حراً. وكان لا بد من انتظار ڤيلهلم فريد Wilhelm Wrede في أواخر القرن التاسع عشر، ورودلف بولتمان Rudolf Bultman في مطلع هذا القرن. لكي يمكن القول بصوت عال ودون أن يغتال المرء، **أن القيمة التاريخية للأناجيل جد هزيلة. ومع ذلك فقد ظلت الفضيحة محصورة في نطاق كبار المثقفين.**

فلم يكن الانفعال مثل ذلك الناجم عام 1863 عن كتاب **حياة يسوع** لارنست رينان E. Renan ففي هذه المرة كان النص يصل إلى كل الذين لم يدرسوا اللغات القديمة ولم يحصلوا على مبادىء التحليل التاريخي. فقد كان نصاً مما يطلق عليه اليوم «للجماهير العريضة». ومع ذلك، وعلى حد ملاحظة جان جولمييه Jean Gaulmier الذي كتب تصدير الطبعة الحديثة لكتاب رينان، أن رينان قد جاهد لإنقاذ ما كان متبقياً للتراث. وأياً كان الأمر، فقد انشق التراث بفجوة ما فتئت تتسع منذ ذلك الوقت، لا بفضل تقدم علم التفسير فحسب، ولكن أيضاً بفضل المخطوطات المجهولة التي تم العثور عليها أيضاً.

ولم أقم للآن بالتنويه إلى الأهمية الخاصة لبولتمان. فإن كتابه الأساسي بعنوان **تاريخ التراث المتوافق**، يمثل الوقفة الإجبارية لكل من يود القيام بقراءة نقدية للأناجيل. وهو عمل يستحق إشارة خاصة لأنّه لا يمثل العمل الأساسي لمؤلفه وإنما العمل **الأساس في كل علم التفسير**. لقد ولد رودلف بولتمان عام 1884 وتوفي عام 1976، وقد أدخل إلى التحليل اللغوي الإنجيلي ذلك الروح المنهجي الذي لا يمكن إغفاله والذي كان من مفاخر التراث الأكاديمي الألماني. ولا بد من التنويه إلى أن التحليل اللغوي منهج شديد الدقة يسمح بالحكم على التجانس النوعي المميز للنصوص عن طريق دراسة مقارنة لابتكاراتها. وبكلمات أبسط إنه علم يسمح بالقول عما إذا كان هذا النص أو ذاك نصاً كاملاً أم لا لمؤلف ما، فالدراسة المقارنة تسمح بتوضيح المعنى، أي الغرض، وأصل التنويعات. ومن الواضح أن هذا المنهج الذي يستعين بعلم فقه اللغة، وعلم الخط وعلم اللغويات أكثر تعقيداً مما يتضح من هذا الإيجاز. إن هذا المنهج المعروف أكاديمياً تحت اسم نقد الأشكال Formgeschichte،

معروف أكثر تحت مسمى الراديكالية النقدية.

وبولتمان، الذي أمسك بشعلة تراث طويل من المفسرين بدءاً برايما روس المذكور آنفاً ودافيد فريدريك شتراوس، وفيلهلم ڤريد وغيرهم، دون أن نغفل مارتان ديبليوس Martin Dibelius وك. ل. شميدت K.L. Schmidt، اللذين كانا من معاصريه، بل وأنداداً له، لكنه يشمخ أيضاً في التراث البروتستنتي الأصيل لقراءة حرة للأناجيل. وهذه القراءة، باستنادها على كفاءته، قد سمحت له بأن يجزم بأنه لا يوجد شيء يذكر ذا قيمة تاريخية حقة في هذه الأناجيل؛ وأنها لا تمثل علاقات تاريخية، وإنما هي نتاج الجماعات المسيحية الأولى من المعتقدين بها.

وبقول آخر أنه يعد استهتاراً أن نأخذ هذه المقولة أو تلك على أنها «كلام إنجيل»، لأنها ببساطة غير قابلة للتحقق منها. وإن لم يكن لذلك أية أهمية بالنسبة للإيمان، لأن الإيمان لا يتعلق بالنصوص. وعلى الرغم من هذا الافتراض الغريب، إن لم يكن الاستفزازي، فإن بولتمان كان يلتزم بإخلاص بتعاليم يسوع، الذي كان لا يكف عن تأنيب حاملي التراث لقراءة قصيرة النظر للنصوص. ولقد كان بولتمان لارتباطه مباشرة بأفكار لوثر، يتهم ضمناً كل الذين يجلون الأناجيل بشدة بأنهم عبدة نصوص. فهي بالنسبة له مجرد قصص دينية.

وعند ظهور كتاب بولتمان عام 1921 كان التراث من الجمود حتى أنه كان مدوياً كالقنبلة. ولم يكن هناك من يقدر على الشك في حجة ومهارة بولتمان العلمية إلا من تلك الدوائر التي لا تتقبل رائحة البارود. وفي كتابه الذي ضمنه الأبحاث المنشورة فيما بين 1933 و1952 بعنوان **الإيمان والفهم**، لم ينفعل بولتمان (وكانت الطبعة الثانية الموسعة **لتاريخ التراث المتوافق** قد ظهرت قبل ذلك بعدة سنوات، في عام 1934). وقد كتب قائلاً: «لم أشعر قط من قبل أنني غير مرتاح في راديكاليتي النقدية، بل على العكس إنني في غاية الراحة. وعلى النقيض من ذاك أيضاً، كثيراً ما أتصور أن زملائي المحافظين على العهد الجديد يشعرون بعدم الراحة إذ أنني أراهم مهتمين دوماً بأعمال الإنقاذ».

بل وما هو أكثر من ذلك، في عام 1941 أطلق بولتمان حملة يطالب فيها

الكنيسة أن تكشف عن الزيف الذي فرضته في تعاليمها. ولم يكن يقصد بذلك عقائد الحمل الإلهي، والقبر الفارغ، وإنما تناول أيضاً تزييف التجسد والبعث والصعود والعودة الثانية وكلها ناجمة عن جو يوم القيامة اليهودي والغنوصية الهللينية. ففي نظره أن فعلاً واحداً من الله هو الذي كان قادراً على تخليص الإنسان من وجوده «غير الحقيقي». ونحن أبعد ما نكون عن ذلك.

ولما لم يكن إلي من مرشد لأبحاثي، سوى صديق من علماء اللاهوت الجزويت، الذي كان يتابع عملي بضيق وتحفظ، فإنني لم أكتشف بولتمان إلا بعد إبحاري بثلاث سنوات في أبحاث تاريخية بحتة، حول ما كانت عليه فلسطين في القرن الأول، إذ أنني بدأت بدراسة تاريخية عن يسوع. ولا بد من الاعتراف بأن الصدمة كانت عنيفة. فالأناجيل الرسمية كانت تمثل بالفعل أساس أبحاثي فإذا ما كانت هذه الأناجيل تمثل مجرد اختلافات لأوائل معتنقي المسيحية التي ضمت بعض الفقرات الأصلية النادرة، فإن عمّلي أصبح بلا غاية.

وبعد عدة أشهر من العمل، تذكرت نصيحة كنت قد اتبعتها تلقائياً. وكان العالم الأثري اسكندر بيانكوف A. Piankoff مترجم كتاب الموتى لدى المصريين القدماء هو الذي أسداها لي في مطلع حياتي. وكنت قد عبرت له عن قلقي الناجم عن لهجة سقراط الحكيمة في محاورات أفلاطون: «اقرأوا وأعيدوا قراءة النص إلى أن تسمعوا صوتاً يخرج إليكم منه». وبالفعل كنت قد قرأت الأناجيل عدة مرات، وبدأت سماع أصوات احتجاج من تلك الإضافات «المقحمة» المحرفة للنص والتي أشار إليها بولتمان. وبدا لي الانتقال من إنجيل لآخر أشبه ما يكون بالانتقال من موجة إلى أخرى في جهاز المذياع بحثاً عن محطة أخذت محاولات طمسها وتشويهها والتشويش عليها بالبث على موجتها تجعلها أقل وضوحاً أو تفقدها للحظات.

كنت في الموقف الحرج التالي: من ناحية، بدأت تلجمني الريبة الناجمة عن أبحاث بولتمان بالنسبة لكل ما قامت به الجماعة المسيحية الأولى من تحريف وتزييف، ومن ناحية أخرى كنت «مقتنعاً داخلياً بأن «شيئاً ما» في الأناجيل لم يفلح مؤلفوها وناسخوها في طمس معالمها تماماً. وكان عدم شعوري بالراحة يذكرني بما قاله بولتمان عن رفاقه آنفاً «وانشغالهم بعمليات إنقاذ ما يمكن إنقاذه». مع فارق بسيط عن هؤلاء المثقفين، إذ أنني كنت أقوم

بعملية ترميم مثل أولئك الفنانين الحقيقيين الباحثين عن تنظيف الأعمال الفنيُة في محاولة للبحث عن العمل الأصلي من كل ما علق عليه من تراكمات ودهانات.

وكانت راديكالية بولتمان النقدية خلاصى لأنها سمحت باستخلاص التفسير الإنجيلي من ذلك الطوق الحديدي المفروض على القراءة المسطحة السائدة حتى ذلك الوقت والتي كانت تدفع ببعض المفسرين التقليديين إلى لغو لا معقول. وبمواجهة هؤلاء التراثيين بالمتناقضات الصارخة الواردة في النصوص المعتمدة فقد كانوا ينساقون إلى تدريبات نظرية باهرة ولا تقل عما تبرره من تزييف من كثرة ما بها من مغالطات تبريرية. ومن قبيل ذلك وفقاً للأهون، فإن المسيح قد بُعث «كجسد مجيد» يمتلك في آن واحد إمكانيات الجسد المادية وخصائص الجسد اللامادي أي أنه كان بإمكانه في آن واحد أن يأكل الطعام الأرضي ويمر عبر الجدران! ويصعب آنئذٍ أن نقبل أنه قد دحرج الحجر الذي كان يسد فتحة المقبرة طالما كان في وسعه أن يخترقه! الأمر الذي يفسره علماؤنا بأن الحجر المزاح إنما يعني ذلك القبر الخالي بالنسبة للمؤمنين!

إلا أن الراديكالية النقدية تطرح عيب عدم مقدرة إعادة الصفة اللامادية لقطعة فنية، لأن الأناجيل أولاً وأخيراً إنما هي نصوص أدبية. وإذا سمح لي هنا بالمقارنة، سأستعين بالنقد الفني الكلاسيكي (ولا أعني النقد الحديث الذي أصبح غامضاً ولا يفيد إلا في التعبير عن مشاعر الناقد): أن هذا النقد يستعين بمنهجين علم وصف الإيقونات (Iconograqhie) وعلم الإيقونات (Iconologie) وأن وصف الايقونات يتناول الكيان: هذه اللوحة مقاسها كذا، تم تنفيذها وفقاً لأسلوب كذا وتقنية كذا ومدرسة كذا وفي فترة كذا.. أما علم الإيقونات فيتناول: هذه اللوحة تمثل كذا وكذا وتشير إلى الحدث الفلاني، وشخصية كذا ومكان كذا، والألوان المستخدمة فيه تتناول درجات كذا وكذا.. إلا أنه ما من منهج منهما يمكن أن يسمح بالقيمة المتكاملة للوحة لذلك يظل من الصعب معرفة ما إذا كانت لوحة فراجونار نقلاً عن لوحة أخرى أم أن اللوحة الأخرى نقلاً عنها.

أما المنهج العلمي الرائع الذي استعان به بولتمان فإنه لا يعبر إلا عن اللهجة الشاحبة للأناجيل وقيمتها الأدبية. لذلك ليس من الغرابة أن نراه يرفض

معظمها على أنها نصوص غير أصيلة. وهو عيب منهج آخر قام بتطبيقه برنار ديبور B. Dubourg وهو منهج القراءة العددية ـ Préphologique المستوحى من القبالة (Kabbale) ذلك أن تطرف المنهج يؤدي إلى إذابة المشكلة في الحامض التقدمي.

وبخلاف البحث الدقيق الذي ألهمه بولتمان فقد كان لديه غرض لاهوتي يضعه ـ تناقضياً ـ بين أكثر التراثيين جموداً. ذلك أنه قد رفض جزءاً ضخماً من الأناجيل لأنه رآها مليئة بالغنوصية، وهو أمر صحيح. من ثم فإن بولتمان يرفض الغنوصية مثل مجمل التراث الكاثوليكي الصارم. فيسوع في نظره لم يكن غنوصياً لا من قريب ولا من بعيد. فهو بذلك كان ملكياً أكثر من الملك بحيث أنه كاد يرفض النصوص التي تمثل وجود يسوع. الأمر الذي يوضح التناقض الذي وقع فيه.

إن الدراسة التحليلية لمنهج بولتمان تخرج عن نطاق هذا الفصل الذي خصصته لتقديم منابعي، ومن ناحية أخرى سيؤدي ذلك إلى الغوص في اللاهوت ولست كفءاً للتصدي له وليسمح لي أن أثير سبباً آخر لأجله لم يستحوذ عمل بولتمان على تأييدي الكامل، وأقولها بكل تواضع وبكل إعجاب لهذا المؤلف: أنه قد توصل ـ من خلال عطاء منهجه الدقيق، إلى تقديم يسوع لا يعتمد إلا على بعض الشذرات. وأخيراً فإن بولتمان يقدم أيضاً يسوعاً معصوماً، لا يوصف، شبه صوفي، يسوعاً لم يقم وجوده إلا على اليقين الدال على أنه كان موجوداً. وكأنه من كثرة محاولته لكشف الزيف قد انساق في صنع الأساطير هو الآخر.

فإذا ما دفعنا منهج بولتمان إلى أقصاه فإنه يمكننا القول بأنه قد جرد فكرة أن يسوع كان له وجود تاريخي، بما أنه ولد في فترة تاريخية، وفي مقاطعة معينة من مقاطعات أمبراطوريات هذا العالم العديدة، وأنه ـ وهنا المهم ـ قد انتمى إلى ديانة من الديانات العديدة، وهي واحدة من أقدمهم، بالطبع، لكنها ليست الأقدم. كما أن بولتمان قد أغلق الباب أمام أي تطور تاريخي لمعرفة يسوع، ولم يهتم أنه قبل وفاته بربع قرن قد تم العثور على اكتشافين في غاية الأهمية هما: إنجيل توما ومخطوطات البحر الميت. أن صراحته تجعل موقفه أشبه ما يكون بإعلان الدروز الرائع واليائس الذي يقولونه لرفض أي اهتداء: «إن

الريح قد أغلق الباب وأعاد غلق الكتاب وأطفأ الشمعة وكسر القلم وجفت دواة الحبر».

ذلك أن هذين الاكتشافين يناقضان رفض بولتمان لإضفاء أية أطياف غنوصية على تعاليم يسوع. إن كل الملاحظات الواردة في الجزء الأخير من كتابي هذا وكل ذلك النقد يؤكد: أن مخطوطات البحر الميت يشوبها بكل تأكيد أطياف غنوصية وإنجيل توما غنوصي بكله. فلا يوجد ما يسمح بأن نعتقد أن يسوع لم يساهم في هذا التيار الرئيسي والميت تاريخياً. على الأقل أعني يسوعاً تاريخياً، الذي هومن أبحث عنه وأزعم التوصل إلى اختفاء آثاره.

لكن كيف العثور عليها؟

ربما يمتلك الهاوي هنا نوعاً من التفوق على العالِم، على الأقل في مثل هذا المجال: إذا لم يكن مرتبطاً بأي منهج حاد وكان بوسعه التوفيق بين التحليل التاريخي وتحليل الأشكال. أي أنه كان ـ في نهاية المطاف ـ عمل روائي.

إن مقارنة الرواية بالتاريخ تجعلها تبدو كنوع ثانوي. وآنئذٍ يصبح الاختراع ضرورياً لتتمثله الأسطورة، وبما أنه غير قائم على وقائع موثقة فإنه يعتبر مجال تسلية شبه ثانوي. وهو أمر خاطىء، ذلك أن معركة واترلو بنظر فابريس دل دونجو تعيد حقيقة المعركة بشكل أقوى وأعنف من كثير من الأوصاف الدقيقة. والواقع الذي يعيد ستندال بناءه، وكأنه ينظر إليه من ركن منظاره الشهير، فإنه يعكس ذلك المُعاش الذي يصبح التاريخ بدونه هامشياً أو غير واقعي.

بل من السخف ادعاء استبعاد كل من المتخيل وحساسية الصورة التي نكونها عن يسوع. ومن الضروري أن نعيدهما حتى نحارب تلك الصورة التي يفرضها التراث عادة والتي تم تزييفها بحساسيات عصبية في أواخر القرن التاسع عشر. إنها صورة من القوة حتى أن السينما، في جهودها الابتكارية الأكثر وقاحة قد خضعت لها بلا وعي. فلا نجد في هذه الشخصية الباهتة الضحية الرخوة، كما قدمها سكورسيز Scorcese مثلاً ذلك المنتقم الذي يصيح: «أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم. بل انقساماً» (لوقا 12: 51 ـ 53). يا لها من كلمات مدمرة يؤكد مرقس حدتها: «لا تظنوا أني جئت لألقي

سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» (مرقس 10: 34).

الرواية وحدها إذن هي القادرة على الإحلال بدلاً من غياب الثقافة في المُعاش.

لكن، كان لا بد من منهج. وهذا هو ما اتبعته:

• متابعة بولتمان فيما يتعلق بأكثر النصوص الإنجيلية ريبة، من قبيل خاتمة إنجيل مرقس الذي يبدو فيه الزيف واضحاً، في حين أنه الجزء الوحيد في الأناجيل الذي يتحدث عن الصعود.

• بناء شبكة تاريخية يمكن استخدامها كخلفية عامة تسمح بإدخال عناصر إنجيلية أو استبعاد غيرها. فمن أكثر الأمثلة مغزى والتي يبدو أنها أفلتت من إدراك بولتمان والإنجيليين، ذلك التاريخ الذي احتفل فيه يسوع بعيد فصحه، قبل عيد الفصح اليهودي التقليدي. فلو أن مجمل ما تقوله الأناجيل قد تم تلفيقه، وفقاً لبولتمان، لكان هناك تجانس أكبر من رواياتهم ولما أغفل يوحنا مثل هذا الجزء التفصيلي غير المفهوم ظاهرياً. إلا أن أعمال آني جوبير Annie Jaubert أثبتت أن يسوع قد احتفل بالفعل بعيد فصحه يوم الأربعاء وفقاً لتراث الأسينيين الذي كان ظل يهتم به. ولقد ظهرت أبحاث كثيرة بعد بولتمان تحاول أن تعطي مزيداً من التماسك للقصص الإنجيلية أكثر مما يفترضه بولتمان.

• إن هذا المنهج كان يعتمد على التفكير العقلاني اعتماداً على الراديكالية النقدية وعلى التاريخ لتفسير بعض التفصيلات المهملة في الأناجيل. وأطرح هنا مثلاً آخر عن اللامعقولية البالغة في أن يذهب اثنان من أعضاء المحكمة التي أدانت يسوع وحكمت عليه بالموت، وهما يوسف الرامي Joseph d'Arimathie ونيكوميد Nicomède، على حد قول الأناجيل، يطلبان من بيلاطوس Pilate الجسد المصلوب، وذلك على حساب أمنهم الشخصي. إنها نقطة في غاية الغرابة ولا أعتقد أن كاتبي الأناجيل قد أضافوها جزافاً. ذلك أن معناها شديد الأهمية.

ومن خلال أبحاثي لاحظت توافقات وتناقضات ربما قام بولتمان، المتعلق بالتحليل الشكلي للنصوص، بإهمالها عمداً من قبيل ذلك الجزء المحتجز من إنجيل مرقس المذكور آنفاً والذي يمثل توافقاً. أما الأخطاء

اللفظية التي لا يمكن تصورها حول أسماء توما وبارباس فإنها تمثل عبثيات.

لقد ذكرت بولتمان بين مراجعي الأساسية، ويجب أن أذكر مؤلفاً آخر لا بد من أن يتميز خاصة عن البيليوغرافيا الواردة في نهاية هذا الكتاب، وهو البرت شفايتزر A. Schweitzer ومن المهم أن نذكره هنا لأنه كان بمثابة تصويب لبولتمان وتشجيع على مواصلة مهمة النص التاريخي.

شفايتزر، الحاصل على جائزة نوبل، وهو عم - غير متوقع - لسارتر، معروف لدى الجمهور بفضل كتابه عن المصابين بالجذام من الأفارقة في لامباريني، وهو معروف بين الموسيقيين لطبعته النقدية لأعمال جان سباستيان باخ للأرغن التي حققها مع شارل ماري فيدور Charles-Marie Widor. لكنه كان من بين الذين أوضحوا مبكراً وبشكل مُلحّ ما يمكن أن نطلق عليه مشكلة يسوع. فلقد حصل عام 1902 على ثاني شهادة دكتوراه من دكتوراهاته الثلاثة في علم اللاهوت، وهو مازال تحت وقع الصدمات التي ابتعثها رافضو أصالة الأناجيل من أمثال ڤريد، ووايس، وڤون هرناك (لم يكن بولتمان قد نشر بعد كتابه عن التاريخ). يضيف شفايتزر الخاتمة الواضحة لأعمالهم، ويمكن أن نلخصها على النحو التالي: إن الأناجيل لا تعتبر غير أمينة في النص وفي الروح العام فحسب، وإنما كان كل التراث الذي بني عليها مزيفاً منذ البداية. لذلك يشير في مقدمة كتابه **السر التاريخي لحياة يسوع أنها من عمليات تززيف التراث»**.

وبالنسبة لشفايتزر فقد كان هناك يسوع تاريخي، لكن لا ينبغي خلطه بالصورة التي بدأ التراث ينسجها عنه ابتداء من القرن الثاني بفعل قوة العقائد. فهو بالفعل لا علاقة له بتلك الصورة التي أجهضت معنى النبوة. وبالنسبة لشفايتزر أيضاً، فقد جرى يسوع نحو آلامه في احتقار بطولي للحياة. إن نبوته كان يجب أن تظل سرية طوال حياته على الأرض ولا تتحقق إلا في نهاية الزمان مؤدية إلى الكشف العالمي عن طبيعته الإلهية. أي أن آلامه كانت إذن وسيلة للَيّ ذراع الله ليعلن عن نهاية التاريخ. وكان ذلك يعني إيضاحاً رائعاً لنهاية العالم وفقاً للمفهوم اليهودي.

إننا نرى بلا عناء أن شفايتزر يقف عكس بولتمان الذي يرفض الأناجيل لأنه يرى أنها تفيض بآثار نهاية العالم وفقاً للمفهوم اليهودي كما أنها تفيض

بالغنوصية الهللينية، مما يعني ضمناً أن يسوع ليس أخروياً ولا غنوصياً.

ولا يقول شفايتزر بالطبع أن يسوع غنوصي. ولا يبدو أنه قد عمق في كتاباته ذلك المفهوم الغامض لتعبير ابن الإنسان الذي يستخدمه يسوع باستمرار والذي هو نتاج بحث للأخروية اليهودية التي نماها الأسينيين والغنوصية. ويجعل منها بشكل سطحي مجرد «تخريف» أدبي متأخر. إلا أن السيناريو الذي يصفه، أي انتقال الإنسان ـ المسيح السري إلى المسيح المعلن في نهاية الزمان إنما هو أساساً غنوصية يهودية ـ هللينية.

إن قراءة **سر تاريخ حياة المسيح** كان إذن حاسماً بالنسبة لي. وكان شفايتزر، أول مؤلف، وربما كان الوحيد، الذي دافع عما كنت مقتنعاً به داخلياً وهو أنه قد كان هناك يسوع تاريخي وأن الصيغ المتأخرة من الأناجيل، وهي الوحيدة التي لدينا، غير أمينة ومحرفة (باستثناء الإنجيل الرابع ليوحنا كما سنرى) التراث المسيحي الحالي وأنه بالقطع لا يعكس تعاليم يسوع.

والأكثر من ذلك وعلى عكس رينان والذي لم يثر كتابه عن **حياة يسوع** (رداً على سؤال كثيراً ما طرح عليّ) لم يثر في نفسي أي انفعال، في حين أن شفايتزر، كان مليئاً بالحماس الشغوف ببطولة يسوع.

وآخر سبب لانضمامي لأطروحة شفايتزر هو: لقد كان يبرر ويدعم التحفظ التلقائي الذي كنت أشعر به حيال الأناجيل المتوافقة والتي تسرد حياة يسوع العامة ولا تفعل سوى ذلك سطحياً دون فهم كيان رسالته، وأن تفضيلي إنما كان لإنجيل يوحنا الذي يسرد حياة يسوع فعلاً على الرغم **مما به من بتر وتحريف.**

كما أن شفايتزر مثله مثل بولتمان لم يتمكن من أن يضم في بحثه نتائج اكتشافات مخطوطات البحر الميت ولا إنجيل توما. ولو أننا لم نناقض افتراضه، على الأقل من حيث أنها تناقض فكرة يسوع غنوصي، وفقاً لبولتمان، فإنها تفرض إعادة نظر جذرية. إذ أن أخرويات الأسينيين تبدو كأنها المنبع الأصلي لانطلاقة يسوع وآلامه، وإنجيل توما يوضح أن الغنوصية لم تكن معطى يتعين استبعادها بالاستهتار الذي فعله التراث المسيحي.

وكان لا بد إذن من البحث عن عناصر أخرى للقالب الذي تكوّن فيه يسوع. ذاك هو العمل الصبور الذي استغرق مني عشر سنوات. فكان عليّ أن

أقرأ كثيراً، وهنا يجب أن أشير إلى عمل تاريخي رجعت إليه باستمرار وهو: **القدس أيام يسوع** ليواكيم چريميا Joachim Jeremias، الذي يعد بمثابة أغنى وأروع المصادر الدقيقة لمعظم الأعمال التاريخية التي رجعت إليها حول فلسطين في القرن الأول.

ولقد حاولت بعض الأحاديث الصحافية أن تهاجم المصادر غير المعروفة التي استعنت بها في بعض التفاصيل، مثال **عُمر يوسف، والد يسوع** الذي يحدده المصدر الأول لإنجيل يعقوب، وهاجمها بعض مقدمي البرامج السذج بعدم الأمانة وقد انساق خلفهم لفيف من النفوس سيئة النية... محاولين إثبات إنني لأكتب: **الإنسان الذي أصبح الله** قد استعنت بمصادر غامضة مأخوذة عن أبغض الأناجيل المحتجبة ومن نصوص شيطانية، وما إلى ذلك! إن مثل هذا الادعاء تكذبه حقيقة واحدة هي أن 90٪ من مراجع هذا البحث مأخوذة عن الأناجيل المعتمدة. فلا يبقى إلا أن أقول لمدعي الأمانة من التراثيين أنهم لم يقرأوها.

ولا أخفي أنني اهتممت أكثر بإنجيل يوحنا المسمى بالرابع والذي يمثل كما يعرف كافة المفسرين أنه فريد في نوعه على الأقل من حيث وحدة الأسلوب. ولم يهاجمه بولتمان حقيقةً لأنه لا يتعارض مع منهجه مثل الأناجيل المتوافقة وهو بالفعل لا يقارن بها. وحتى الباحث س هـ دود C.H. Dodd الذي أفرد له بحثاً ضخماً بعنوان **التراث التاريخي للإنجيل الرابع**، محاولاً تخطي الشكل السطحي، فإنه لم يستنفد كافة معطياته. لأن إنجيل يوحنا لا يشبه شيئاً ولكنه شديد الثراء.

وهناك العديد من الأسئلة التي تطرح بصدد هذا الإنجيل، الذي كان من المفروض أن يستبعد لما فيه من انعكاسات الغنوصية تلك الهرطقة التي تثير رعب التراث الكاثوليكي. والتساؤل الأول هنا هل الشخص الذي كتبه هو يوحنا الزبيدي، الحواري «المفضل» لدى يسوع (فهكذا يطلق على نفسه بلا تواضع)؟ ولا يمكن أن يكون هناك شك أكثر من هذا: لأن إيريني، أسقف ليون، المولود في أزمير، والذي عرف بوليكارب الذي كان أسقفا لنفس مدينة أزمير بخلاف أنه يوجد ضمن الآباء الرسوليين، إيريني هذا يقول عن بوليكارب أن مؤلف الإنجيل المسند إلى «يوحنا» قد عاش أيام تراجان أي فيما بين عام 90 و117.

وذلك وحده يستبعد يوحنا الزبيدي على أنه كاتب هذا الإنجيل: لأنه عندما قام يسوع بتجنيده هو وأخيه يعقوب، في بداية تبشيره العام، حوالى عام 27 كان على الأقل في الخامس عشر من عمره. وأيام تراجان لا بد وأن عمره كان فيما بين 78 و115 سنة. وليس ذلك بمحال تماماً، مع فارق بسيط هو أنه عاش أيام حكم فلان» لا يعني «مات أيام حكم فلان»، وإن عُمر 150 سنة ليس بالعمر الهيّن. والأكثر من ذلك أن بابياس، وهو أب رسولي آخر وقد مات شهيداً مع بوليكارب حوالى عام 165 يقول (راجع إنجيل يوحنا بقلم فريدريك فون هوجل F. Von Hügel في **الموسوعة البريطانية** طبعة 1962) أن يوحنا الزبيدي قد قتله اليهود قبل عام 70 أي قبل حصار القدس. فلا داعي إذن وأياً كان الشك الذي يثيره أوسيبيوس حول الامكانيات الثقافية لبابياس، مع كونه أب رسولي، أن يفترض امتداد غير معقول ليوحنا. والأمر أبسط من ذلك بكثير لو أننا أقررنا بأن إنجيل يوحنا، مثله مثل بقية الأناجيل المتوافقة، قد كتبه شخص آخر.

وهنا تكمن مصاعب جمة لم تحلها الدراسات العديدة حول هذا الموضوع. وأولى هذه المصاعب هي وحدة الأسلوب الواضحة ووحدة الصياغة لهذا الإنجيل الرابع بالإضافة إلى تميزه العميق الذي يؤكد أن الذي كتبه شخص واحد أو على الأكثر شخصين شديدي التقارب الثقافي. والصعوبة الثانية هي ذلك الشبه الملفت للنظر بينه وبين الرسائل الأربع الأولى لسفر الرؤية، بجانب ذلك التشابه في الأسلوب للرسالة الأولى المزعومة والإنجيل الرابع، وكلها نصوص مسندة إلى مجهول اسمه يوحنا. ومن هذه المصاعب التي أكدها الأب لوازي Loizy ببراعة في كتابه المعنون **الإنجيل الرابع** (الطبعة الثانية باريس 1923) نخرج بأنه كان هناك مؤلف واحد لهذه النصوص اسمه يوحنا، سواء أكان يوحنا الزبيدي أم غيره. أما عن الصعوبة الثالثة فليغفر لي أن أذكرها بصفة خاصة لأنني لم ألحظ أية إشارة إليها في أية دراسة من هذه الدراسات وهي ملاحظة أدبية: فبغض الطرف عن الصحة التاريخية لهذا الإنجيل فإنه مليء بصوت رجل واحد فقط وليس بأصوات شرذمة من الكتّاب، شخص واحد فحسب يعرف مغامرة الإنسان الذي اسمه يسوع، وقد فكر في نصه طويلاً وأضفى إليه معنى مخالفاً تماماً عما في الأناجيل المتوافقة الأخرى، إنه معنى

صوتي على حافة الغنوصية؛ أي على عكس نظرية علم اللاهوت الخاصة بالتجسد: ففي الغنوصية، وهي حركة سنتناولها بالتفصيل عند الحديث عن إنجيل توما، فلا يُوجد ـ باختصار ـ نزولاً للإله في الإنسان، وإنما صعوداً للإنسان إلى الإله. وأن يكون «يوحنا» متأثراً بالغنوصية فهو أمر لا شك فيه، بل هو يقولها دفعة واحدة في الآيات من 1 ـ 5 وخاصة في الآية الخامسة: «والنور يُضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (1: 5). وتلك هي عقيدة الغنوصية، الثنائية، التي تميز بوضوح بين الروح والمادة والتي ستسهم ثنائيتها في النصف الثاني من القرن الثالث، في مولد الهرطقة المانيّة. وبالفعل، وكما لاحظه الأب لوازي المذكور آنفاً، فإن الكنيسة لم تتخذ أبداً موقفاً فيما يتعلق بالإنجيل الرابع. إن الصرامة كانت تفترض منعه، ولكن قوة إلهامه تحول دون ذلك. ونشير بهذه المناسبة بأن الأب لوازي قد فصل عن الجماعة من أجل إشارته هذه!.

إن أكثر ما يلفت النظر في الإنجيل الرابع إنما هو وحدة الأسلوب، ولا يهتم «يوحنا» بالاعتبارات التاريخية المزعومة التي من شأنها أن تدعم مصداقية ما يقول. فهو يبدأ باختصار جريء من سفر التكوين. ومن الآية 19 يتناول نصه عبر شهادة يوحنا المعمدان. وذلك إلى جانب جسارات أخرى إذ ألغى التشبيهات ولم يذكر سوى ثلاثة أمثال فحسب. ومن الغريب أنه طوال إنجيله لا يضع نفسه في الصدارة أبداً في حين أنه كان الحواري المفضل لدى يسوع. ومع ذلك، ففي الأسفار من 18 إلى 20، تلك التي تقص عملية القبض على يسوع وصلبه وبعثه يقدم لنا حشداً من التفاصيل التي تم تحليلها عبر هوامش هذا البحث. أن «يوحنا» يعبّر وكأنه يمتلك نصاً من الدرجة الأولى، أي شهادة إنسان مباشر، إذ يعطينا مفتاح ذلك في الآية التالية: «والذي عاين شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (19: 35). ذلك هو الدليل القاطع، والذي تم إهماله بغرابة. على أن «يوحنا» ليس هو يوحنا الزبيدي: فهو لا يقول أنا.

فمن كان إذن؟ يؤكد ايريني أن هذا الشخص قد عاش أيام تراجان ويقدم أوسيبيوس هذا المعطى الحيوي: بأن بابياس قد عرف أيام كان في هيرا بوليس في سوريا شخصين باسم يوحنا وليس واحداً (هـ. J. هولتزمان: H.J. Holtzman: handkommentar 1893، وارايت وماكلين W. Wright & N. Mclean: التاريخ

الكنس لأوسيبيوس في سوريا طبعة كامبريدج عام 1898).

ومن الواضح إذن أن «يوحنا» الذي يقال عنه الإنجيلي قد قابل يوحنا الزبيدي في هيرا بوليس قبل عام 70 وجمع منه نسخته الشخصية للأحداث وفسرها وفقاً لهواه ووفقاً لثقافته. وبالنسبة للأب لوازي وكثيرين غيره ـ إذ أن هناك إجماعاً على هذه النقطة ـ فإنه كان يهودياً مثقفاً عاش في آسيا قبل الرومان مما يؤكد قول أوسيبيوس الذي يرى بأن الإنجيل الرابع قد «نشر» في أفسوس (المقصود بالنشر هنا بالطبع النص الذي يقدم للناسخين). ترى من أين كان له بهذه المعرفة المتعلقة بفلسطين، وخاصة بتخوم الأردن والقدس؟ ولا يرجع ذلك إلا لزيارة متعمقة لهذه الأماكن، على حد قول هوجل Hugel.

وهذا الافتراض الذي يرى معه أن الإنجيل الرابع عبارة عن نسخ الأقوال الشفهية التي أدلى بها يوحنا الزبيدي إلى «يوحنا» الإنجيلي، الأصغر منه سناً بشكل واضح، تدعمه المسحة الغنوصية لهذا الإنجيل. وبالفعل، فإن الغنوصية ظهرت في مطلع القرن الأول في آسيا الصغرى. والسؤال الذي يُطرح عندئذٍ هو: هل كانت الغنوصية تتفق ومعتقدات يوحنا الزبيدي؟ لا بد من بحث آخر ومن كفاءات أخرى تتجاوز مقدرتي لتناول الموضوع بشيء من الجدية ـ بعد مناقشات ابيفانوس حول هذا الموضوع، في القرن الرابع، مع مسيحيي عصره. فإذا ما كانت غنوصية كاتب الإنجيل تتفق وغنوصية يوحنا الزبيدي فيجب أن نفترض أن عدداً كبيراً من الحواريين قد أدرك تعاليم يسوع على أنها غنوصية قبل عصر هذا التيار. وهو أمر شديد الاحتمال كما سأوضحه فيما بعد. ويظل بعد ذلك أن صياغة أقوال يسوع كما يعبّر عنها «يوحنا» لا تتفق مطلقاً مع صياغة نفس الأقوال ليسوع كما نراها في الأناجيل المتوافقة. كما أن «يوحنا» يسند إلى يسوع أقوالاً لا نجدها في هذه الأناجيل المتوافقة. وعلى أية حال فإن الإنجيل الرابع هو الوحيد في هذه الأناجيل المعتمدة والذي سمح بمثل هذا التفسير الشديد الوضوح.

إن موقفي ككاتب مؤرخ للسيرة كان كالتالي: من ناحية، كان أمامي ثلاثة أناجيل متوافقة، تعتمد على خلاص المخطئين بفضل التضحية القصوى ليسوع وكلها غارقة في الشعور بالألفية (وهي نهاية العالم الوشيكة)؛ ومن ناحية

أخرى، كان أمامي مستنداً فريداً مستوحى بشعور الكشف ومتصوف لدرجة تلامس الغنوصية. ومن جهة ثالثة فإن الأناجيل المتوافقة كانت تعكس التفسير اليهودي ـ المسيحي. كما هو متواصل حتى يومنا هذا، ومن زاوية أخرى، فإن الإنجيل الرابع يفتح الباب إلى تفسير يميل للشرق الأقصى لمغامرة يسوع. أو بقول آخر: من جهة كانت أمامي نصوص شديدة التحريف في نسخها وبمقتضاها يظل هناك استحالة لإعادة بناء التاريخ ما لم تتم اكتشافات أوسع؛ ومن جهة أخرى كان أمامي نص من شخص واحد، أقل تزمتاً بكثير بل وفي بعض الأحيان يمثل حرجاً شديداً بالنسبة للتراث اللاهوتي. ومثلما كان سيفعل أي مؤرخ، فقد أوليت تفصيلاً سرياً لوثيقة أكثر قرباً مما يقال إنها من «الصياغة الأولى» بقيت مواجهة شعوري بأن يوحنا كان أقرب إلى تعاليم يسوع.

إن الأمر الذي يدعم شعوري بأن «يوحنا» لم يتصرف كثيراً في الأحاديث التي جمعها من أقوال يوحنا الزبيدي هو ذلك الإنجيل الخامس المعروف باسم إنجيل توما. ولقد قام هنري شارل بويخH. Ch. Puech بعمل دراسة قيّمة حول هذا الإنجيل في الجزء الثاني من كتابه المعنون: **بحثاً عن المعرفة** (دار نشر جاليمار 1978). وأدعو القارىء الذي يود تعميق معرفته بهذا الإنجيل الذي لا يعرفه الكثيرون أن يطلع على هذا البحث. وأكتفي هنا بالاشارة إلى واقعتين بارزتين: أن العثور على ثلاثة عشر مجلداً أو بقايا مجلد لهذا الإنجيل عام 1945 في نجع حمادى، بمصر، مكتوبة باللغة القبطية الصعيدية في بداية القرن الثالث، تمثل مجموعة لأقوال يسوع هي أكبر ما نمتلك من وثائق، وكلها شديدة الغنوصية. ووفقاً لبويخ يبدو أنها من أصل سوري أو بالتحديد من إديسة وهي حالياً مدينة أورفة بتركيا قرب الحدود السورية.

إن بويخ يرفض بحذر أية قيمة دينية لإنجيل توما الذي يأبى حتى أن يطلق عليه لفظة الإنجيل الخامس لأنه لا يرى فيه سوى ترجمة من اليونانية إلى الصعيدية (الجزء الثاني صفحات 72 و73) وبه آثار آرامية. أي أن النص قد صيغ أولاً بالآرامية في تاريخ سابق مثلما حدث مع الأناجيل المعتمدة أو على الأقل الأناجيل المتوافقة. إن هذه النقطة مهمة إذ أنها تكشف عن صلة ذات قربى مع هذه الأناجيل. وهناك نقطة أخرى ذات أهمية هي تلك الصلة الخاصة بين توما ومدينة أديسة: فلقد أرسل توما أحد المبشرين اسمه أدّاي Addai وهو ما تقطع

بأنه كان تاسيان(*) Tatien، تلك الشخصية الفريدة، مبشر وهرطقي معاً، ومن بين ألقابه الأخرى أنه كان استاذاً لأحد آباء الكنيسة، هوكليمنس السكندرى وكان أبجار Abgar ملك أديسة وكل سكان المدينة في المسيحية. وكان تاسيان مزوداً بنص مجمل للأناجيل الأربعة هو «الدياتيسيرون». وبالفعل، من المحال أن يكون توما قد عرف تاسيان. ذلك أن لويس ليلوار L. Leloir، من بين العديد من الباحثين، (وقد قام بترجمة **تعليق الإنجيل المتوافق أو الدياتيسيرون لأفريم دي نزيل**، طبعة دوسير باريس 1966)، يرى أن تاسيان قد ولد حوالى عام .120 وفي عام 120 كان توما قد توفي، إلا إذا ما كان قد بلغ المائة وخمسون عاماً عند مولد تاسيان!

إن تاسيان إذن قد كتب «الدياتيسيرون» بدون سلطة توما المباشرة. ونوضح أنه يوجد منها ست نسخ إن لم تكن سبع، واحدة بالسريانية، والتي يشتق منها نص بالعربية، وباللاتينية، وبالهولندية، وبالفارسية، والتوسكانية، والفينيقية ودراسة هذه الترجمات قد استوقفت كفاءات عديدة غيري. وأدعو القارىء للببليوجرافيا التي أعدها الأب ليلوار في عمله المذكور آنفاً. والمهم في هذا الموضوع هو السؤال التالي: هل تسمح النسخة الأولى من «الدياتيسيرون» بأن نكوّن فكر عما كانت عليه النسخة الأولى لإنجيل توما؟ وخاصة أن نعرف إذا ما كانت الغنوصية المؤكدة لهذا الإنجيل أصلية أم لا؟

بلا شك أن علماء اللغة والمفسرين يأنفون بشدة من مثل هذه التأملات لكن ذلك لا يمنع من أن هناك واقعتين تسمحان بافتراض قرابة مباشرة وأمينة بين «الدياتيسيرون» العربي الذي هو غنوصي وإنجيل توما. أن الواقعة الأولى قد أوردها التحليل الذي قام به متزجر، المذكور آنفاً، والذي أوضح وجود ستين توافقاً من بين مائة وخمسين نقطة بين «الدياتيسيرون» وإنجيل توما. أي أن تاسيان قد أخذ ستين نقطة من هذا الإنجيل. أما الواقعة الثانية فتتعلق بقدم إنجيل توما، والذي يشير إلىَ ذلك شكله الآرامي الذي هو ـ كما أوضحت آنفاً ـ يبدو بوضوح عبر النسخة القبطية. وبالفعل، لقد اختفت النسخ الآرامية

(*) مبشر مسيحي من أصل سوري (120 ـ 173) وهو معروف بصفه خاصة بمحاولته للتوفيق بين الأناجيل الأربعة في إنجيل واحد هو «الدياتيسّيرون»

للأناجيل في وقت مبكر جداً من النصوص المسيحية القديمة، لأن اللغة الآرامية لم تكن مستخدمة أساساً إلا في فلسطين. ففي الشمال كانوا يتحدثون السريانية والفارسية والآرامية، أما في الجنوب فكانت اللغة هي العربية، أما في الغرب ومجمل حوض البحر الأبيض المتوسط فقد كانت اللغة اليونانية.

ترى ما الذي نخرج به من كل هذا؟ أنه كانت هناك بكل تأكيد نسخة آرامية من إنجيل توما قد صيغت مبكراً في النصف الثاني من القرن وربما قبل ذلك، وافتراضاً فيما بين عامي 40 و60 وسرعان ما ترجمت إلى اليونانية ومنها إلى القبطية من أجل سكان مصر العليا وأثيوبيا. وأنه وفقاً لكافة الاحتمالات فإن النسخة اليونانية هي التي استعان بها تاسيان. أو بقول أبسط، لا توجد أدلة مطلقة على أن غنوصية إنجيل توما المنعكسة بوضوح في «الدياتيسيرون» العربي، لم تكن من صنع الغنوصيين في إديسة وأنه ليس من العبث أن نفترض، على العكس من ذلك، أن هذه الغنوصية كانت موجودة في النسخة الأولى لإنجيل توما. إنه لا يوجد ما هو أكثر كثافة من عماء المفسرين، إلا أن المنطق يسمح بأن نعتقد الآتي: إذا ما كان مسيحيو إديسة ومنهم تاسيان المتشدد قد اختاروا إنجيل توما ليشكلوا الدياتيسيرون بناءً عليه، فذلك لأنه قد كان بالفعل غنوصيا. ولو لم يكن هذا الإنجيل متفقاً ومعتقداتهم لانفضوا - إن أمكنني القول - عن إنجيل «يوحنا» الذي يقدم لهم مجالاً يتفق وميولهم.

أي أنه من بين الأناجيل الخمسة هناك اثنان يرجحان تفسيراً غنوصيا لتعاليم يسوع وهما إنجيل «يوحنا» وإنجيل توما.

إن الشخص العادي قد يتساءل وما أهمية هذه النقطة؟ إنها جد شاسعة. والإسهاب النسبي للمناقشات اللاهوتية لما أقوله يوضح ذلك. إذ أن الفكر الغنوصي باختصار يعتبر أن هناك إلهين أو مبدأ مزدوجاً للخير والشر من جهة، والخالق، من جهة أخرى، إنما هو أعلى من الله. ومملكة الثاني تغطي مملكة الأول. وهي المشكلة التي استبعدها اللاهوت الأرثوذكسي، أولاً من سينودس إلى سنيدوس ثم في مجمع نيقية الأول، وفي مجمع القسطنطينية الأول، وأخيراً في مجمعي نيقية الثاني وفي خلقيدونيا. فإذا ما كان الأمر يتعين بتصور افتراض وجود خالق أعلى من الله، فذلك يعني أن الله سيحط من شأنه إلى درجة التناقض أي الشيطان. وكما كان هناك إمكانية تصور تجسد إلهي في شخص

يسوع الإنسان. وبذلك لما أصبح يسوع المسيح الذي يحثه المولى وإنما مجرد شخص درس الأسرار وأتى ليرشد الإنسانية تجاه الكشف، مثله مثل أبوللونيوس التياني على سبيل المثال. وبذلك فإن هذا الفرع من اليهودية التي هي المسيحية الوليدة كان من الممكن أن تختلط بالهندوسية والبوذية. لذلك جاهدت الكنيسة منذ القرن الثاني في جلفطة الشقوق التي كان يمكن من خلالها لرياح آسيوية عاتية أن تهدد بخلع البنيان الهش لتفسيرها ليسوع. إن «الدياتيسيرون» بالفعل كان الكتاب الإنجيلي الذي سبب للكنيسة أكثر المصاعب لا لأنه لم يكن مقروءاً أثناء القداس ومن أتباع الكنيسة السريانية وفي الشرق حتى القرن الخامس، أي بعد أن تم إعلان هرطقة تاسيان بكثير، وإنما لتأثيره على الكنيسة الغربية بعد أن تم فرض الأناجيل المعتمدة على المسيحيين (**الموسوعة البريطانية**، طبعة 1964). لكن «الدياتيسيرون» لم يكن الإنجيل الوحيد الذي يختلف مع الأناجيل المعتمدة، فهناك كماً حقيقياً من الأناجيل المتداولة في مجمع العالم المسيحي. ونذكر من أقدمها إنجيل العبريين، والإبيونيت، والمصريين، وإنجيل فيليب، ومتّى، وبطرس، وكذلك خطب بطرس؛ وإنجيل برنابا.. وهناك حوار نيسفور ومختصر أطناز المزعوم.. وقد ضاع الكثير غيرها ولا نعرفها إلا من تلك القائمة التي أفردها أبيفانوس، إلا أننا نجد بين الأناجيل «التوماسية» ترجمات أو صيغ مختلفة مثل تلك الأجزاء الواردة من الفيوم، ومخطوط أوكسيرينخوس، بجانب حواشي من قبيل عقائد صوفيا، وقد عرف إنجيل توما بالفعل حماس الناسخين. وبالاضافة إلى ذلك فقد كانت هناك أناجيل لطفولة يسوع، مثل الإنجيل الأول ليعقوب (يعقوب الأصغر بلا شك)، وإنجيل مولد مريم، والإنجيل العربي للطفولة، والأرمني، وتاريخ يوسف النجار، بالاضافة إلى خطب ايڤوديوس، وسريل القدسي، ودمتريوس الأنطاكي، وسريل السكندري، وأناجيل الآلام، ومنها جزء من إنجيل بطرس، وإنجيل نيكوميد، الذي يقال عنه أيضاً أفعال بيلاطوس، وكمية هائلة من تلك الأجزاء والوثائق مثل خطاب بيلاطوس إلى قيريوس وتاريخ يوسف الرامي، وحكايات مليطون، وكمية من أفعال الرسل يوحنا وبولس وبطرس وأندريه وتوما وفيليب وماتياس وبرنابا وتدّي وكم من الرسائل وأسفار الرؤيا... ولمعرفة كم هذه الوثائق بالتفصيل لا بد من الرجوع إلى العمل الضخم لمونتاج رود جيمس،

Montague Rhode James؛ **العهد الجديد المستبعد.**

ان المؤمن المعاصر الذي يتناول لأول مرة هذا الكم من الوثائق التي يجهلها الجمهور العريض، لا بد وأن يصاب بالدوار خاصة وأن بعضها مثل المخطوط المطبوع عام 1935 والذي أصدره بيل وسكيت Bell & Skeat، وهو جزء من إنجيل مجهول يرجع إلى النصف الأول من القرن الثاني يحتوي على كلمات ليسوع كانت مجهولة حتى ذلك الحين، وهذه الكلمات تثير القلق بصفة خاصة. إن مثل هذا المؤمن لا بد وأن يتساءل: «أيها الجيد؟ لماذا هي محتجبة؟».

وفي واقع الأمر، فإننا إذا ما تتبعنا مسيرة التاريخ، فمن الواضح أن كل هذه الأناجيل وثائق أصيلة مثلها مثل الأناجيل المتوافقة، فقد تمت كتابتها في فترات مختلفة من القرن الأولى للكنيسة المسيحية، على أساس روايات شفهية أو تراثية، مثل **الأوديسا** مثلا إنها بالطبع ليست نصوصاً تاريخية، كما أن الأناجيل المتوافقة كما رأينا ليست تاريخية هي الأخرى ـ إذا ما استثنينا إنجيل «يوحنا». إن المفهوم العصري للتاريخ، أي تسجيل الوقائع المحددة المحققة لم يكن معروفاً آنذاك، والذين اقتربوا إلى حد ما من هذا المفهوم في المؤلفين القدامى هم تاسيت في **الحوليات**، ويوليوس قيصر في **تعليقات إلى حرب الغاليين**، وفلافيوس جوزيف في **حرب اليهود**، الذين عرفوها أو الذين لم يعرفوها، لم يكن لديهم بالقطع أي اهتمام بتسجيل الأحداث التاريخية، وإنما فقط «بالنبأ السعيد» لإڤانجلوس. إن النصوص التي يطلقون عليها سرية تلك التي يرفضونها إنما تعكس إلى جانب الوقائع الواردة بها والتي عادة ما تم تحريفها بالاستبعاد أو تحسينها بهمة، تلك الحالة الذهنية لكاتبيها. وهي نصوص مجهولة لأن الكنيسة قد ألقت بهم بعيداً.

وهذا الاستبعاد كان يعتمد نظرياً على ثلاثة معايير: عقائدي، واستخدامي، وأصل رسولي. ومن هذه المعايير الثلاثة التي كان يجب أن تتوافر في النص ليعلن عنه أنه معترف به، ذلك الإنجيل الرابع هو الوحيد الذي يمثل طابعاً تاريخياً بما أن التحديد ينص بالنسبة للاعتراف، بأن النص يجب أن يكون قد وصل إلينا بواسطة الرسل. وقد كان ذلك من الضروري وأن لم يكن كافياً، لأن النص إذا كان رسولياً، ولا يتفق مع شرائع الكنيسة، فقد كان يستبعد هو

الآخر أيضاً مثلما حدث مع إنجيل توما و«الدياتيسيزون» الناجم عنه جزئياً.

ومن البديهي أن موقف الكهيسة المتحيز لا يمكن أن يفيد أو يرشد المؤرخ بأي حال. وكل فرد عليه أن يفترض أن الكنيسة قد استبعدت أعمالاً تتفق والطابع الرسولي لكنها لا تتفق والمعياز العقائدي. وقد تم ذلك بسهولة خاصة وأن علم اللغة لم يكن موجوداً آنذاك وأن آباء الكنيسة كانوا يتخذون القرارات التي تبدو لهم أنها تتفق ومصالح جماعاتهم دون مراعاة دقة علمية.

ولم يكن من السهل أن يحرم ببساطة بعض تلك الأناجيل. ففي أواخر القرن الثاني مثلاً، كان إيريني أسقف مدينة ليون، المذكور آنفاً، وهو من مدينة أزمير أصلاً وواحد من أكبر علماء اللاهوت في الكنيسة الأولية، يستخدم الأناجيل الأربعة المعتمدة الحالية، ربما لأنها كانت تمثل أقل قدر من المشاكل العقائدية، بالاضافة إلى ثلاثة عشر خطاباً لبولس وبطرس ويوحنا، والرؤيا، و«الراعي هرماس»؛ وفي القرن الخامس، عقب قرار البابا جيلاسيوس الأول، تم استبعاد «الراعي هرماس» مع الأناجيل المستبعدة الأخرى. ونجد مثالاً آخر في القرن الرابع، فقد كان أسيبيوس، المذكور آنفاً، يعترف بكتابات يعقوب التي كان يتقبلها الأتباع، وذلك إلى جانب نصوص أخرى من بينها إنجيل العبرانيين، وفي القرن الخامس استبعد قرار جيلاسيوس كل هذه الأعمال أيضاً كما ضم إليها النصوص المستبعدة. وفي القرن الرابع أيضاً كان الدستور السينوي Codex Sinaiticus يعترف برسائل برنابا (وكذلك أيضاً بالراعي هرماس) الذي تم استبعاده طبعاً مع بقية الأناجيل المستبعدة. ومثلما أوضحته آنفاً، لم تكن المهارات اللغوية أو الكتابية هي التي تستوجب الاستبعاد. لذلك نرى في القرن الثامن أن الشريعة الموراتورية(*) ينص على أن سفر الرؤيا في إنجيل بطرس صالحة للقراءة على الرغم من أصلها المشكوك فيه، في حين أنها كانت مستبعدة منذ ثلاثة قرون بموجب قرار جيلاسيوس.

ويمكن مضاعفة هذه الأمثلة طوال عدة صفحات، لكنني أعتقد أنني

(*) ترجع إلى نهاية القرن الثاني وهي كشف رسمي يتضمن قائمة النصوص المعقدة الأولى، وسُميت كذلك نسبة إلى موراتوري، أمين المكتبة الذي عثر عليها في القرن الثامن عشر (المترجمة).

وصلت لهدفي وهو توضيح أن الأجماع لم يكن واحداً لمدة قرون بين علماء اللاهوت فيما يتعلق بالنصوص الإنجيلية. وبصفتي مسيحياً، فإنني أتساءل - عرضاً - ألم يكن من الأصوب اتباع سياسة كليمنتس السكندري، الذي لم يكن يعبأ كثيراً بالشرعية ولا يهتم إلا بالمضمون ويقوم بتعليم نصوص قد تم استبعادها وذلك مثل إنجيل العبرانيين وإنجيل المصريين، وإنجيل الرسل الإثني عشر وإنجيل برنابا وكثير غيرها؟! وأياً كان الأمر فلم يكن كليمنتس السكندري في مكانة سيئة آنذاك لكي يحكم على أصالة النص، وقد انضم إليه لوثر فيما بعد، معترضاً على التمييز الشرائعي، معلناً أن المهم هو ما يؤدي إلى يسوع، فليسمح لي أن أشك - دون اعتبار ذلك وقاحة مني - إن المسيحيين الذين كان كل من كليمنتس السكندري وإيريني يقرآن عليهم نصوصاً قد تم اليوم استبعادها قد ضُللوا أو زج بهم في الانقسام والهرطقة...

وأود أن أذكر ببساطة بهذا الصدد أن كلمة «مختلف» والتي تأخذ اليوم معنى «مزيف» كانت تعني فيما مضى شيئاً آخر تماماً: فالنص المختلف كان يعني أنه ثمين ولا يمكن تركه بين كافة الأيدي (على حد قول م. ر. جيمس المذكور آنفاً): «وكان يجب أن يحفظ لعارفي الأسرار، وحتى تلك الطائفة المحدودة من المؤمنين». وبالفعل كانت هناك نصوص تقرأ علناً في الكنائس وفي القداسات، قد أصبحت فجأة وخاصة بعد قرارات جيلاسيوس، نصوصاً سرية. وقد استمر بعض الرهبان المنشقين في نسخها لمدة قرون، وبذلك أصبح لدينا اليوم نسخ قبطية وسلافية وعربية وفارسية من النصوص السرية المستبعدة.

كما أحب أن أوضح أيضاً أن النصوص التي يقترحونها (أو يفرضونها؟) على أنها **بلا تغيير** لنصوص الأناجيل هي نصوص تستوجب المناقشة ومشكوك فيها. ولا نذكر سوى برديات النصوص الإنجيلية التي عثر عليها في مصر، إذ أن **الموسوعة البريطانية** (طبعة 1978) قامت بإحصاء ما لا يقل عن مائة وخمسين ألف تحريف. فمن ذا الذي يمكنه تحديد النص المباح؟...

وعند هذه النقطة من هذا العرض لا بد للقارىء العام أن يتساءل ولماذا اتخذ البابا جيلاسيوس الأول مثل هذا القرار السلطوي ومصادرة عشرات النصوص التي يبجلها الاتباع؟ ذلك لأن هذا البابا العنيف قد أعيته احتجاجات الكنيسة الشرقية وخاصة هرطقة أكاس الناجمة عن رفض روما قبول صيغة السلام

التي كان الأمبراطور زينون البيزنطي قد عرضها على المونوفيزيقيين. لقد كان هناك، في العالم المسيحي الشاب، ما فيه الكفاية من الثورات العقائدية دون أن نقول شيئاً عن المجال الروماني، لتأتي كتابات إنجيلية غير متفقة يقوم كل فرد بتفسيرها وفقاً لهواه بما في ذلك الأساقفة. وقد حل جيلاسيوس مشكلة النصوص لتثبيت الشرائع وتدعيم سلطة البابوية.

إن المسيحي المعاصر ينسى ذلك، أو لا يقره أو يجهله بسهولة؛ إلا أن حقيقة الأمر هي: أن الاختلافات حول النقاط العقائدية في القرون الأولى كانت دائماً ما تكتسي أهمية سياسية. وحتى في يومنا هذا فإن الخلافات حول تفسير ماركس في البلدان الشرقية لا تتسم بأصداء المعارك التي دارت حول تحديد طبيعة المسيح في الكنيسة أو على الأقل في الكنائس الأولى. فعندما كان سفريوس أسقف انطاكية يساند فكرة طبيعتين للمسيح وإن رأى أن جسده قابل للتحلل كما أن ذكاءه لم يكن مطلقاً، فإن جوليان أسقف هاليكرناس كان يساند عكس ذلك وأن الطبيعتين كانتا متحدتين إلى **اللوغوس** بحيث لا تصبحان مشاركتان في الجوهر مع إنسانية الشخص نفسه أي أن جسد يسوع لم يكن قابلاً للتحلل وأن ذكاءه كان مطلقاً، لقد كانت هذه المناقشات تثير المظاهرات في الشوارع. وقد اندلعت حرب أهلية في القدس والاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية. وكانت الأمبراطورية الرومانية الشرقية الممتدة، من طيسفون إلى أعمدة هرقل، ترتجف على قواعدها. كما أن العواقب المالية والاقتصادية كانت شاسعة عندما يذهب بقية الأمراء والشعب إلى هذه الكنيسة بدلاً من تلك.. أما التميزات اللاهوتية التي لا نهاية لها وكانت تطرحها المجامع، والتي قد تبدو لنا «بيزنطية» فقد كانت تتضمن بداخلها عواقب سياسية مهولة. فالصيغ المختلفة لحياة وكلمات يهودي اسمه يسوع، كان قد عاش في القرن الأول وعمل على تجديد العقيدة اليهودية، قد تحولت على مدى خمسة قرون لتصبح أعمالاً ذات أهمية سياسية. ونتيجة لذلك فإن العلاقات بين نسق المرجع الميتافيزيقي والنسق السياسي أكثر قرباً وتداخلاً مما تحاول بعض العقول المعاصرة أن تفصح عنه.

وعلى أي حال فإن الدراسة التاريخية للنصوص الإنجيلية لا علاقة لها بالاهتمامات السياسية للكنيسة البدائية ولا بالتراث الذي قام بتثبيت الشرائع.

ولقد كنت عازماً على استخدام أي جزء يناسبني من الأناجيل المستبعدة بغية إعادة صياغة حياة يسوع. وهنا يكمن التحفظ الثالث من تلك التحفظات التي ذكرتها في مطلع هذا الفصل.

وهنا أيضاً كان يجب أن أختار..

فمن بين أناجيل الطفولة استعنت أولاً بإنجيل يعقوب أو بالإنجيل الأول وفقاً للاسم الذي أطلقه عليه مقدمه غليوم دي بوستل في القرن السادس عشر. وهو يتعلق بنص كان شديد التداول ويرجع إلى القرن الثاني. واود بهذه المناسبة أن أحدد وجهة نظري حول مدى هذا القِدَم إن الإنجيل كان يعني نسخ وتدوين تراث شعبي ولم يكن من الممكن أن يكتب خلال بضعة أيام ولا بضعة أشهر أو سنوات، وإذا ما كانت بعض الأجزاء (الأول والثاني) متداولة حوالي عام 130 فذلك يعني أن بقية النصوص ترجع إلى أواخر القرن الأول وتكمن أهميته في الإصحاح الثامن، ومن الإصحاح الثاني إلى العشرين فهو يحتوي على بذخ من المعلومات حول ظروف زواج يوسف (النجار) من مريم وكلها تفاصيل لا توجد في أي نص إنجيلي آخر. وهي تفاصيل تسترعي النظر لواقعيتها بين مجمل نصوص تميل للسهولة في الرسوليات الخيالية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المعلومات تناقض بعض تلك التفاصيل الواردة في الأناجيل المعتمدة خاصة فيما يتعلق بأشقاء يسوع. ونجد العديد منها في إنجيل متّى إلاّ أن هذا الإنجيل، في نظر المختصين، ليس إلاّ نسخة مشتقة من الإنجيل الأول.

وقصة يوسف النجار هي نص متأخر إذ أنه يرجع إلى القرن الرابع، وإن كانت بعض تفاصيله الهامة حول تقدم سن هذه الشخصية متضمنة في نسخة من الإنجيل الأول والأمر يتعلق بنص رسولي انتشر في مصر.

إن إنجيل بطرس مهم هو الآخر من حيث القدم بما أنه يرجع إلى منتصف القرن الثاني: ونرى أصداء في كتابات هذا القرن إذ يتكرر ذكره باستمرار، كما يبدو أن جستان الشهيد، الفيلسوف والمدافع عن العقيدة، وهو مولود حوالي عام 100 كان على علم به هو الآخر. إلاّ أن هذا النص يكتسب أهمية أيضاً لتناقضه الشديد الوضوح إذْ يكشف بشكل هزلي عن أخطاء التفسير السائدة آنذاك بين المسيحيين الأوائل والتي نجدها في الأناجيل المعتمدة. فهو مثلاً يقدم هيرودوس انتيباس على أنه «ملك إسرائيل» وبذلك يكشف عن معاداة

مذهلة للسامية بالنسبة لذلك العصر، ولعله بذلك يصبح أول النصوص المعادية للسامية.

أما أفعال توما وهو من أطول النصوص وأكثرها ثراءً أدبياً بين مجمل الأناجيل المستبعدة فقد منحتني مادة مهولة للتفكير. وهي موجودة بالسريانية واليونانية، وأسندت أحياناً إلى الكاتب السوري بردسان الذي حظي بشهرة مدوية لمدة قرنين بعد وفاته عام 222. ومن المحتمل، وفقاً ل: م. ر. جيمس، المذكور آنفاً، أن تكون النسخة اليونانية أقدم، وأفترض شخصياً أن النص اليوناني قد إشتُعين به في كتابة نص سرياني كما يبدو من ذلك الأسلوب الشرقي الإنسيابي لهذه النصوص الشديدة الطول والجميلة عادة. إن أفعال توما تحكي رسالة تبشير توما في الهند. كما أنها النصوص الوحيدة بين كافة النصوص الإنجيلية التي تذكر وجود يسوع في الهند في نفس الوقت مع توما. وهو معطى سأتناوله فيما بعد نظراً لأهميته المعقولة.

وإلى جانب ذلك فقد استعنت بعدد من النصوص الكلاسيكية، مثل مسرح ارستوفان ويوربيدس وكتابات فلافيوس جوزيف وعدد من أبحاث علماء الآثار والتاريخ والنقاد وجميعها واردة في الببليوغرافيا.

وهناك كم وفير من الكتابات حول مخطوطات البحر الميت التي يمكن أن نضيف إليها شيئاً. لكن فيما يتعلق بمهمتي فإن هذه الوثائق تحتوي على أهمية عامة وأخرى ثانوية. كما أنها تبين على عكس بعض الأفكار السائدة، إن الإكتشافات لم تنته بعد فيما يتعلق بالعالم اليهودي المسيحي. وإن كان الهدف الأساسي إنما هو توضيح المضمون الديني لوظيفة يسوع. ذلك أن فيلون السكندري، وجوزيف، وبعض المؤلفين السابقين على اكتشاف المخطوطات عام 1947، مثل آرنست رينان قد ذكروا الأسينيين لكنهم ذكروهم بشكل عابر ربما لقلة الوثائق أو لعدم اهتمام ذلك العصر بهم. ومعرفة هذه الطائفة بشكل أفضل يزيد من غرابة الصمت المطبق ليسوع نحوها. إذ يبدو وكأنه يجهل وجودها، الأمر الذي يعد من المستحيل بالطبع. أن الاسينيين الذين كانوا يتباعدون باحتقار عن بقية الجماعة اليهودية، وخاصة عن كهنة المعبد، الذين كانوا في نظر الاسينيين يساهمون في ارتداد إسرائيل، لا بد وأنهم كانوا يبدون كالعثرة بين أقدام الكهنة. ولم يكن هؤلاء الكهنة يجهلون أن

الاسينيين كانوا يعتبرون المعبد الذي أعاد هيرودس بناءه عملاً شائناً وكانوا يعلنون بوضوح هدفهم من «تحرير» القدس وتحريم ارتياد أماكن العبادة على «الزناة والغرباء» (وكلمة زناة هنا يجب أن تؤخذ بمعنى «وثني» فاليهود آنذاك كانوا يعتبرون أي وثني «ابن سفاح».. أنظر جريميا المذكور آنفاً). وهذه النقطة في غاية الأهمية إذ توضح أولاً ذلك الخلاف العام السائد آنذاك بين الشعب اليهودي المنقسم من جراء العداء المتبادل بين السامريين والفريسيين والصدوقيين، كما أنها تكشف أيضاً كيف أنه كانت توجد في بني إسرائيل جماعة تتقاسم وجهة نظر يسوع فيما يتعلق بالمعبد وبكهنته. إن جوزيف، الدسّاس الثائر والجاحد، الذي رفع الاسينيين إلى درجة الأبطال، لشديد الحرج من هذه النقطة. فهو يحاول بالفعل أن يوحي بأن أناس المعبد هم الذين كانوا لا يسمحون للاسينيين بنحر الذبائح، وهو أمر مدحوض، كما أوضحه جون نولاند J. Nolland (مجلة قمران، رقم 36 صفحة 555 - 562): فالاسينيين هم الذين كانوا يبغضون أناس المعبد.

وهناك أهمية أخرى لمخطوطات البحر الميت، إذ تكشف عن تيار غنوصي، يبدو من هذه الآيات التالية من «النشيد»: التبرير الذي هو من عمل الرب، وذلك من قانونهم الجنائي: «في الكيان الخالد تأملت عيني حكمة محجبة عن رجل العلم/ ورقة رهيفة مختفية عن أبناء الإنسان/ فهي ينبوع العدالة ونفورته القوية/ كما أنها مجال المجد المتحجب عن الجمع الجسدي».

والأهمية الخاصة لهذه المخطوطات تكمن في هذه النقطة، التي تمت مناقشتها طويلاً، حول التأثير المحتمل للاسينيين على يسوع. وهناك ثلاث نقاط عقائدية تؤيد هذا الإقتراح وإن كانت لا تبدو بهذا الوضوح أو بهذه الخاصية في كافة الكتابات العبرية السابقة، فهي والحال هذه نقاط جديدة لا نجدها ثانية إلاّ في تعاليم يسوع، وهي: المحبة الأخوية، واحتقار ملذات الحواس والثروات، والاهتمام بالنقاء. «لن أرد لأحد جزاء الشر»، ذلك هو ما ينص عليه قانون الجماعة (10: 17 - 18) «إنك لم تضع سندي في المكسب» هذا ما يقوله الاسينيون إلى الرب، (نشيد/، 10، 22) وأخيراً، تلك الحيطة التي يتخذها الاسيني عندما يذهب لقضاء الحاجة وخشية من أن يصبح غير طاهر، حتى عن طريق لمس الزيت، إلى جانب بقية القواعد الخاصة بالنظافة الجسدية والجنسية

المنصوص عليها بوضوح في ذلك القانون. وإذ لا يبدو يسوع مأخوذاً بقواعد النظافة الجسدية، فإن تبتله المعروف على الأقل في السنوات الثلاث لرسالته العامة إنما يشهد على إختياره للامتناع.

وهناك نقطة خاصة تؤكد بوضوح إنتماء يسوع إلى هذه الطائفة بقمران هي: إن يسوع احتفل بالعشاء الأخير عشية عيد الفصح، الأمر الذي يمثل غرابة واضحة، لا يمكن تفسيرها مثلما أوضحته آني جوبير Annie Jaubert ببراعة في **تاريخ العشاء الأخير**، إلاّ إذا كان يسوع قد إلتزم بالتقويم الأسيني، الذي كان عيد الفصح يقع بالنسبة له في 14 نيسان (أبريل)، أي قبل عيد الفصح بالقدس بيومين. حتى أن يسوع بعد أن غادر الاسينيين بعدة سنوات قد احتفظ بعادة الاحتفال بعيد الفصح في هذا اليوم المحدد الذي تم اختياره منطقياً.

إن افتراض إنتماء يسوع إلى جماعة الاسينيين يؤكده شخصية ابن خاله. ذلك أن يوحنا المعمدان كان راهباً وحيداً مثلما تصفه الأناجيل، ولا ينتمي في اللحظة التي يظهر فيها على المسرح إلى جماعة الاسينيين، إلاّ أن هناك العديد من التفاصيل التي تشير إليه على أنه إنسان قد اتبع هو أيضاً التعاليم الاسينية وممارساتهم: فطعامه طعام الاسينيين، ومعمديته تذكرنا بمعمديتهم، ومثلهم أيضاً نراه يذكر كلمة أشعياء: «أعدوا الطريق في الصحراء ليهوه». وما أكثر عدد الذين يرون ـ ومن بينهم الكردينال يوحنا دانييلو في كتابه عن **مخطوطات البحر الميت وأصول المسيحية** أن الشبه من الكثرة بحيث لا يمكن اعتباره عرضياً، ويخرجون من ذلك بأن يسوع ويوحنا المعمدان كانا ينتميان إلى الأسينيين: ويقول الكردينال: «أن اكتشافات قمران تحل عدداً كبيراً من المشاكل التي لم يكن بوسع التفسير أن يحلها، وذلك مثل أصل يوحنا المعمدان، وتاريخ عيد الفصح، وأصل التدرج، ومفردات القديس يوحنا» ثم يضيف الكردينال بشيء من الجرأة: «وأصل الغنوصية»، تلك التي سألام عليها عندما أتناول وجهة نظره.

ذلك لأن أهمية مخطوطات البحر الميت الأساسية إنما تكمن في هذه النقطة: إنها تكشف أن الأسينيين كانوا شديدي التأثر بالغنوصية، وأن يسوع، باتباعه تعاليمهم، قد كان هو أيضاً غنوصياً. ومنذ هذه اللحظة فإن غنوصية

إنجيل «يوحنا» لا تبدو .وكأنها دخيلة، كما أن أصالة إنجيل توما تصبح آنئذٍ أكثر حقيقة.

كما أن التحفظ الدائم ليسوع حيال لقب المسيح يتبدى بشكل آخر: إذ لم يكن بوسعه أن يكون المسيح، في العقيدة الأسينية، ليس إلاّ تجسد القوى الإلهية التي ستظهر عند نهاية العالم وعندئذٍ فحسب. وإذا كان الانتظار التبشيري قوياً في قمران، ومثلما كان انتظار استهلاك الزمان الذي كان مرتبطاً به، فإن الأسينيين لم يتصوروا المسيح أبداً على أنه إنسان يمكن إدراجه في مجرى التاريخ: إن المسيح بالنسبة لهم إنما هو: «الغصن المنبثق من شجرة يشه Jessé والذي سيظهر في نهاية العالم. وذلك هو السبب الذي من أجله فإن سيد العدالة الذي يعد بمثابة المرجع في جماعتهم، لم يختلط أبداً بالمسيح.

إن كل هذه الاعتبارات تثير نقطة أخيرة، لم يتصدى لها على ما أعلم - أي باحث، وهي: لماذا ترك يسوع الأسينيين؟ ولم يكن لأحد أن ينفصل عنهم إلاّ إذا طرد من جراء خطيئه جسيمة، أو بسبب خلاف أساسي، وإنني شخصياً استبعد الخطأ الجسيم، حتى وإن كان تزمتهم قد تعارض مع يسوع، الذي كان الأكثر تمسكاً بروح القانون لا بَحْرفيّته. إن افتراضي هو أن يسوع لم يكن بوسعه أن يظل غير مكترث حيال الانتظار التبشيري لبني إسرائيل، الذين لم يتوقعوا بأية حال أن المسيح سيأتي بنهاية العالم. بل على العكس، بالنسبة لليهود فإن المسيح كان سيبدأ عهداً جديداً. لكن كما رأينا آنفاً، فإن الاسينيين قد ابتعدوا عن الشعب اليهودي، وهو موقف من الصعب على يسوع أن يتضامن معه خاصة وأنه مصحوب باليأس الضمني لكافة الألفيات. وبالنسبة لقوم قمران فإن الموقف كان محسوماً، ولم يكن أمامهم إلاّ انتظار نهاية العالم. من هنا كان على يسوع أن ينفصل عنهم.

وربما كان ذلك أيضاً هو السبب في ابتعاد يوحنا المعمدان. لكن ربما كان يسوع بالنسبة ليوحنا المعمدان هو المسيح وهو إذ يترك قمران فذلك لأن حماسه لا يستقيم ويأس الأسينيين كما أنه كان ينتظر مع بقية اليهود مجيء المسيح الذي سيندمج في التاريخ لتجديده.

من هنا نرى كيف كان تأثير مخطوطات البحر الميت غير مباشر على مفهومي وإن كان حاسماً وربما ستقرون أيضاً أن جرأتي لم تكن سوى

استخلاص للنتائج من تفكير ومعتقدات المفسرين، بما فيهم الكردينال دانييلو.

ومع ذلك فيجب أن نتحاش التطرف أياً كان فيما يتعلق بهذه المخطوطات، الشهيرة وغير المعروفة والتي تسببت في صراعات مقنَّعة وإن كانت شديدة وقريبة من الشجار: إن المخطوطات لا توضح ما إذا كان الأسينيين هم «أوائل المسيحيين» مثلما سارع وأعلن ذلك بعض ورثة الكنيسة عام 1980، أو أنهم ليسوا غرباء على تكوين الكنيسة مثلما نادى بذلك منذ ثلاثين عاماً ورثة آخرون لنفس الكنيسة.

إن قارىء هذه التنويعات البسيطة القوية وغير الحاسمة ربما استطاع أن يدركها بشكل أفضل على النحو التالي، إذا كانت مخطوطات البحر الميت «تعلن» بشكل ماأفضل عن مجيء يسوع وبالتالي تسبق رسالته، فمعنى ذلك أن يسوع يقع في خط تاريخ ديني وروحي له تبريره الشرعي، حتى إذا لم يحظ بشرعية داوودية (نسبة لداوود عليه السلام). مثلما حاول بعض المبشرين ذلك عبثاً.

فمنذ بدايات المسيحية يحاول مؤيدو يسوع، بالحاج لا معنى له، تبرير شرعيته، أولاً عن طريق نسب مزيف يجعل منه وريث العرش اليهودي، وبعد اكتشاف مخطوطات البحر الميت، ها هم يحاولون إثبات أنه كان المسيح الذي ينتظره الأسينيون باعتباره المختار من بين المختارين.

وعلى العكس من ذلك، إذا ما كانت نفس هذه المخطوطات غريبة تماماً عن تكوين يسوع، فإنها لن تمثل سوى كشف اثرى بلا أي معنى في التعاليم التراثية الكنسية.

ومن الغريب أن الموقفين قد تتابعا: منذ الخمسينات، عندما بدأ فك طلاسم المخطوطات وبدأ نشر بعض الفقرات، قام بعض الخبراء ومنهم جون اللجرو John Allegro، الذي ذكرناه عدة مرات في هذه الصفحات، بالتنويه عن الصلة الشديدة الوضوح بين تعاليم يسوع والأسينيين. وهاجت بعض السلطات الكنسية: فإذا ما تم إثبات أن عقيدة يسوع سابقة له، فإن ذلك يعني سحب أية أصالة منه بل وأكثر من ذلك فإن معناه إلغاء كيانه المنزّل. ولا تعد الكنيسة آنئذٍ غير فرع نحيل من اليهودية، وهو أمر غير محتمل بالطبع.

وفي البحث المقدم إلى أكاديمية النصوص والآداب، تحت عنوان:

ثلاثون عاماً من البحث في مخطوطات البحر الميت، عام 1977، أشار السيد أندريه دوبون ـ سومر André Dupont - Sommer السكرتير الدائم لهذه الأكاديمية والحجة الكبرى في مجال الكتابات الإنجيلية، إلى بعض الحقائق بشيء من المكر قائلاً: «من الواضح أن الإزدراء المعلن منذ البداية من بعض رجال اللاهوت قد تم تخطيه. ففي فبراير عام 1951 رأت إحدى المجلات الدينية أن تحيط قراءها علماً بأنه: «منذ بضعة سنوات قام مؤرخو أصول المسيحية بدراسة شتى أنواع الوثائق التي يمكنها أن تمدنا بالمعلومات حول تاريخ يسوع وتعاليمه وأوائل حوارييه... إلاّ أن الوثائق المكتشفة حديثاً لا تضيف شيئاً إلى معلوماتنا حول هذه النقطة... إن الربط بين أعضاء العهد الجديد (حواريي يسوع) والاسينيين لا يمكن تأكيده حالياً بشكل قاطع». لنغض الطرف عن ألفاظ الاحتقار مثل «شتى أنواع الوثائق» فيما يتعلق بمخطوطات البحر الميت. إلاّ أنه في العام التالي، كما يقول دوبون ـ سومر فإن نفس المجلة قد نشرت تحت اسم مستعار، مقالاً بمضمون مخالف: «لا توجد هناك أية حاجة تذكر للتنويه بأهمية هذه المخطوطات.. فبعض المسيحيين لن يروا بلا سعادة وبلا انفعال أن الاكتشافات الحديثة تسمح لهم بأن يدركوا عن قرب حياة الشعب اليهودي أيام العصر المسيحي»، ويسارع دوبون ـ سومر قائلاً: «يا له من تغيير في الموقف»! لنغفل تهرب النص الثاني: فالأمر لا يتعلق مطلقاً بأن «يدركوا عن قرب حياة الشعب اليهودي أيام العصر المسيحي» وإنما رؤية الصلات الحميمة بين تعاليم طائفة من اليهود وتعاليم يسوع. وفي عام 1957 قام الأب يوحنا دانييلو في بحثه المذكور آنفاً: **مخطوطات البحر الميت وأصول المسيحية** بحسم القضية بجرأة مدهشة قائلاً: «إن سيد العدالة يعد واحداً من الذين مهدوا لمجيء المسيح قبل يوحنا المعمدان» (صفحة 81). وبالطبع لقد إمتنع الأب المبجل عن تحديد شخصية سيد العدالة الذي يبجله الاسينيون وربطه بيسوع، وإن جعل منه واحداً من سابقيه. فإذا ما كان سيد العدالة ـ إذن ـ أحد سابقي يسوع، فإن ذلك يعني أن هرقل وبرسيه Presse وأدونيس كانوا أيضاً من سابقيه كما سأوضحه في الفصل التالي.

إن الحقيقة التي ترتسم بوضوح شديد، بعد نصف قرن، هي: أن الاسينيين كان لهم أثرهم على يسوع، لكنهم لم يكونوا أوائل المسيحيين: إنهم

يهود بالقطع حتى وإن كانوا يمثلون شكلاً متأخراً من اليهودية: ومثلما نقول ذا طابع «هلليني» عندما نشير إلى الثقافة اليونانية المتأخرة فيمكن أن نطلق عليهم لفظة «متهودين». إلاّ أنهم يظلون يهوداً كلية، أي أن يسوع قد تم تكوينه جزئياً على يد اليهود. وتلك هي «نواة المشكلة» على غرار ما نقوله في لغة أواخر الثمانينات. أي أنه لا يوجد أي تنزيل أو تبشير مسبق وإنما هو مجرد تسلسل تاريخي.

إنه من غير الممكن دراسة يسوع بعيداً عن الإطار التاريخي وبالتحديد بعيداً عن إطار تاريخي يهودي.

ولقد بدت لي كبرى المشاكل منذ أولى لحظات أبحاثي وهي: تحليل يسوع من وجهتي نظر مختلفتين ومتتاليتين. وإذا ما أردنا خفض أكبر نسبة من احتمالات الخطأ في إعادة تكوين شخصيته كان لا بد من تناول المصادر من زاوية التحليل التاريخي المعاصر، وكما فرضته على نفسي، من زاوية حساسيات العصر..

لقد كانت هذه الصعوبة تنكشف أكثر عند تناول الفقرات الخوارقيه التي تتناقلها المصادر وخاصة تلك المصادر المعتمدة والتي كانت أكثر ما رجعت إليه. فمن وجهة النظر المعاصرة المعتمدة على الروح العلمانية للواقع، وإذا لم ينساق المرء خلف خرافات طفولية، فإن هذه الفقرات تبدو شديدة السذاجة والتناقض ولا بد من استبعادها. إن القارىء المعاصر الذي يقرأ في أناجيل يسوع مثلاً أنه قد أصبح مضيئاً يتلقى وصف هذا التحول بنفس الحذر لانبهار شاؤول في الطريق إلى دمشق. إنها في نظره حليات وخرافات قد أضافها كاتبو الأناجيل لجعلها أكثر جذباً.

وذلك صحيح إلى حد ما وينكشف التزوير بوضوح مربك عندما نقرأ معظم الأناجيل المحتجبة. إن الأناجيل المعتمدة عبارة عن أساطير منمقة تتزايد خرافتها كلما تباعد كتابها زمنياً عن يسوع. لكن، من ناحية أخرى، من الخطأ إنكار حقيقة بعض الظواهر المادية للتصوف. فلدى شخصيات في مثل قامة يسوع لا يوجد أي مجال للشك في أن بعض «الخوارق» قد حدثت مثل تلك التي تم إثباتها لدى متصوفي فترات تالية. إن المؤرخ الديني مرسيا إلياد عمد

إلى حالات من «تجارب النور» قام بتحليلها أو شعر بها بعض علماء النفس المعاصرين.

وفي آليتهما التعويذية فإن قراءة الأناجيل أو ترتيلها الحديث لا يحبذ التحليل النقدي مطلقاً. أو على الأقل فإن هذا التحليل لا يمنح إلاّ لبعض أولئك المؤلفين الذين يجيد أسلوبهم العلمي مواربة غرضهم، والذين لا يتناولون سوى نقاط محدودة ولا يغيرون شيئاً يذكر في القراءة العادية للأناجيل، وكما سنرى في هذا الكتاب، فإن التوضيح المزدوج يسمح بمنح هذه القراءة إيضاحاً شديد الاختلاف في الكثير من النقاط.

وبالطبع، فإن مثل هذا العمل سيدفع القارىء إلى أن يتساءل عن شهاداتي العلمية كباحث إنجيلي. وأكررها ثانية، إنني لا أمتلك سوى أكثر من ثلاثين عاماً من الممارسة في فك طلاسم هذه النصوص العلمية و«ترجمتها» إلى لغة سهلة لأي فرد مزود بشيء من الثقافة لذلك استغرق مني هذا البحث كل ذلك الزمن.

إن النظرية التي مؤداها رفض أية قراءة نقدية للأناجيل وكافة النصوص الملحقة بها لأي فرد لم يقم بدراسات لغوية أو خطية تعد دون جدوى بل ووقحة.. وإذا ما خشي أحد من أن أكون قد أخطأت، فيمكن الرجوع إلى نفس المراجع التفصيلية حول أكثر النقاط صعوبة أو جدلاً. فإن قوة حجتها ستبدد أية شكوك لتخيلات أو سوء تفسير في عمل هذا المبحث.

وأضيف أن الهوامش الموجودة في هذا الجزء الثاني لم تستخدم كلها في كتابة **الرجل الذي أصبح الله**، وكثير منها قد ساعد في بناء نسق النقد الذي اعتمدت عليه، كما تم استخدام غيرها في الفصول التي تم استبعادها من باب الاختصار. ورغم ذلك، فلعل قارىء هذا العمل يجد فيه بعض الجوانب الهامة»..

وهذا الجزء يمثل التفاصيل الموجودة في حوالي خمسين صفحة من كتاب صدر عام 1989، وعدد صفحاته ثلاثمائة وثلاثين صفحة كلها مليئة بالمقارنات والأدلة وكشف حقائق جديدة جد مثيرة، لكنها تخرج عن إطار هذا البحث..

الفصل الرابع

أهداف التحريف

«لقد تخلى مفسرو النصوص الدينية في العصر الحديث عن النظرية القائلة **بالوحي** والتي تجعل من الكتاب المقدس كتاباً منزلاً أملاه الله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على الناس... فالنقد التاريخي لم يظهر قبل عصر النهضة: وكان لا بد من الاعتراف بأن موسى لم يكن بقادر على وصف وفاته أو أن يقدّم كشفاً بملوك إيدوم، مثلما هو وارد في سفر التكوين (36: 31)، وحتى من قبل أن توجد ملوك في إسرائيل»!! (ذلك هو ما نطالعه في **موسوعة بورداس Encyclopédie Bordas** في الجزء الخاص بالفلسفة والديانات، تحت عنوان «مشاكل النقد والتاريخ» صفحة 221).

إلاّ أن التحريف لا يتعلق بموسى وحده، بل ولا بالعهد القديم فحسب، بل لقد امتدت الأيادي المتعصبة بالكتاب المقدس بعهديه ـ وإن كان نصيبُ العهد الجديد من التحريف والاستخفاف أكبر وأغنى..

وقد قام التيار المتعصب طوال القرون الماضية بفرض فكرة بعينها أن تلك النصوص منزلة، على الرغم من كل ما أحدثته فيها من تحريف، مستعيناً بالعسف والتعتيم لنسج صورة للعقيدة المسيحية وفقاً لهواه وأغراضه.. كما قامَ في نفس الوقت بعملية تحريف وتعتيم أخرى، وإن كانت مواكبة لكنها في خط مغاير، ترمي إلى استبعاد التبشير بسيدنا محمد، ومحاربته حتى قبل أن يولد..

وذلك بغلق باب النبوة واعتبار السيد المسيح آخر الأنبياء.. وهذان الخطان هما ما سنتناوله بشيء من التفصيل في هذا البحث.

ومن المسلّم به أنه ما من إنسان يقرأ الكتاب المقدس بعهديه، وخاصة

الأناجيل الأربعة تباعاً إلاّ ويصاب بدهشة من تلك الفجوات والمتناقضات بين رواياتها، ومن عدم مصداقية الأحداث ذاتها، أو من مقارنة الأحداث بعضها بعضاً.. وكم تزداد الدهشة عند مقارنتها بالأناجيل المحتجبة أو المستبعدة، بل وتصل الدهشة إلى زروتها حينما نرى أن هذه الخلافات تتعلق حتى بتفاصيل ووقائع تتصل بأحداث حياة السيد المسيح وأقواله ووفاته، أي بمن يمثل كيان العقيدة وجوهرها!.. الأمر الذي كان من البديهي أن يحظى باهتمام من تناولوا هذه النصوص لفحصها وإعادة دراستها..

ومن ناحية أخرى، فما من إنسان يقرأ هذه الأناجيل الرسمية أو المعتمدة - كما يسمونها - إلاّ ويخرج بالعديد من الأسئلة التي تظل عالقة بلا إجابة، من قبيل: ما الذي حدث ليسوع من سن الثانية عشر إلى سن الثلاثين؟ أين إنجيل السيد المسيح؟ وإنجيل بولس؟ ومن هم أولئك الذين يطلق عليهم أخوة المسيح؟ ولم كل هذا التضارب في الأفعال والوقائع والأقوال؟! بل إن الإنجيل الواحد يتناقض في رواية الحديث الواحد في السفر الواحد بأقوال الشخص الواحد! وذلك ما نطالعه في سفر أعمال الرسل عندما كان شاؤول / بطرس الرسول في الطريق بصحبة آخرين، متجهاً إلى دمشق، وسمع صوتاً يناديه فقال: «وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا **صامتين يسمعون** الصوت ولا ينظرون أحداً» (9: 7)، ثم نراه يقول عن نفس الوقعة: «والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا **ولكنهم لم يسمعوا** صوت الذي كلمني» (22: 9)..

وتزداد التساؤلات حيرة وإبهاماً عندما يتناول القارىء تاريخ العهد الجديد بالدراسة ويعلم أن هناك. في الأصل - نصين أساسيين عن اللغة اليونانية، أحدهما باللغة السريانية، وهو الأقدم، والآخر باللغة اللاتينية. والكم الهائل من المراجع المتعلقة بدراسة هاتين النسختين يثير حيرة أكبر المؤرخين وأبرعهم على حد قول جمهرة من الباحثين..

فالواضح من العهد الجديد أن السيد المسيح كان له إنجيلاً يبشر به، وهو ما نراه في العديد من الآيات نذكر منها «قد أكملت التبشير **بإنجيل المسيح**» (بولس إلى أهل رومية 15: 19)، ثم «في ملء بركة **إنجيل المسيح**» (رومية 15: 29)، وما يقوله بولس إلى أهل غلاطية: «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً من الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر غير

أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا **إنجيل المسيح**» (1: 6 ـ 7). والمعروف يقيناً أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لم تكن مكتوبة عند كتابة رسائل أعمال الرسل.. ولا نملك إلاّ أن نتساءل أين ذلك الإنجيل الأول «المنزل» الذي كان يبشر به المسيح عليه السلام؟ وأين إنجيل بولس؟ بما أنه يقول: «في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي يسوع المسيح» (رومية 2: 16) فقد كان يكرز بإنجيل السيد المسيح ثم أخذ يكرز بإنجيله..

بل والواضح من قول بولس إلى أهل غلاطية (1: 6 ـ 7) الوارد في الفقرة السابقة أن الخلافات والتلاعب بالأناجيل قد بدأ فور وفاة السيد المسيح، إذ أن بولس يلومهم على سرعة تنقلهم من إنجيل لآخر..

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن كنيسة روما طوال القرون الأربعة الأولى لم يكن لديها أي نص ديني باللغة اللاتينية، وإنما كانت نصوصها باليونانية، وقبل مجمع نيقية الأول، المنعقد عام 325 ميلادية، لم تكن أجزاء العهد الجديد قد استقرت بعد بشكلها الحالي، وكان هناك العديد من النصوص التي يتداولها المسيحيون ويعتبرونها مقدسة. إلاّ أن هذا المجمع قد استبعدها من ضمن ما استبعد وحرّف من نصوص..

وبعد إنعقاد هذا المجمع، تمت ترجمة نصوص العهد الجديد من اللغة اليونانية في مدينة إنطاكيا ـ ولم تكن هذه المدينة مركز اللغة السريابنة، وإنما مدينة أديسة، كما كانت اللغة الآرامية هي اللغة التي يستخدمها المسيحيون الأوائل في قداساتهم لأنها كانت اللغة الدارجة التي يستخدمها اليهود ومختلف سكان المنطقة. وكان من الأفضل والمتاح لهم جميعاً أن يقرأوا ويصلّوا باللغة المتداولة بينهم وليس باللغة اليونانية.

وما من كنيسة من الكنائس في إنطاكية أو أديسة أو بيزنطة أو حتى روما كانت تمتلك كل الأسفار الحالية أو حتى الأناجيل الأربعة قبل مجمع نيقية الأول. كما أن «النص السرياني لم يكن يتضمن ما يطلق عليه «أساسي» أو «كلمات أساسية»»، تلك الكلمات الخاصة بالعقيدة كالقربان والتعميد والثالوث... وآخر إثني عشر آية من الأصحاح السادس عشر لإنجيل مرقس غير موجودة في الأصل اليوناني القديم... وأن الجزء المعروف باسم «صلاة الرب» (متى 6: 9 ولوقا 11: 2) غير موجود في «إنجيل مرقس». وذلك ما يؤكده

الأسقف بنيامين كلداني المولود عام 1867 والذي اعتنق الإسلام عام 1904 واتخذ اسم عبد الأحد داود، وكرس كل كتاباته للتعريف بما تم تحريفه، ومن أهم مؤلفاته «**محمد في الإنجيل**» الذي استشهدنا منه بالنص السابق (صفحة 144).

ولا شك في أن محاولة التوفيق بين كل ذلك الكم المتراكم من المعطيات المتداخلة المحرفة وفقاً لمتطلبات العصر وأحداثه السياسية والاجتماعية الناجمة عن بنيات متعددة، لمذاهب تشعبت وتاهت فروعها في طيات جذورها، قد أدى إلى طمس معالم الكثير من الحقائق.. ورغم ذلك، فهناك العديد من التساؤلات التي تفرض نفسها، نذكر منها على سبيل المثال: هل من الممكن ألا يكون للسيد المسيح وحوارييه أي نص أصلي باللغة التي كانوا يتحدثونها، خاصة وأننا رأينا إشارات متعددة لها؟ وإذا ما كانت الاجابة بالايجاب - ونحسبها كذلك - ترى ما هو مصير هذا النص ومن أضاعه أو أخفاه؟! لماذا لم تحتفظ الكنيسة بالمخطوط الأصلي للإنجيل أو حتى بترجمته الأولى؟! ومن الملفت للنظر أو الأدعى إلى التساؤل: لماذا قام كل الرسل - وكلهم كانوا من اليهود - بعدم استخدام لغتهم وإنما كتبوا جميعاً باللغة اليونانية؟! ترى هل تعلموا هذه اللغة لكتابة الأناجيل؟ فمن غير الطبيعي أو المنطقي أن تكون كل الكتابات المقدسة في العهد الجديد قد كتبت باليونانية من أجل اليهود الذين في الشتات، وكان عليهم اعتناق الديانة الجديدة، ولا يكتب نص واحد من أجل يهود فلسطين - خاصة أن أورشليم كانت آنذاك مركزاً للمسيحية، هذه العقيدة الجديدة، كما أن يعقوب «أخو الرب» كان مقيماً بها (غلاطية 1: 19) كما أنه كان رئيساً للكنيسة!!

وهنا يؤكد عبد الأحد داود قائلاً: «إنه لمجهود ضائع، لا طائل منه، أن نحاول العثور على أية نبوءة أو كناية أو أية رسالة قالها يسوع المسيح في لغته الأم. ولا بد من اعتبار مجمع نيقية الأول مسؤولاً إلى الأبد عن هذا الضياع الإجرامي للنص الأصلي للإنجيل في لغته الآرامية» (المرجع السابق).

ومما تؤكده المراجع الأجنبية والعربية أنه منذ مجمع نيقية الأول (325 م) وحتى مجمع لاتران الرابع (1215 م) كان على فئة المتعصبين أن يتفننوا في

اختلاق الحلول حول ما أطلقوا عليه الهرطقة الآريوسية، والمعارك الدائرة حول تاريخ عيد الفصح، وطبيعتي يسوع، وثنائية إرادته، إلى جانب ما اعتبروه أخطاء أوريجنوس Origène، وخلافات أخرى لا مجال لذكرها وإن كان كل الغرض منها استبعاد أي ارتباط للمسيحية بأية عقيدة أخرى.. أي استبعاد أية صلة باليهودية، على الرغم مما قاله السيد المسيح: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (متّى 5: 17)، واستبعاد أي أثر للديانات الأخرى السابقة لها وخاصة الديانة المصرية القديمة التي تبدو حميمة الصلة، ولا يسع المجال هنا لتناولها؛ واستبعاد أية صلة بجماعة الأسينيين الذين أثبتت الاكتشافات الحديثة **لمخطوطات قمران** انتماء السيد المسيح إليهم. الأمر الذي يؤكد أن هناك اتصالاً بين العقائد الأخرى السابقة. كما تثبت أنه نبي من الأنبياء وليس بإله كما لقّبوه فيما بعد ـ على الرغم مما هو وارد بالأناجيل ومنها: «يسوع الناصري الذي **كان إنساناً نبياً** مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وأمام جميع الشعب» (لوقا 24: 19). وإن كان هذا ليس بجديد فكثيراً ما ردده بنفسه قائلاً: «ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» (مرقس 10: 8)، «أبي أعظم مني» (يوحنا 14: 28) والأهم من ذلك كله، كان المقصود من عمليات التحريف هذه استبعاد أية إشارة تدل على مجيء سيدنا محمد.

والجدير بالذكر هنا، ذلك التناقض الصارخ في عملية استبعاد السيد المسيح عن أصله اليهودي، وفي نفس الوقت محاولة تلك الأيادي العابثة ذاتها لتقديمه من خلال هذه الأناجيل المعتمدة على أنه خليفة أنبياء العهد القديم، وأنه آخر المرسلين، ثم يقومون بتأليهه ليقفلوا باب النبوة نهائياً في وجه محمد ﷺ ـ وهو ما سنوضحه فيما بعد، إذ نؤثر أن تكون لنا هنا وقفة حول الختان وأهميته كمثال صارخ لتحريف بدأ، وافتعال نُسق متعسفة لنقض العهد القديم الذي أتى السيد المسيح ليتممه.

فالختان لا يمثل طقساً من الطقوس مثلما كان عند المصريين القدماء حيث كان مرتبطاً بالنضج والزواج، وذلك ما يصادفه موسى عند وصوله أرض مصر (خروج 4: 24 ـ 26)، وإنما أصبح يمثل العهد الذي قطعه الله على سيدنا إبراهيم إذ قال: «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد

بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم. وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي» (تكوين 17: 10 ـ 14).

ثم نقرأ في نفس الاصحاح: «فأخذ إبراهيم إسمعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضة كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته. وكان إسمعيل(*) ابنه ابن ثلاثة عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم إسماعيل ابنه. وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضةمن ابن الغريب ختنوا معه» (تكوين 17: 23 ـ 27)..

ومن الغريب أن نرى بطرس الرسول يستبعد إسماعيل تماماً ـ أو يوضع الاستبعاد على لسانه ـ إذ نقرأ: «ولم يعطه فيها ميراثاً ولا وطأة قدم ولكن وعد أن يُعطيها ملكاً له ولنسله من بعده ولم يكن له بعد ولد... وأعطاه عهد الختان وهكذا ولد إسحاق وختنه في اليوم الثامن»! (أعمال الرسل 7: 5 ـ 8). وقد رأينا للتو أن العهد تم مع إبراهيم وابنه إسماعيل البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ولم يكن إسحاق قد ولد بعد!

ولا تتوقف أهمية الختان عند كونها تمثل ذلك العهد وإنما ترتبط بعيد الفصح وتمثل جزءاً من الشريعة، إذ «قال الرب لموسى وهرون هذه فريضة الفصح. كل ابن غريب لا يأكل منه. ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه. النزيل والأجير لا يأكلان منه... وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحاً للرب فليختن منه كل ذكر ثم يتقدم ليصفه. فيكون كمولود الأرض. وأما كل أغلف فلا يأكل منه تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنزيل النازل بينكم» (خروج 12: 43 ـ 49). وفي سفر اللاويين يكلم الرب موسى قائلاً: «إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً... في اليوم الثامن يختن لحم غرلته» (12: 2 ـ 3).

(*) لم يكن إسحاق قد ولد بعد لذلك لم يرد ذكره، الأمر الذي يثبت قطعاً أن إسماعيل هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم.

وفي يشوع توجد آيات أخرى تدل هي أيضاً على أهمية الختان: «في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان(*) وعد فاختن بني إسرائيل ثانية. فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بني إسرائيل في تل القلف... وكان بعدما انتهى جميع الشعب من الاختتان أنهم أقاموا في أماكنهم في المحلة حتى برئوا. وقال الرب ليشوع اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر فدُعي اسم ذلك المكان الجلجال إلى هذا اليوم» (5: 2 ـ 9). أي أن منطقة الجليل هذه تمثل ذكرى تجديد العهد وتطبيق الشريعة مثلما ورد في الآيات السابقة. بل ها هو الختان يأخذ معنى رمزياً في «ارمياء»، إذ قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم: «اختتنوا الرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج كَنَارٍ غيظي فيحرق وليس من يطفيء بسبب شر أعمالكم» (4: 3 ـ 4).

وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية نراه يعقد مقارنة بين الختان بالايمان والغرلة بالايمان وينتهي إلى أنه «أخذ علامة الختان ختماً لبر الإيمان» (4: 11).. ولا غرابة في ذلك إذ أن السيد المسيح قد ختن في اليوم الثامن: «لما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سُمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حُبل به في البطن» (لوقا 2: 21). بل وتقول بعض المراجع إنه منذ لحظة ختانه هذه أعتبر أنه النور الذي سيضيء الأمم» **F. Comte: Les Livres Sacrés**، صفحة 35).

وهنا لا نملك إلا أن نتساءل كيف يكون الختان بهذا المعنى الحيوي بالنسبة للمسيحية، إذ يمثل العهد الذي قطعه الرب على سيدنا إبراهيم وابنه البكر إسماعيل، كما يمثل شريعته أو على الأقل جزءاً منها فالدم المنبثق من الجرح هو رمز الارتباط، ثم يقوم أحد الحواريين باستبعاده أو باستبداله بطقوس أخرى؟! ولا داعي للقول أنه كان سائداً ومعمولاً به بعد وفاة السيد المسيح بدليل أن بولس الرسول اعتبره «ختماً لبر الايمان» ثم قام بعد ذلك بإلغائه واستبداله بالتعميد (أعمال الرسل 11: 1 ـ 18) ليصبح من التعديلات الجديدة التي أجراها ـ أو أجرتها تلك الأيادي ـ لاستبعاد ارتباطها باليهودية؟! فها هو

(*) وهي نفس السكاكين التي كان يستخدمها قدماء المصريون.

بولس يقول لأهل غلاطية: «ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً. لكن اشهد أيضاً لكل إنسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس»!.. أم لعله قام بذلك لسرعة وسهولة استقطاب الناس إلى المسيحية إذ كان الختان يمثل عثرة بالنسبة للبعض..

ولنتناول هنا بعض نماذج من عمليات التحريف التي أصبحت تغص بها المراجع الأجنبية والعربية، لندلل فحسب على عمق الخلط والبلبلة التي تصيب قارئها، فقد أدى العديد من هذه التحريفات إلى اختلافات في أمور ما كان يجب الاختلاف فيها إن كانت صادقة منزلة، من قبيل الاختلاف حول تاريخ مولد يسوع: هل هو في العام التاسع أو السابع قبل الميلاد، أم في العام السادس الميلادي؟.. واختلاف في اليوم إذ نجد أنه وُلد في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر، وفي السابع من شهر يناير، وفي الخامس عشر من شهر ابريل!.. وكذلك الاختلاف الجليّ في تاريخ صَلْبة بناء على الاختلاف في تاريخ احتفال السيد المسيح بعيد الفصح.. فهل احتفل به يوم الأربعاء كما هو واضح في إنجيل يوحنا (13: 1 ـ 5)، الأمر الذي يربطه بتقاليد الاسينيين، أم احتفل به يوم الجمعة، وهو من ناحية يربطه باليهود، ومن ناحية أخرى لا يستقيم وبقية الأحداث كالقبض عليه إلخ.

بل تقول الأناجيل يسوع الناصري أو يسوع الناصرة وإن كان كل من متّى ولوقا ويوحنا يقول أنه ولد في بيت لحم! ومن المعروف أنه ما من نص يهودي قديم يذكر مدينة الناصرة قبل القرن الثاني الميلادي! (موسوعة بورداس).

وها نحن نرى مزيداً من الاختلاف في نَسَبْ السيد المسيح أو في «شجرة العائلة» كما يقولون حديثاً.. ففي الاصحاح الأول من إنجيل متّى نجد نسبه يتصاعد إلى إبراهيم الخليل عبر تسعة وثلاثين أباً، بينما نجدهم في الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا نيفاً وخمسين أباً!!.. بل والغريب أن نقرأ في إنجيل يوحنا: «وأما المسيح فمتّى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (7: 27)!..

وهناك مسائل عقائدية ـ ليس لنا أن نقطع فيها برأي ـ حول اختلاف طبيعة يسوع وثنائيتها، وثنائية إرادته، وإن كنا قد أوضحنا في بحث **الدين والدولة** كيف تم نسجها في المجامع الأولى، وأنها غير واردة في الأناجيل الأربعة.. أما الاختلافات الجذرية حول تنقلاته أثناء فترة تبشيره المحددة بثلاث

سنوات، فتدعو للغرابة.. وقد أوضحها ج. ميساديبه في أربع خرائط وفقاً لما ورد بكل إنجيل من الأناجيل الأربعة (راجع الجزء الثاني من كتابه، صفحة 151 - 154).. وهناك أيضاً اختلافات حول عدد الحوازيين الذي يتأرجح فيما بين اثني عشر وأربعة عشر - وإن كان الاتفاق يدور حول أحد عشر اسماً منهم!! ومن المعروف أن أول رئيس للكنيسة هو يعقوب الحلفي، وفقاً لإنجيل توما وليس بطرس كما يقول متّى (16: 17 - 19) - خاصة وأنه وفقاً لإنجيل مرقس فإن السيد المسيح يقول لبطرس: «اذهب عني يا شيطان، لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس» (8: 33)!! وهو الذي أنكر يسوع ثلاث مرات، فكيف لمثل هذا الإنسان / الشيطان أن يكون رئيساً أو مؤسساً للكنيسة؟!

ووفقاً لإنجيل يوحنا فإن توما كان يشك في أن الشخص الذي بُعث بعد الصلب هو يسوع (يوحنا 20: 24 - 45)، كما أن يوحنا يوضح أنه بعد ذلك بأسبوع قام يسوع برجاء توما أن يضع أصابعه في ندبات جراحة (يوحنا 20: 26 - 27).. وهي تفاصيل غير واردة في أناجيل متى ومرقس ولوقا..

ولن نشير هنا إلى التضارب في المعجزات التي أتى بها يسوع، الأمر الذي يمس رسالته مما نتأباه ونتسامى بقدره عن أمثالها - وإن كشفت دلائل أخرى للتحريف، بل وما كان لمثلها أن توجد، وبخاصة أن الخلط والاختلاف في تناول أفعاله قد جعلت منه شخصية مشاغبة، غير مكترثة ونهمة. ذلك أن تحديه للشمائل القديمة ومخالفة الصوم وعدم الالتزام بقدسية يوم السبت، وهو الذي أتى ليكمل، واختلاطه بأشخاص سيّيء السمعة واحتسائه الخمر تعد من الأمور التي لا تليق بقدسيته عليه السلام، ومن قبيل ما نسب إليه من قول: «جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون هو ذا الإنسان أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة» (لوقا 7: 34)، أو أن نقرأ عن لسانه: «أحبوا أعداءكم باركوا لأعينكم» (متّى 5: 44) التي لا تستقيم وقوله: «أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي» (لوقا 19: 27). بل حتى القسم الذي نطقوا به أثناء العشاء الأخير كل إنجيل يورده بكلمات مغايرة..

وإن كان ما تقدم يعد بمثابة بضعة شذرات تتعلق بمولد وحياة السيد المسيح، فإن الاختلافات والتحريف قد امتد إلى أواخر أيامه وصلبه ودفنه وبعثه.

فبينما يؤكد إنجيل يوحنا على ضرب السيد المسيح وجلده بعد إلقاء القبض عليه، فإن الأناجيل الثلاثة الأخرى لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة. وبخلاف ما يتناقله التراث عن السيد المسيح وحمله صليبه حتى صارت مثلاً، فإن من حمل الصليب ليس السيد المسيح وإنما سمعان (متّى 27: 32)، سمعان القيرواني والد الإسكندر دروفس (مرقس 15: 21)، وهما اسمان لم يظهرا في أي موضع آخر من الأناجيل، بالاضافة إلى أن سمعان هذا الذي حمل الصليب خلف يسوع (لوقا 23: 26) لا يذكره يوحنا مطلقاً في إنجيله، بل إنه يؤكد أن يسوع «خرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة ويقال له بالعبرانية جلجثة» (19: 17)!!

ويزداد الاختلاف حول لحظة وفاة السيد المسيح كما هي واردة في الأناجيل الأربعة، وتختلف معها فترة بقائه مصلوباً وفترة ما بعد الوفاة.. ومنها ذلك الظلام الذي ساد ساعات ثلاث، خاصة وأن إنجيل متى يتحدث عن وقعة لا يمكن لإنسان أن يغفلها لهولها، إذ يقول: «وإذا حجاب الهيكل قد انشق اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت. والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين» (27: 51 - 53)..

وحتى صرخة السيد المسيح، تلك الصرخة التي اختلفوا في نصها واختلف المؤرخون في تفسيرها، لا تذكرها كافة الأناجيل، ومن يذكرها منها يوردها باختلاف شديد في نصها.. ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى ضربة الحربة الشهيرة التي أصبحت من السمات المميزة لصورة السيد المسيح في المتخيل العام، والتي لم يذكرها سوى إنجيل يوحنا (19: 34)، بل إن الفنانين التشكيليين القدامى، الذين كانوا يصورون بتوجيه من رجال الدين بعد معركة الايقونات، قد اختلفوا في وضعها: فمنهم من يصورها على الجانب الأيمن من صدر السيد المسيح، ومنهم من صورها على الجانب الأيسر!..

ولا داعي لذكر الحرج الناجم عما قاله السيد المسيح نفسه ـ أو عما وُضع على لسانه ـ عن فترة بقائه مدفوناً قبل بعثه: «لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالي هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة

أيام وثلاثة ليالي» (متى 12: 40).. والثابت بحساب الأيام والوقائع أنه لم يمض أكثر من ليلة واحدة..

وهنا لا بد من الإشارة إلى الاختلاف حتى حول الكفن.. إذ أن الفارق يمتد ما بين ملاءة من الكتان الرفيع إلى شرائط أو لفائف من الكتان على حد قول إنجيل يوحنا، مؤكداً: «كما لليهود عادة أن يكفنوا» (19: 40).. ولا داعي للقول هنا أن عادة لف الجثمان «بلفائف وطيب» هي عادة مصرية قديمة ضرورية لتضميد الفتحات الناجمة عن عملية التحنيط.. أما اليهود، فالمعروف أنهم كانوا لا يمسون الجثة.. اللهم إلا إذا كانت لفائف لتضميد «جراح» السيد المسيح وفقاً لوجهة نظر ج. ميساديه الذي يؤكد في كتابة بالأدلة والبراهين أن السيد المسيح لم يمت مصلوباً ولم يكفن وإنما ضمدت جراحة.. وهو ما يتفق وما جاء عنه في القرآن: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾.

بل حتى يهوذا الأسخريوطي اختلفوا فيما وقع له.. ذلك أن إنجيل متّى يقول: «ثم مضى وخنق نفسه» (57: 5).. أما بطرس في الإصحاح الأول من سفر أعمال الرسل فيقول إنه «سقط على وجهه وانشق من الوسط فأسكبت أحشاؤه كلها» (18)!!

ولا نقول شيئاً عن ألوهية السيد المسيح التي يقحمها يوحنا طوال إنجيله ولا أثرلها في الأناجيل الأخرى!!؟

وننهي هذا العرض الخاطف لبعض ما تتضمنه الأناجيل الأربعة من اختلاف وتحريف يسيء للأسف في عديد من مواضعه لقدسية السيد المسيح، بتساؤل جد مبهم، ناجم عن تأكيد ج ميساديه بأن «المنبع الأصلي الذي يشار إليه بحرف Q (ويعني النص الأصلي الذي أخذت عنه الأناجيل الأربعة) **لا يتضمن شيئاً عن آلام يسوع**» (الجزء الثاني صفحة 256)! أي أنها أضيفت فيما بعد.. (ويطلق تعبير «آلام المسيح» على تلك الحقبة التي تتضمن ضرب وجلد وقتل السيد المسيح مصلوباً)، إذ الجدير بالذكر أن **مخطوطات قمران** التي تتضمن تراث الأسينيين العقائدي لا تكشف فحسب عن تشابه حميم بينها وبين المسيحية، كما أوضحه العديد من الباحثين، ومنهم ديبون - سومير Dupont-Sommer) (**الكتابات الأسينية المكتشفة عند البحر الميت**، 1970)، وجان دانييلو Jean Daniélou(**مخطوطات البحر الميت**، 1992)، وإنما تكشف عن

نقطة تستوجب البحث والدراسة، وإن كانت تخرج عن نطاق هذا البحث. ذلك أن معلم الأسينيين الملقب «سيد العدالة» قد تعرض للاضطهاد والجلد ومات مصلوباً، قبل السيد المسيح بحوالى قرن تقريباً..

أما فيما يتعلق «بآلام المسيح» غير الواردة في المنبع الأصلي Q، والتي تختلف الأناجيل حول تفاصيلها، وتمثل نقطة الاختلاف الجوهرية مع ما ورد عنها في القرآن: ﴿ما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم﴾ (النساء: 157)، فعلى الرغم من كل ما كتب في هذا الموضوع، سواء أكان مؤيداً ومفسراً أم معارضاً، فلا يسعنا إلا أن نتناوله باقتضاب ولا نتعرض لهذه النقطة إلا بسبب كل ما لحق بها من تحريف وتزييف لا تخطئه العين، ذلك أن موضوع الصلب في العقيدة المسيحية مرتبط بخطيئة آدم عليه السلام، الذي أكل من الشجرة التي حرم الله عليه أن يأكل منها. وبالتالي فإن كل أفراد ذريته إنما يحملون الخطيئة منه. وقد أراد الله أن يتصالح مع الناس على خطيئة آدم وتم ذلك بالفداء وبشروط لا يمكن أن تتوافر في غير الله الذي تجسد بشراً من الروح القدس ومريم العذراء، كما يقولون:..

وتورد الأناجيل عن عملية القبض على السيد المسيح لصلبه ما يلي: في إنجيل متّى: «حينئذٍ اجتمع **رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب** إلى دار رئيس الكهنة الذي يُدعى قيافا. وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه. ولكنهم قالوا ليس في العيد لئلا يكون شغب من الشعب» (27: 3 - 5)، وفي إنجيل مرقس: «وكان **رؤساء الكهنة والمجمع كله** يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه» (14: 55)، وفي نفس الإنجيل، في الإصحاح التالي، سأل بيلاطس الجماهير المطالبة بصلبه قائلاً: «.. وماذا تريدون أن أفعل بالذي تدعونه ملك اليهود. **فصاحوا أيضاً أصلبه**. فقال لهم بيلاطس وأي شر عمل. **فازدادوا صراخاً اصلبه**» (15: 12 - 14)؛ وفي إنجيل لوقا: «وكان **رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه**» (19: 47)؛ وفي إنجيل يوحنا: «فجمع رئيس الكهنة والفريسيون مجمعاً وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة وإن تركناه هكذا يؤمن الجميع به **فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا**. فقال لهم واحد منهم وهو قيافا. كان رئيساً للكهنة في تلك السنة أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تنكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب ولا

تهلك الأمة كلها... فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (11: 47 - 53). ويضيف إنجيل متى قائلاً: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلاً إنني بريء من دم هذا البار. ابصروا أنتم فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» (27: 24 - 26).

أي أن رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب والمجمع كله وجماهير الشعب هم جميعاً الذين طالبوا بصلب السيد المسيح، وليس فرداً واحداً فحسب كما قيل عند تبرئتهم من قتله عام .1965. بل لقد تعمد الإسرائيليون قتله مع سبق الإصرار لا لما يبشر به من تعاليم جديدة، وإنما خوفاً من الرومان وإرضاءً لهم وحفاظاً على موضعهم وأمتهم! أي أن جميع اليهود قد تمسكوا بصلب السيد المسيح لمطلب سياسي واضح وليس لسبب ديني، وأصرّوا على هذا القتل بكل تحد آخذين وزر دمه عليهم وعلى أولادهم.

ولا يسعنا إلا أن نورد ما كتبه المستشار منصور عبدالعزيز، نائب رئيس محكمة النقض، وهو يتحدث كرجل قضاء قائلاً: «جريمة قتل كاملة، تلك هي التي ارتكبها اليهود، مع سبق الإصرار الكامل عليها، فمن تآمر للقتل، إلى قبض للقتل، إلى طلب شهود زور للقتل، إلى طلب من الوالي للقتل، إلى إصرار على القتل حين يتردد الوالي، إلى قبول كامل بتحمل عاقبة هذه الجريمة ووزرها ليس عليهم وحدهم وإنما أيضاً على ذريتهم من بعدهم فقالوا إن دمه عليهم وعلى أولادهم... ومن هنا فالجريمة في حد ذاتها قائمة وأركانها متوافرة... والذي لا يمكن الجدل فيه، أنه إذا كانت خطيئة آدم تورث، فمن باب أولى خطيئة اليهود هذه يجب أن تورث، بل أن الممكن أن نتصور الثانية تورث دون الأولى، أما العكس، فلا وألف لا، فليس لعقل أن يقبل أن خطيئة آدم بأكله من الشجرة التي حرم الله عليه أن يأكل منها بعد أن أغوته حواء فأكل منها، تورث، وأما صلب الإله وقتله وسفك دمه كما يعتقد المسيحيون وبعد أن قبل قتله في تحد أن يكون دمه عليهم وعلى أولادهم لا تورث، لا وألف لا هنا يقولها كل عاقل وكل منطق» (**دعوة الحق، أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام**).

وأوضحنا عند بداية تناولنا لهذه النقطة أننا لم نتعرض لها إلا لما لحق بها من تزوير وتحريف في أواخر الستينات من هذا القرن، وهو الموقف الذي

تمخض عنه مجمع الفاتيكان الثاني لتبرئة اليهود من قتل السيد المسيح واعتراف الكرسي البابوي بالكيان الاستيطاني الصهيوني في فلسطين المحتلة والمسمى «إسرائيل»!

والكاردينال الألماني أغسطين بيا، الذي صاغ هذا المشروع هو أيضاً صاحب الإشارة بتعديل ما ورد في صلاة الأحد من «أن اليهود هم الشعب العاصي»، بل أنه يندفع في التبرير لتبرئة اليهود من دم السيد المسيح بأن يحمل البشرية جمعاء مسؤلية موته.. وما أثقل هذا الحمل الذي حمله للبشرية جميعها، فهو «دم الله» كما يعتقدونه.. ولم يفت نيافة الكاردينال توضيح أن مثل هذا القرار تم وضعه على أساس «أنه مشكلة دينية بحتة لا علاقة لها بأي مسألة قومية أو سياسية» (**وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني**)!!

أهناك ضرورة أو مجال للتعليق على مثل هذا التحريف والتزييف التاريخي لما هو ثابت بصريح العبارة في الأناجيل الأربعة؟! وإن كانت الاشارة واجبة - في ظننا - للتعليق فحسب على نيافة الكاردينال فيما يتعلق بتحميله جريمة القتل مع سبق الاصرار هذه إلى «البشرية جمعاء».. ترى هل فات نيافته أن البشرية جمعاء لا تتكون من المسيحيين فحسب، أم أنه حكم مسبق بما يتطلع إليه ذلك التيار المتعصب، إذا علمنا أن الإسلام من حيث العدد يمثل الديانة الثانية بعد المسيحية، وهو ما قد يشي أيضاً بما يضمره الغرب المتعصب للاسلام والمسلمين. وذلك ما بثته أيضاً وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني المنعقد فيما بين 1963 و1965، فما من صفحة من صفحاته تقريباً تخلو من إشارة واضحة إلى هذا المخطط وإلى كيفية تنفيذه سواء بالوسائل العلنية أم بالمواربة والتحايل الخفي.. بل ذلك هو المعلن أيضاً في صفحات الكتاب الديني الجديد للكاثوليكية!

وقبل أن ننهي هذه النقطة لا يسعنا إلا أن نورد آخر جزء مما كتبه رجل القضاء المستشار منصور عبدالعزيز: «اليهود عندما ارتكبوا هذه الخطيئة إنما ارتكبوها باعتبارهم اليهود، باعتبارهم يمثلون اليهود، فرأس المؤامرة هو قيافا رئيس كهنتهم، والمخططون والمدبرون هم رؤساء كهنتهم والمنفذون هم كل هؤلاء مع شعب اليهود، وإذا كان هناك من يُسأل عنها إذن فهم شعب اليهود في ذلك الزمان، وإذا كانت هذه الخطيئة تورث فإنما لنسل اليهود من بعدهم،

ولهذا لم يكن عبثاً أبداً أن يشار لليهود على مر الزمان في صلاة الأحد على أنهم الشعب العاصي، فذلك من صُلب عقيدة المسيحيين وإيمانهم، وبغيره لا تستقيم أبداً تلك العقيدة عندهم، لأنه إذا كانت جريمة صلب المسيح الذي هو الله في اعتقادهم، لا تقع على غير من قاموا بها أنفسهم، ولا تورث لشعب اليهود من بعدهم. فإنه من باب أولى، فإن خطيئة آدم إذا عصى ربه وأكل من الشجرة التي حرم الله عليه أن يأكل منها، هذه الخطيئة من باب أولى لا تورث، ولا يستقيم بحال القول بتوارث هذه دون الأخرى، وإنما الذي يمكن أن يستقيم في العقل هو العكس كما بيّنا، ولذا، فإن البشر جميعاً من غير المسيحيين لا يمكن بحال أن يقبلوا من أصحاب هذه الوثيقة وممن أقروها القول بأن خطيئة شعب اليهود المتمثلة في صلبهم المسيح الإله كما يعتقدون، لا تورث لشعب اليهود من بعدهم، بينما خطيئة آدم هذه تورث ويولد البشر من بعده خطأه بها، بل يجب أن يرفعوا من باب أولى عن باقي البشر خطيئة آدم أيضاً، فإن فعلوا، فقد التقوا مع الإسلام، وانتهت عقيدة الصلب عندهم، لزوال سببها والغرض منها، وما هم أبداً بفاعلين، ولذا فليس أمامهم من سبيل، لتلافي هذا التناقض البيّن في أساس عقيدتهم وديانتهم، إلا بأن يعودوا إلى ما كانوا عليه من تحميل لشعب اليهود في عهد المسيح وذريتهم من بعدهم، وزر وإثم صلب المسيح الإله كما يعتقدون، فهل يفعلون، هنا أعتقد أنه يظل الجانب الذي ادّعى صاحب الوثيقة عدم وجوده بقوله أن المشروع وضع على أساس أنه مشكلة دينية بحتة لا علاقة لها بأية مسألة قومية أو سياسية، ذلك أنهم إن يفعلوا، فلن يكون ذلك بحال لسبب ديني أو عقائدي كما يدّعي، وإنما وبيقين، لأسباب قومية أو سياسية محضة، وإنما على أي حال فإننا هنا، مسلمين كنا أو مسيحيين، لا يجوز أن نقبل هذه الوثيقة، وبهذه الحجج وحدها في تقديري، يجب أن نجابهها ونجابه القائلين بها» (المرجع المذكور آنفاً).

إلا أن عمليات التزييف هذه لم تتوقف.. ففي العشرين من شهر نوفمبر عام 1992، نشرت مجلة **الاكسبرس** L'Express الفرنسية في موضوع الغلاف نبأ ظهور الطبعة الجديدة لكتاب **«التعليم الديني للكنيسة الكاثوليكية Cathéchisme de L'Eglise Catholique 1992**. وكان آخر كتاب للتعليم الديني يرجع إلى القرن السادس عشر.

ويبدأ كاتب المقال بتوضيح أن مجمع الفاتيكان الثاني لم يكن قد قرر أي شيء بشأن إصدار كتاب جديد للتعاليم الكاثوليكية. بل إنه في عام 1977 وأثناء المجمع المنعقد آنذاك تم استبعاد الفكرة. وخلال مجمع آخر انعقد عام 1985 غير الآباء آراءهم. وبين التاريخين كان قد تم تعيين الكاردينال البولندي كارول ڤويتيلا، ليتولى كرسي البابوية تحت اسم يوحنا بولس الثاني.. ولا يتسع المجال هنا لتناول كل الأدوار السياسية التي يقودها نيافته منذ توليه منصبه، كما لا يتسع المجال أيضاً لعرض هذا الكتاب الديني الجديد الذي يؤكد الدور السياسي الواضح الذي تلعبه الكنيسة في الدولة.. فعلى حد قول ميشيل لوجري M.Legris، «أن هذا النص يحدد الاتجاهات التي يتعين على الحكومات أن تتخذها إن عاجلاً أو آجلاً، سواء أرادت أم لم ترد» (**أكسبرس** صفحة 29).

أما الأمر الذي يعنينا من هذا الكتاب الديني حالياً فهو ما يتضمنه من تحريف وتزييف جديد، إذ يصر على اعتبار «أن العهد القديم جزء لا يتجزأ من العهد الجديد لأن فصوله **منزلة** وتحتفظ بقيمة دائمة إذ أن التحالف القديم لم ينقضه أحد (صفحة 38)... ومع مراعاة أن أخطاءنا تمس المسيح نفسه، فإن الكنيسة لا تتردد في تحميل **كافة المسيحيين المسؤولية الكبرى في مقتل يسوع**، تلك المسؤولية التي كثيراً ما أدانوا بها اليهود وحدهم... بل أن المسؤولية التي تقع على المسيحيين أشد وأعظم» (**كتاب التعليم الديني** صفحة 131)!!؟.

والموقف الواضح هو إصرار التيار المتعصب في الفاتيكان على تبرئة اليهود من دم السيد المسيح، قادة وحكاماً وشعباً، على الرغم مما نقرأه في إنجيل لوقا: «فقام كل جمهورهم وجاؤوا به إلى بيلاطس. وابتدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر» (23: 1 - 2). بل وعلى الرغم مما تمتلىء به «أعمال الرسل» من اتهامات صارخة ضد الإسرائيليين، نورد منها ما يقوله بطرس الرسول، رئيس الكنيسة الكاثوليكية: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. **يسوع الناصري رَجُلٌ** قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون. هذا أخذتموه مسلّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي آثمة صلبتموه وقتلتموه» (أ 21: 22)، ثم يقول للإسرائيليين أيضاً: «يسوع الذي

سلمتوه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقة... ورئيس الحيلة قتلتموه» (أ. 3: 13)، ثم يقول لهم أيضاً: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان... أنتم الآن صرتم مسلّميه وقاتليه» (أ. 7: 51 - 52).. ولما سمعوا منه هذا القول هجموا عليه وأخرجوه خارج المدينة ورجموه!

وغني عن القول بأن الحواريين أقرب زمناً من الأحداث التي عاصروها من القائمين حديثاً على الفاتيكان في القرن العشرين! وغني عن التعليق أيضاً قول بطرس عن أن «يسوع الناصري رَجُلٌ» أي أنه حتى ذلك الوقت لم يكن بإله!! وهو ما يتفق أيضاً مع ما قاله لهم السيد المسيح نفسه: «تطلبون أن تقتلوني **وأنا إنسان قد** كلمكم بالحق الذي سمعه من الله»! (يوحنا 8: 40).

أما التغيير الواضح هذه المرة، لهذه النقطة فهو قصر التهمة على «كافة المسيحيين» وليس «على الإنسانية جمعاء» مثلما في وثيقة 1963.. ولا تعليق لنا سوى أنه لم يكن هناك مسيحيين عند وفاة السيد المسيح، وأن اللفظ استخدم لأول مرة في أنطاكيا فيما بين عامي 45 - 50، أيام كلوديوس سيزار. وذلك ما نقرأه في أعمال الرسل: «ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكيا أولاً» (11: 6).. فكيف يمكن تحميل كافة المسيحيين العبء الأكبر في مقتل السيد المسيح؟!

ولا شك في أن هذا الكتاب الذي يحدد مسار الحكومات المسيحية وشعوبها سوف يثير العديد من المواقف والصراعات لكل ما يتضمنه من تغيير ومهادنة ليس مع اليهود فحسب، وإنما في أمور شتى، نذكر منها على سبيل المثال: استبدال عبارة يسوع المسيح «ابن الله» بـ «يسوع الناصري».. أما عن الكنائس الأرثوذكسية فيقول: «إن ما ينقصها هو جد قليل لتصل إلى الكمال الذي يسمح لها بالانضمام في قربان الرب» (صفحة 184)، أي إنها على وشك الانضمام للواء الكاثوليكية المتسلطة. كما تغيرت وجهة نظر الكنيسة بالنسبة للعلوم والمواصفات الاجتماعية لتشمل حتى المنحرفين جنسياً، إذ يوضح الكتاب الديني الجديد أنه «لا بد من أن نقلبهم باحترام وتعاطف ورهافة حس» (صفحة 480)!!

أما الغرض الحقيقي من هذا الكتاب الديني فهو، بخلاف تبنيه نفس خط المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، وكما يحدده نيافة الأسقف هونوريه

Mgr. Honoré: «أنه في زمن مثل زمننا حيث سوق الأفكار دائمة، وحيث **تتأكد العقائد الدينية**، وحيث ينتشر الخلط، أليس من المهم أن تعلن الكنيسة عن موقفها؟» وهذا الموقف يحدده الكاردينال راتزنجر J. Ratzinger في حديثه مع جريدة **ليموند Le Monde** الفرنسية، قائلاً: «مثلما كان الإرهاب الناجم عن الماركسية يضع يدنا بالأمس على بعض العيوب في أدائنا الاجتماعي، فإن **الإرهاب العدمي** اليوم يوضح لنا الطريق الذي يتعين علينا أن نسلكه لنتدبر الأسس اللازمة لعلم أخلاقي وجماعي جديد» (1992/11/17).. وغني عن البيان توضيح المعنى المقصود «بالعقائد الدينية التي تتأكد» وبهذا «الارهاب العدمي»، فبعد ضرب الشيوعية لم يعد هناك سوى ضرب الإسلام والمسلمين كما أعلنها أكثر من مسؤول في الغرب، وأكثر من مصدر، حتى صارت على صفحات الجرائد..

أما عن هذا التحول المتعصب وعن كيفية اختراق معقل البابوية العتيد، فمن المعروف في العصر الحديث أن الصهيونية المتمركزة في الولايات المتحدة، والمحركة لها، قد اعتمدت على المسيحيين الأمريكيين لتنفيذ مآربها.. خاصة وأن البابا كان يمثل السلطة العليا، أو الأولى والأخيرة، في شؤون الدنيا واللاهوت.. وأي تغيير أو تعديل لا بد وأن يمر عبر البابا «خليفة الله على الأرض» كما يقولون.. ومن هنا استطاع هرتزل أن يجد مدخله للاحتيال وفقاً لما أورده في مذكراته: «منذ حوالي عامين أردت أن أجد حلاً للمسألة اليهودية بمساعدة الكنيسة الكاثوليكية على الأقل في النمسا. أردت التوصل لمقابلة البابا، بالطبع بعد التأكد من تأييد رؤساء الكنيسة النمساوية ومخاطبته بما يلي: ساعدونا ضد المعادين للسامية وأنا أقود حركة كبيرة لدخول اليهود الحر المستقيم في المسيحية (الجزء الأول، برلين 1934)..

وكان المدخل الحديث إلى الفاتيكان هو المجمع المسكوني الثاني، ومناقشته موضوع المركزية وضرورة توسيع مسؤوليات كبار رجال الكنيسة في أماكن تواجدهم، واستجاب البابا بولس السادس لهذه الفكرة وأعلن في الخطاب الذي ألقاه في المجمع في سبتمبر 1963 أنه لا يعارض في أن يشترك معه بعض ممثلي الكنيسة في ممارسة السلطات العليا.. وفي الدورة النهائية لهذا المؤتمر، أي في سبتمبر 1965 أعلن إنشاء مجلس من البطاركة لمعاونته في

شؤون الكنيسة ـ وكان من بينهم أساقفة أمريكيين.. وبذلك تمخض المؤتمر ـ على الرغم من كل الآيات الواردة في العهد الجديد والتي تكشف وتثبت تآمر اليهود وإصرارهم على قتله، قادة وحكاماً وشعباً مع سبق الإصرار ـ بل وعلى الرغم من كل الآيات التي في الكتاب المقدس بعهديه والتي تتهم هؤلاء اليهود، «المراؤون» الذين انحرفوا بالعقيدة وحادوا عنها، والذين قال عنهم السيد المسيح: «لم أرسل إلاّ إلى خراف بني إسرائيل الضالة» (متى 15: 24).. محملين في قرار تبرئتهم هذا وزر قتله على «البشرية جمعاء».. أو حتى على المسيحيين وحدهم كما سبق وأشرنا، إذ يأتون بعد سبعة عشر عاماً، يعدلون هذا القرار ثانية في الكتاب الديني الجديد الذي ظهر في الأسواق الغربية في 18 نوفمبر 1992، والذي أعلن فيه: «أن الكنيسة لا تتردد في تحميل كافة المسيحيين المسؤولية الكبرى في مقتل يسوع، تلك المسؤولية التي كثيراً ما أدانوا بها اليهود وحدهم» (**الكتاب الديني** صفحة 131).. والأكثر من هذا أنه تم استبدال تعبير «شعب إسرائيل» الذي لا يشار إليهم بتعبير سواه في الكتاب المقدس بعهديه، استبدلوه بتعبير «أمة إسرائيل».. مما يعني اعترافاً رسمياً ودينياً بالكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة!!.

* * *

وقبل الانتقال إلى الخط الثاني من التزييف والذي يرمي إلى استبعاد كل ما يتعلق بالتنبؤ بسيدنا محمد ومحاربته حتى قبل أن يولد، وتناول ذلك الاستبعاد المواكب لعملية تزييف النصوص الدينية نفسها أو تحريف معناها، وهو ما أوضحنا طرفاً منه في الصفحات السابقة. لا بد لنا من الإشارة بشكل خاطف إلى تلك الأناجيل المستبعدة والتي يطلقون عليها «محتجبة» أو «سرية».. ولا نظنه غريباً أن يثار هذا الأمر منذ حقب باكرة..

إذ يقول روفين Rufin (335 ـ 395)، رجل السياسة الروماني في القرن الرابع ووزير تيودوز: «إن الأناجيل التي يحجبونها عبارة عن نصوص لا يود الآباء أن يقرأها الجميع... ومنها إنجيل «أفعال بولس» الذي ظهر في أواخر القرن الثاني وتم استبعاده، وخاصة إنجيل القديس بطرس، زعيم الحواريين، وكان من أوائل الأناجيل المستبعدة لاحتوائه على ما ترى الكنيسة أنه مخالف للحقيقة من حيث أن المسيح **لم يتجسد** بالفعل بعد وفاته وإنما ظهر على

هيئة شكل إنساني» أي أنه ظهر كروح (ف. اميو F. Amiot **الأناجيل المحتجبة**). ولا يسعنا هنا إلاّ أن نورد قول السيد المسيح لحوارييه: «ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم انظروا يديّ ورجليّ إني أنا هو جسوني وانظروا الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ويتعجبون قال لهم أعندكم ههنا طعام» (لوقا 24: 38 - 41).. الأمر الذي يشير إلى اضطراب في القول حيث أن الروح تختلف عن الجسد وأنها من مادة أثيرية.

ومن الغريب أن هذه الأناجيل المستبعدة تتضمن الكثير من الوقائع التي أصبحت تمثل جزءاً من الطقوس التعبدية في الكنيسة ولا أثر لها في أي واحد من الأناجيل الرسمية المعتمدة، وذلك مثل صعود السيدة العذراء «أم الله» إلى السماء والاحتفال به يوم أول نوفمبر، والاحتفال بالقديس يواكيم، والدها في السادس عشر من شهر أغسطس، والاحتفال بالقديسة آن، والدتها، في السادس والعشرين من شهر يوليو، وكثير غيرها من الوقائع التي لا وجود لها إلاّ في الأناجيل المحتجبة.. وخاصة كل ما يتعلق بالقديس أندريا، الحواري وشقيق القديس بطرس» الذي استشهد وهو يحاول منع الجماهير من تسليم المسيح وانطلق على الصليب بالفعل وظل يحتضر لمدة يومين لم يكف خلالها عن تكرار عقيدة المسيح - ولا أثر له في «العهد الجديد» (ف. اميو **الأناجيل المحتجبة**). ولا شك في أن هذا القول يمثل معطى جدير بالبحث والدراسة، لذلك يتساءل المؤلف «كيف يمكن إنكار أهمية هذه الأناجيل؟.. أن مجرد معرفة أن بعض كبار كتاب المسيحية القدامى من أمثال القديس إيريني، وترتوليان، والقديس يوحنا كريزستوم قد تولوا أمر مهاجمتها في كتاباتهم المتعددة لدليل واضح على أهمية هذه الأناجيل».

وكان أوريجنوس (186 - 254) وهو من كبار علماء اللاهوت في القرن الثالث قد أوضح أن إنجيل بطرس وإصحاح يعقوب في غاية الأهمية بالنسبة لفهم قضية أشقاء السيد المسيح، وأنهم أنصاف أشقاء، أي من زيجة سابقة للقديس يوسف النجار قبل خطبته للسيدة العذراء.. لذلك اضطهده المتعصبون وخاصة لسلاطة لسانه.. وفي مدينة أفسوس كانت عبادة السيدة مريم قد أدخلت منذ القرن الثالث بعض عناصر عبادة الإلهة عشتروت Astarté، ومنذ

منتصف القرن الرابع بدأ نسّاجو المسيحية يحولون عيد انتصار ميترا Mithra على أنه مولد يسوع.. وكان كليمنس الروماني يصف هذه الاحتفالات بأنها بدعة خرافية، بينما أدانها أوريجنوس في **خطبه الدينية** (حول اللاويين 8) حيث قال: «إنهم يعاملون يسوع كفرعون»!!.

ولا تعليق لنا حول استبعاد إنجيل بطرس ـ الذي لا يعد زعيم الحواريين فحسب، وإنما يعتبر مؤسس الكنيسة الكاثوليكية أو «الحجر» الذي تم تشييدها عليه ـ إلاّ بالإشارة إلى ما فعلته تلك الأيادي العابثة التي لا محرم عندها ولا مقدس..

ولم يكن القديس بطرس الوحيد من الحواريين الذين استبعدت كتاباتهم فإن ما أصاب برنابا أشد وأنكى.. فإذا ما نظر القارىء في أي قاموس مدرسي بحثاً عن اسم برنابا لقرأ: «أن بولس وبرنابا كانا أول المبشرين بالإنجيل» (لاروس الصغير)!.

وإذا ما تتبعنا كل ما ورد عن برنابا أو بعض منه في العهد الجديد، وهو المرجع الديني الرسمي والذي في متناول يد كافة القراء، لقرأنا عنه ما يلي، وهو بعض مما جاء في **أعمال الرسل**:

«فإذا علم بالنعمة المعطاة إلى يعقوب وصفَا ويوحنا المعتبرين أنهم أعمدة **أعطوني وبرنابا يمين الشركة** لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان» (2: 9)؛ «ويوسف الذي دعي من الرسل برنابا الذي يترجم ابن الوعظ وهو لاويّ قبرصي الجنس **إذا كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل**» (4: 36 ـ 37). وفي النسخة الفرنسية ترد هذه الفقرات تحت عنوان «كرم برنابا»..

ونواصل القراءة: «ولما جاء شاؤول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ **فأخذه برنابا واحضره إلى الرسل وحدثهم** كيف أبصر الرب في الطريق وأنه كلمه وكيف هاجر من دمشق باسم يسوع. فكان معهم يدخل ويخرج في أورشليم ويجاهر باسم الرب يسوع» (9: 26 ـ 28).

ولقد كان له دور له أهميته في أعمال التبشير التي يقوم بها الرسل: «فسمع الخبر عنهم في آذان الكنيسة التي في أورشليم فأرسلوا برنابا لكي يجتاز

إلى انطاكيا. الذي لما اتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب. **لأنه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان. فأنضم إلى الرب جمع غفير** (11: 22 - 24). «ونرى تلك الأيام... جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة... ففعلوا ذلك مرسلين إلى المشايخ بيد برنابا وشاؤول» (11: 27 - 30)..

والأهم من ذلك في هذا التسلسل لمكانة برنابا أن نقرأ: وكان في انطاكية في الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان الذي يدعى نيجر و... بينما هم يخدمون الرب ويصومون قال **الروح القدس افرزوا لي برنابا وشاؤول للعمل الذي دعوتهما إليه.** فصاموا حينئذٍ وصولوا ووضعوا عليهما الأيادي ثم أطلقوهما. فهذان إذ أرسلا من الروح القدس انحداراً إلى سلوكية»... (13: 1 - 4) «ولما انفضت الجماعة تبع كثيرون من اليهود والدخلاء المتعبدين **بولس وبرنابا اللذين كانا يكلمانهم ويقنعانهم أن يثبتوا في** نعمة الله (13: 42 - 43).

وبعد طردهما من المدينة «فأما بالتبشير في ايقونية وكانا يأتيان بالمعجزات والعجائب... حتى **اعتبرهما أهل لسترة آلهة: برنابا زفس Zeus** وبولس هرمس **Hermés**. (14: 12). وعندما قام الخلاف في اليهودية حول الختان تم إرسال بولس وبرنابا إلى أورشليم؛ «رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم **مع حبيبينا برنابا وبولس** رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح» (15: 25 - 26)..

وإذا ما تتبعنا النص واستجمعنا العبارات الهامة في هذه الآيات لوجدنا أنه كان «مليئاً بالروح القدس، ثم اختاره الروح القدس لأنه كان من الأنبياء والمعلمين وافرزه للعمل الذي دعاه إليه، ثم أنه كان يعلم الناس ويقنعهم وهو مليء من الفرح والروح القدس حتى اعتبره أهل لستره أنه الإله زفس Zeus وكان الحبيب الذي بذل نفسه وأعطى كل ما عنده لأجل يسوع..

ولا يحق لنا أن نقول «بأي حق»، لكننا نكتفي بعبارة بأي عقل يمكن لمثل هذا الإنسان الذي اختاره الروح القدس وافرزه من بين الآخرين وظل يعظ ويبشر حتى اعتبره أهل لستره الإله زيوس.. ذلك الإنسان «الإله» الحبيب إلى من حوله والذي ظل يعمل» لمدة عام بأكمله وعندئذٍ أطلق تعبير مسيحيين لأول

مرة» (أعمال الرسل 11: 26)، بل والأكثر من هذا إننا نقرأ عن برنابا الذي اختاره الروح القدس وكان من الأنبياء، أنه مؤسس كنيسة إنطاكيا، ثم.. استبعدته الأيادي العاتية ولما تزل!! ففي كتاب «**مقامع الصلبان**» للخزرجي، وهو من القرن الثاني عشر ميلادية يقول: «وكذلك تتأولون من الإنجيل الذي بأيديكم أنه لا نبي بعده وفيه من جهة أخرى أنه سيبعث أنبياء وفي كتبكم أنه كان بعده بإنطاكية أنبياء منهم **برنابا** وشمعون ولوقيوس»!! ولا داعي للقول أن اسم برنابا قد تم تحريفه في الطبعة التي رجع إليها محقق هذا الكتاب التراثي، إذ يورده في الهامش بعد أن تغير إلى «فاربه»! (**مقامع الصلبان** صفحة 70).

ولا يملك المرء إلاّ أن يتساءل كيف يمكن استبعاد مثل هذا الإنسان/ النبي الذي «يأتي بالمعجزات والعجايب» وكل مكانته الفريدة المتميزة التي رأيناها، وكيف يمكن استبعاد إنجيله ورسائله من ضمن ما تم استبعاده؟! والإجابة جد مريرة واضحة، ذلك أنه يصعب إدخاله أو الاستعانة به في لعبة التحريف المزدوجة لكل ما يتضمنه من حقائق مغايرة لما تم نسجه.. ويقوم الدكتور خليل سعادة بتلخيص هذه الحقائق منها:

1 ـ أن يسوع أنكر ألوهيته وأنكر أنه ابن الله، وذلك على مرأى وسمع ستمائة ألف جندي وسكان اليهودية من رجال ونساء وأطفال.. (وقد رأينا أن الفاتيكان في كتابه الديني الحديث قد استبدل تعبير «ابن الله» بتعبير «يسوع الناصري»).

2 ـ أن الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة إنما هو إسماعيل وليس إسحاق، وأن الموعد إنما كان بإسماعيل.. (وهو ما سوف نؤكده في الجزء التالي من هذا البحث).

3 ـ أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع بل محمد.. (وهو ما قام العديد من الباحثين بإثباته ومنهم عبد الأحد داود وميسادييه..)

4 ـ أن يسوع لم يصلب بل حمل إلى السماء وأن الذي صلب إنما كان يهوذا الخائن.. (وعدم وفاة السيد المسيح مصلوباً أصبح من النقاط التي يثبتها عديد من الباحثين الغربيين المسيحيين وغيرهم لكي لا نشير إلى آية القرآن التي تقول صراحة: «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم».

ويؤكد عبد الأحد داود أن إنجيل برنابا يتضمن آيات شديدة الوضوح

تدل على «أن السيد المسيح أكد في أكثر من موضع أن أحمد الناس القادم، من نسل إسماعيل وليس من إسحاق وداود» (**محمد في الأنجيل** صفحة 89)..

وهنا نستشهد بقول القس الدكتور شارلس فرنسيس بوترن، في كتابه «**السنون المفقودة من المسيح تكشف**: «أنه لدينا الآن وثائق كافية تدل على أن المخطوطات [مخطوطات قمران المكتشفة عام 1948] هي حقيقة موهبة الله إلى البشر لأنه في كل ورقة تفتح تأتي إثباتات جديدة على أن المسيح كان كما قال عن نفسه «ابن الإنسان» أكثر منه «ابن الله» كما ادعى عليه ذلك أتباعه وهو منه بريء. ويقول في نفس الكتاب: «إن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول، وأن المخطوطات التي اكتشفت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل» (وارد في كتاب **هكذا بشرت الأناجيل** صفحة 114 ـ 115).

ويبدأ إنجيل برنابا بالفقرة التالية: «أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً مجوّزين كل لحم نجس الذين ضل في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلاّ مع الأسى وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما اكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً (2 ـ 9). وليس بغريب أن نجد اسم بولس هنا مقترناً بالشيطان، فقد سبق للسيد المسيح أن نهره بنفس هذا النعت..

ومن الواضح أيضاً أن النزاع الذي نشب بين بولس وبرنابا هو السبب في كتابة هذا الإنجيل وهو السبب أيضاً في استبعاده.. وقد ثبت هذا النزاع في سفر أعمال الرسل: «فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر». (15: 39).

ولا تعليق لنا سوى الإشارة إلى النقطة الأولى وهي «أن يسوع أنكر الوهيته وأنكر أنه ابن الله وبالمثل الإشارة إلى ما ورد في **الكتاب الديني الكاثوليكي** الجديد الذي أشرنا إليه للتو وفي صفحات سابقة، حيث تم فيه

استبدال لفظة «ابن الله» بتعبير «يسوع الناصري» من ضمن ما تم من تغيير يهدف إلى التقارب مع اليهود وتبني موقفهم الاستيطاني..

بل ومن الغريب أن نجد الفاتيكان الذي دأب على استبعاد برنابا وإنجيله ورسائله منذ القرن الخامس، على الرغم من مكانته كنبي مختار، لأنه قال صراحة أن عيسى نبي وليس إله، وأن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق، وأن النبي القادم محمد خاتم الرسالات، ها هو يستعين ويستشهد به في الكتاب **الديني الكاثوليكي الجديد** في باب «المساهمة في الحياة الاجتماعية» بند رقم 1905 صفحة 398، في نقطة «الصالح العام». بمعنى أن هذه المساهمة تمثل مجمل الظروف الاجتماعية التي تسمح للجماعات وكافة أعضائها أن تصل إلى الكمال بصورة عامة وأكثر يسر، إذ يقول برنابا: «لا تعيشوا منعزلين، منطوين على أنفسكم، وكأنه قد تم تبرئتكم، وإنما تجمعوا لتبحثوا معاً عما يمثل الصالح العام» (رسائل 4: 10).. كما يستعين به في باب الوصية الخامسة، مادة «احترام الحياة الإنسانية (بند 2271 صفحة 265) المتعلق بتحريم الإجهاص!.. ذلك لأن نيافة البابا شخصياً يعارض الإجهاد ووسائل منع الحمل، كما يعارض الطلاق وترسيم الراهبات، ويعتبرها من الموضوعات التي أعلن محاربتها بلا هوادة..

وها هو يستشهد برسالة أخرى لبرنابا إذ يقول: «أن الله سيد الحياة، قد عهد إلى الإنسان بمهام الحياة النبيلة، وعلى الإنسان أن يتولاها بطريقة جديرة بمكانة الله. فلا بد إذن من حماية الحياة بعناية فائقة منذ بداية الحمل: إن الإجهاض وقتل الأطفال يعد من الجرائم المبغوضة» (رسائله 19: 5).

ولا نملك إلاّ أن نتساءل: ترى هل هي بداية عودة إلى الطريق الصواب والاعتراف ببرنابا وإنجيله ورسائله، أم أنها مجرد الغاية تبرر الوسيلة والمطلوب هو أي استشهاد يفي بالغرض؟!.

لذلك لم يكن بغريب أن يقول ج. ميسادييه: «لقد تم اختراع المسيحية بواسطة ورثتها، وذلك ابتداء من القرن الثاني، أي بعد قرن من وفاة يسوع» (**الإنسان الذي أصبح الله** الجزء الثاني، صفحة 146).. ولم يكن ذلك بجديد إذ أن أحمد الخزرجي كان قد كتب في القرن الثاني عشر قائلاً: وأما دين الصليب الذي أنتم عليه فإنما أنشأه قسطنطين بن هيلاني بالقهر والرئاسة.

والدين الذي جاء به المسيح لم يلبث بعده أربعين سنة مغموراً وأهله مستضعفون، ثم اختل كما قدمت ذكره» (**مقامع الصلبان** صفحة 192).

* * *

بقي أن نتناول عمليات التحريف التي تمت لاستبعاد الإشارة إلى سيدنا محمد من الكتاب المقدس بعهديه، لغلق باب النبوة وجعل عيسى بن مريم آخر الأنبياء.. فعلى الرغم من كثرة ما كتب في هذا الموضوع، في مختلف العصور وبشتى اللغات، إلاّ أنه لا بد من إعادة تناوله من جديد، من خلال الآيات التي ما زالت باقية شديدة الوضوح، على الرغم من كل ما لحق بهذه النصوص من تحريف منذ القرن الأول الميلادي حتى يومنا هذا، آملين المساهمة في وضع حد لذلك التعصب الأكمه ـ الذي لا يسمع ولا يرى ـ والذي يجتاح الغرب.

ولن نذكر هنا إلاّ بعضاً من أسماء علماء أجلاء تناولوا هذا الموضوع واثبتوا بالأدلة والقرائن التنبؤ بمجيء سيدنا محمد كما هو وارد بالكتاب المقدس بعهديه، ومنهم على سبيل المثال: الجاحظ، واليعقوبي، والمسعودي، والخوارزمي، وابن الوردي، والطوفي، والقرطبي، والخزرجي، والطبري، وابن عباس المغربي، والقلقشندي، والمقدسي، وابن ادريس، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وأبو القاسم القيس، وعبدالله الترجمان، وعبدالصمد السهراوي، وعبد الأحد داود، وابن الخطيب، ومحمود قراعة، والدكتور السقا وغيرهم.. وهي أسماء تمتد من القرن التاسع الميلادي حتى يومنا هذا..

ولو أننا تتبعنا بدايةً ما كتب في العهد القديم، في موضع سيدنا إبراهيم وابنه البكر إسماعيل، لقرأنا الآتي: «بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى إبرام في الرؤيا قائلاً. لا تخف يا إبرام. أنا ترس لك. أجرك كثير جداً، فقال إبرام أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً وما لك بيتي هو اليعازر الدمشقي. قال إبرام أيضاً إنك لم تعطني نسلا وهوذا ابن بيتي وارث لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً. لا يرثك هذا. الذي يخرج من احشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى الخارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك فآمن بالرب فحسبه له براً. وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها». (تكوين 15: 1 ـ 7).

ثم ينتهي الإصحاح الخامس عشر بتأكيد الميثاق: «في ذلك اليوم قطع

الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

ونخرج من هذا النص بالنقاط التالية:

1 ـ أن سيدنا إبراهيم عقيم وعلى وشك الوفاة، ومالك بيته اليعازر الدمشقي سيرثه.

2 ـ تحديد الرب له أن أليعازر لن يرثه وإنما الوارث هو من يخرج من أحشائه.

3 ـ أخرجه الرب وأراه عدد نسله الذي سيكون في مثل عدد نجوم السماء.

4 ـ أن وعد الأرض لنسل إبراهيم.

ثم تتوالى الأحداث ونفهم أن سارة عاقر ولم تلد: «وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لأبرام هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة. أدخل على جاريتي لعلّي أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي. فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان **وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له.** فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها. فقال ساراي لأبرام ظلمي عليك أنا دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك. فقال أبرام لساراي هوذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك. فأذلتها ساراي. فهربت من وجهها» (تكوين 16: 1 ـ 6).

ونخرج من هذا النص بعديد من الدلالات منها:

1 ـ أن ساراى عاقر.

2 ـ أن هاجر إنسانة أمينة، فهي في الدار منذ عشر سنوات ولم تتعد على ساراى.

3 ـ أن ساراي قد دفعت بهاجر في حضن سيدنا إبراهيم.

4 ـ أن إبراهيم قد اتخذها زوجة شرعية ودخل عليها وحملت.

5 ـ وأن ساراي قد غارت من هاجر عندما حملت فأذلتها لدرجة دفعتها إلى الهروب.

وتتابع القصة في نفس سفر التكوين: «فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية. على العين التي في طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب **تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة.** وقال لها ملاك الرب **ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسمعيل** لأن الرب قد سمع لمذلتك **وأنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع أخوته يسكن.** فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل ربي لأنها قالت أههنا أيضاً رأيت بعد رؤية لذلك دعيت البئر بئر لحي رئي. ها هي بين قادش وبارد. **فولدت هاجر لأبرام ابناً. ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر اسمعيل.** وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة ولما ولدت هاجر اسمعيل لأبرام» (تكوين 16: 7 ـ 16).

وقبل أن نخرج بالنقاط الأساسية من هذا النص نود توضيح الفارق الشديد بين صياغة هذا النص في الإنجيل الذي طبع عام 1966 والإنجيل الذي رجع إليه الإمام القرطبي في القرن الثاني عشر إذ يقول بدلاً من الجزء الذي وضعنا تحته خطاً) «**ويكون ابنك هذا وحشياً من الناس. يده على كل. ويد كل به.** وسيحل على جميع حدود أخوته. فدعت اسم الرب الذي كلمها: فقالت أنت الله ذو الوحي والرؤيا» (**الإعلام بما في دين النصارى من الفساد**، صفحة 231).

أي أن عبارة «يده على كل. ويد كل به» قد أصبحت: «يده على كل واحد ويد كل واحد عليه» فالعبارة الأولى تعني القسم والتماسك، بينما الثانية تعني التطاول.. كما أن عبارة «وسيحل على جميع حدود أخوته» في النص القديم قد أصبحت: «وأمام جميع أخوته يسكن»، وهي تعني في النص القديم أن نفوذه سيمتد إلى كافة حدود أخوته، بينما تعني في النص المحرف أنه سيسكن فحسب أمام كافة أخوته، وإن كان النص في كلتا الحالتين يثبت إقامة إسماعيل في المناطق التي على حدود أخوته.

علماً بأن نص هذه الآية في اللغة العربية ووفقاً لما أورده الطبراي في القرن التاسع كما يلي: «ارجعي إلى سيدتك واخضعي لها فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً وتسميه اسمعيل، لأن الله قد سمع تبتلك وخشوعك، وهو يكون **عَيْرَ الناس** وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه، ويكون مسكنه على تخوم جميع أخوته (**الدين والدولة** صفحة 131).

وهنا لا بد من توضيح تعبير «عَيْرَ الناس»، مثل «عير النصل» أي الخط البارز في وسطه طولاً، أي أبرز وأحد ما في النصل. كما أن كلمة عير وحدها تعني الحمار الوحشي. وهو ما لا مكان له إطلاقاً في قول الله هنا. إلاّ أن هذه العبارة قد تحولت في القرن الثاني عشر إلى وحشياً كما رأينا وسنشرحها عما قليل، كما تحولت في النص الفرنسي إلى حمار وحشي بدلاً من معنى التمييز!.

وأهم ما نخرج به من هذه الجملة الأخيرة على الرغم من كل ما اعتراها من تغيير هو لفظة «أخوته» أو «جميع أخوته» الذي سنتناوله بالإيضاح فيما بعد. أما بقية الفقرة في النص القديم: فدفعت اسم الرب الذي كلمها فقالت **أنت الله ذو الوحي والرؤيا** وهي تقرير واقع وخضوع من هاجر لمشيئة الله، إلاّ أنه تم تحريفها لإستبعاد الوحي والرؤيا عن هاجر أم إسماعيل.

وما نخرج به من هذه الفقرة الثانية، والتي تمتد في الإصحاح السادس عشر من الآية السابعة إلى الآية السادسة عشر، فهو أن:

1 ـ ملاك الرب أمر هاجر بالعودة والخضوع لسيدتها ولا شك في أن طلب عودتها حفاظاً على نسل سيدنا إبراهيم.

2 ـ وعدها ملاك الرب بأن يكثّر نسلها تكثيراً فلا يعد من الكثرة.

3 ـ أخبرها أنها حامل وستلد ابناً اسمه إسماعيل.

4 ـ وأن هذا الابن سيكون وحشياً، أي من أهل اليمن، وسيسيطر على جميع أخوته.

5 ـ أن ملاك الرب قد بشر هاجر وكرمها بأنها ستلد ابناً غظيماً واسع النسل والنفوذ، وأنه بذلك قد وضع هاجر في مصاف النساءالمكرمات اللائي

كرمهن الله بالبشارة مثل اليصابات أم يوحنا المعمدان والسيدة مريم العذراء..

وكلمة الوحشي تعني الجانب الأيمن من كل شيء، وهي تختلف تماماً عما تعنيه كلمة «المتوحش» أي المنتمي إلى الحيوانات المتوحشة، كما ترد في ترجمة الآية في النص الفرنسي من الإنجيل طبعة 1986:

La Bible de Jérusalem:

«Tu es enceinte et tu enfanteras un fils, et tu lui donneras le nom d'Ismael, car yahvé a entendu ta détresse celui-là sera un **onagre** d'homme, sa main contre tous, la main de tous contre lui, il s'établira à la face de tous ses frères» (p. 45)

وتعني هذه الصياغة: «أنك حامل وستلدين ابناً وتسمينه اسماعيل، لأن يهوه قد سمع شكواك وهذا الابن سيكون رجلاً كالحمار المتوحش يده ضد الجميع ويد الجميع ضده، وسيسكن أمام جميع أخوته»؟!!.

ولا تعليق على تحريف متدني الهدف والمغزى، إلاّ أن نشير إلى الهامش الذي يوجد في الطبعة الفرنسية ليشرح معنى كلمة onagre، أي حمار متوحش، حيث يرد فيها: «أن سلالة إسماعيل هم عرب الصحراء، المستقلون المتشردون كالحمار المتوحش»! (صفحة 45) وكلمة المستقلون في صياغتها هذه تعني الهائمون الخارجون على أي قانون.. وذلك هو ما ترضعه أجيال الغرب من تعصب وتحريف ديني في كتابها المقدس على مر العصور.. خاصة وأن هذا الهامش الفرنسي ينتهي بالإشارة إلى سفر أيوب، إصحاح 39، الآيات من 5 إلى 8.. ويا للدقة والأمانة العلمية شكلاً لتثبيت المغالطات في أذهان القارىء.. فهذه الآيات بل والإصحاح بأسره يشير إلى الله وعظمته المحرك لجميع خلقه ولا علاقه أو أية إشارة إلى العرب في هذا الاصحاح إلاّ إيهام القارىء بأن هذه الكلمة السبة ترد في أكثر من موضع!.

بقي تعبير «جميع أخوته».. فمن الواضح أن إسماعيل، وحيد والده آنذاك، سيرزق بأخوة آخرين وأنه سيسكن على كل حدودهم وأمامها. وهو ما جاء في بقية السفر وإقامته في شبه الجزيرة العربية.. أما في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين، فنقرأ استكمالاً للموضوع:

«ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير **سر أمامي وكن كاملاً**. فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً.

فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمما. وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي **بيني وبينك وبين نسلك** من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً **لأكون إلهاً لك ولنسلك** من بعدك. **وأعطي لك** ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون الههم» (1 ـ 8).

ونخرج من هذه الفقرة بالنقاط التالية:

1 ـ العهد تم بين الله وإبراهيم بأنه سيكون أباً لجمهور من الأمم، شريطة أن يكون كاملاً مستقيماً.

2 ـ تغيير اسمه من أبرام إلى إبراهيم.

3 ـ تحديد أن العهد يقع بين إبراهيم ونسله مع تكرارها ثلاث مرات.

4 ـ أن إسماعيل هو وما زال عند إتمام هذا العهد ـ وحيد والده، سيدنا إبراهيم وكان إسماعيل في الثالثة عشر من عمره.

5 ـ استخدام النص تعبير «نسلك» هنا إشارة إلى أن إبراهيم سيرزق بابن أو بأبناء آخرين سيولدون فيما بعد.. وبالفعل سينجب بعد ذلك بعام من سارة، وبعد موتها سيتزوج من «قطورة فولدت له زمران ويقشان ومران ومديان وشياق وشوحا» (تكوين 25: 1 ـ 2).

والمكتوب أن سيدنا إبراهيم عاش حتى بلغ مائة وخمسة وسبعين من عمره (25: 7).. إلاّ أن العهد قد تم لسيدنا إبراهيم وابنه البكر إسماعيل. وذلك يعني أن وعد الله وميراث الأرض من النيل للفرات وكل ما وعد به يخص إسماعيل وذريته. وذلك وفقاً للشريعة اليهودية السائدة آنذاك ووفقاً لأهمية الابن البكر. الأمر الذي نطالعه بلا مواربة: «إذا كان لرجل امرأتان احداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة. فإن كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنيه ما كان له لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكراً على ابن المكروهة البكر بل يعرف ابن المكروهة بكراً ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية» (تثنية 21: 15 - 17).

وهو ما لا يدع مجالاً للشك في أن إسماعيل حقاً وشرعاً وقانوناً هو

الابن البكر لسيدنا إبراهيم. وإن لم يكن هذا الأمر بجديد، فقد أوضحه العديد من الأمناء في أبحاثهم وأن استبعاده يعد أكبر جريمة تزوير ومغالطة تاريخية..

بل إنه القانون الذي ما زال سارياً حتى يومنا هذا. لأن قانون الأحكام الشرعية للإسرائيليين المعمول به حالياً ما زال يلتزم بتطبيق هذا القانون، إذ تنص المادة 491 من الباب الخامس عشر، حول امتياز الابن البكر في الميراث على ما يلي: «للولد البكر من الأب مثل حظ الولدين فهو مميز بسهم بعلة البكورة». وهذه المادة مأخوذة عن كتاب حوش مشباط مادة 1 ف .277 كما تنص المادة 509 من نفس الباب الخامس عشر للأحكام الشرعية للإسرائيليين على ما يلي: «إذا أقر الأب بالبكورة فلا يجوز له إنكارها بعد». وهذا البند أيضاً مأخوذ عن كتاب حوش مشباط، حاشية مورام مادة 12 فصل .77

أما المادة رقم 502 من نفس هذا الباب الخامس عشر والخاص بأحوال امتياز الابن البكر في كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية عند الإسرائيليين، والتي تنص على أن: «البكر من الجارية أو الأجنبية لا يمنع البكورة عن الإسرائيلية بعدها، وهي أيضاً مأخوذة عن كتاب حوش مشباط مادة 9 ف 77، فلا يمكن أن تنطبق على إسماعيل لأن هاجر لم تعد جارية عندما دخل بها إبراهيم وإنما كانت زوجة شرعية كما هو ثابت في سفر التكوين، كما أن العهد الذي تم بين الله وإبراهيم والممثل في الختان، قد قام إبراهيم بتنفيذه فوراً على نفسه وعلى ابنه الوحيد البكر إسماعيل، وعلى جميع رجال بيته. وأن ذلك لهو أكبر دليل على الاعتراف بإسماعيل وبأنه الابن البكر و«المميز بسهم البكورة» والذي يحق له شرعاً ضعف نصيب جميع أخوته سواء أكانوا من سارة أم من قطورة. وأن استبعاده على لسان سارة ليس إلاّ خرقاً لشرع الله وتحريفاً وتزويراً لما نزله.

وتتضمن الفقرة التالية ميثاق العهد، إذ نقرأ:

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالكم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم» (9 ـ 12).

ونخرج من هذا الجزء من هذه الفقرة بما يلي:

1 ـ تغيير اسم أبرام كتابة ليصبح إبراهيم، بالتشكيل الجديد، وكأنه جزء من العهد.

2 ـ اعتبار الختان هو العهد الذي يلتزم به إبراهيم ونسله وكافة أجيال الذكور من بعده.

ثم نقرأ في نفس هذا الاصحاح السابع عشر عن تبشير سارة بأنها ستحمل وتلد.. «وقال إبراهيم لله ليت إسمعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة (18 ـ 21). ثم أخذ سيدنا إبراهيم ابنه إسماعيل وجميع ولدان بيته ليختنوا. وكان هو في التاسعة والتسعين من عمره، أما إسماعيل، ابنه البكر، فكان في الثالثة عشر.

والملفت للنظر في الآيات السابقة هو تكرار «أن العهد يقام مع إسحاق» الأمر الذي لا يستقيم وما سبق من نفس الإصحاح إذ أن العهد قد تم بالفعل مع سيدنا إبراهيم بدءاً بتغيير اسمه ثم امره الله مكرراً العبارة ثلاث مرات أن يكون العهد: «بيني وبينك وبين نسلك»، «لأكون إلهاً لك ولنسلك». و«أعطي لك ولنسلك» (7 ـ 8) ولم يقل لابنك في كل هذه الآيات. ثم قال في الآية العاشرة «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك» وقام إبراهيم بتنفيذ ذلك العهد فوراً واختتن هو وابنه البكر ـ فلم يكن إسحاق قد ولد أو حتى قد حُبل فيه.. كما ختن أهل بيته من الذكور.. فهل يستقيم ذلك مع ما ورد في جزء من الآية التاسعة عشرة من إقامة العهد مع إسحاق وحده؟!.

وحيث أنه لا يمكننا إتهام كلام الله بالتناقض أو التحريف والمغالطة فلا يبقى إلاّ تأكيد أن هناك تحريفاً يقيناً لتمييز إسحاق ونسله واستبعاد إسماعيل ونسله.. فإن كان ما يقصده الله هو التفرقة والاستبعاد لما باركه وأقره وكثره كثيراً جداً كما وعد، ولما تحدد أنه سيلد إثني عشر رئيساً ولما جعله أمة كبيرة..

ثم يبدأ الإصحاح الثامن عشر ويتضمن البشارة بالابن الثاني لإبراهيم: «ويكون لسارة امرأتك ابن». ومرة ثانية يؤكد الرب ما وعد به إبراهيم قائلاً:

«وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن **يحفظوا طريق الرب ليعلموا براً وعدلاً** لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به» (18 ـ 20). ونخرج من هذا الوعد الثاني بما يلي:

1 ـ التأكيد على أنه سيكون لإبراهيم أمه كبيرة قوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. ولا يوجد من هم يتباركون بسيدنا إبراهيم في صلواتهم الخمس يومياً كالمسلمين الذين هم نسل ابنه البكر إسماعيل.

2 ـ التأكيد على شرط الاستقامة وعمل البر والعدل لكي يتحقق كلام الرب. وما قام به الإسرائيليون من تكرار خروجهم عن الدين وما اقترفوه من ظلم وعودة للوثنية وتعدد الآلهة لمعروف على مر العصور بعد ذلك الوعد، وإلاّ لما أرسل الله السيد المسيح إلى «خرافه الضالة». ثم ننتقل بعد ذلك إلى الإصحاح الحادي والعشرون من نفس سفر التكوين الذي نحن بصدده، ونقرأ عن مولد الطفل الثاني لإبراهيم في الوقت الذي حدده الرب «ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته ساره إسحق. وختن إبراهيم إسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. ثم كبر الولد وفُطم «وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق».

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح **فقالت لإبراهيم أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق.** فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك» (9 ـ 13).

ونخرج من هذه الفقرة بما يلي:

1 ـ الكشف عن نفسية سارة التي امتهنت كرامتها كأنثى أملا في تحقيق وعد الله ودفعت بجاريتها في حضن زوجها لتنجب له.. وعندما أكرمها الله بولد فإنها طردت جاريتها بابنها.. (ولا تعليق).

2 ـ الإصرار في النص على التمييز بين إسحاق وإسماعيل.

3 ـ إن سارة هي التي غارت وطلبت من إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها وهي التي حددت أنه لا يجب أن يرث مع إسحاق ـ وليس الله أو الكتاب كما سيقال فيما بعد في «أعمال الرسل»!.

4 ـ التأكيد ثانية على أنه سيكون لإسماعيل أمة لأنه من نسل إبراهيم.

5 ـ التناقض الواضح في عبارة «بإسحق يدعى لك نسل» وعدم مصداقيتها في هذا السياق لأن نسل إبراهيم بدأ بإسماعيل الذي كان أول من نفذ العهد وختن، فكيف يلغي هذا الواقع المعاش ولا يحسب له أي حساب ـ خاصة وأنه في الآية التالية يؤكد لإبراهيم أنه سيجعله أمة لأنه من نسله، وبعد بضعة آيات من نفس الإصحاح يؤكد الله لهاجر أنه سيجعله أمة عظيمة؟!.

ونعلم من الفقرة التالية أن سيدنا إبراهيم قد رضخ لقرار سارة وأعطى هاجر خبزاً وماءً ورحلت مع ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاماً تقريباً، إذ أنه طرد عقب وليمة فطام إسحاق، والفطام عادة ما يكون بعد سنة أو سنتين.. وتاهت هاجر وبكت وتضرعت فقال لها ملاك الرب: «لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي واحملي الغلام وشدي يدك به **لأني سأجعله أمة عظيمة** وفتح الله عينيها فابصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر» (17 ـ 21).

ونخرج من هذه الفقرة بما يلي:

1 ـ سارة هي التي قررت طرد هاجر وابنها إسماعيل، وسارة هي التي قررت أن إسماعيل لا يرث مع ابنها إسحاق. أي أنه ليس الله هو الذي حرم إسماعيل من الميراث كما يقال تحريفاً..

2 ـ قَبح الكلام في عين إبراهيم فأكد له الله أنه سيجعل لإسماعيل أمة لأنه نسل إبراهيم. وهو تكرار وتأكيد لحقيقة أن إسماعيل الابن البكر لإبراهيم ونسله.

3 ـ يحث الملاك هاجر على تحمل معاناتها مؤكداً لها «سأجعله أمة عظيمة».

4 ـ أن الله لم يتخل عن الغلام الذي نمى رامياً للقوس وسكن برية فاران.

5 ـ بعد سكن إسماعيل في فاران تزوج بمصرية من أرض مصر.

ولم نتابع ما تقدم بهذا التأني إلاّ للتأكيد على أن إسماعيل هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم، وأن سارة زوجة أبيه، هي التي طردته وهو غلام وهي التي قررت حرمانه من الميراث، وأنه نزح مع أمه هاجر إلى برية فاران وسكن بها وتزوج بمصرية. وأن ذريته نمت وترعرعت في فاران. الأمر الذي سنوضح أهميته بعد قليل، وهو من الوقائع التي يحاول متعصبو الغرب طمس معالمها وتحريفها..

وها نحن نقرأ في بداية الإصحاح التالي، أي الثاني والعشرين، أن الله قال لإبراهيم: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق» (2) ليذهب به إلى المحرقة ويضحى به ذبحاً.. كيف يمكن أن يكون وحيده وإسماعيل أكبر منه وما زال على قيد الحياة؟! ثم تتكرر نفس العبارة حيث يقال: «ولم تمسك ابنك وحيدك» (16).. وهنا لا بد وأن نتساءل هل كون إسماعيل قد طرد وسكن بعيداً فهل ذلك يعني أنه لم يعد ابن أبيه؟! أم أن هناك تحريف يقصد به استبعاد اسماعيل عن التسلسل الطبيعي للأحداث؟.

إن ابن الخطيب يؤكد قائلاً: «أن اليهود هم الذين أول من نادوا بهذه الفرية» (**هذا هو الحق** صفحة 43). ولقد رأينا أن إسماعيل ظل الابن البكر الوحيد طوال أربعة عشر عاماً، إذ أن سيدنا إبراهيم كان في السادسة والثمانين حين أنجبه، وكان في المائة من عمره حين رزق بإسحاق.

وهنا يقول الخزرجي: «وفي التوراة أن إسحاق هو الذبيح وإنما الذبيح إسماعيل ودليل ذلك أن النحر والذبح بمنى بموطن إسماعيل وأيضاً قرون الكبش كانت معلقة في الكعبة في عهد إبراهيم إلى زمان دخول الحجاج بن يوسف على عبدالله بن الزبير فاحرقت» (**مقامع الصلبان** صفحة 153).

وفي الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين نجد كشفاً «بأبناء إسماعيل بن إبراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم. وهذه أسماء بني إسمعيل بأسمائهم حسب مواليدهم. نبايوت بكر إسمعيل وقيدار وأدبئيل، ومبسام ومشماع ودومه ومسّا وحدار وتَيْمَا ويطور ونافيس وقدمه.

هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم. اثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم وهذه سنو حياة إسمعيل مئة وسبع وثلاثون سنة. وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه. وسكنوا من حويله إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور. أمام جميع أخوته نزل (12 - 18).

وما نخرج به من هذه الفقرة هو:

1 - إثبات نسل إسمعيل والاعتراف به.

2 - تحقيق النبوءة بعظمة إسماعيل وأنه سيكون له اثنى عشر عظيماً بديارهم وحصونهم.

3 - أنهم سكنوا أمام جميع أخوتهم أي أمام جميع أبناء إبراهيم الآخرين من سارة وقطورة، وأقاموا في المنطقة الممتدة من حويلة إلى آشور بما فيها جبال فاران. وذلك تحقيقاً لما ورد في سفر التكوين 16: 12 وأشرنا إليه..

وما نود التأكيد عليه فيما يتعلق بإسماعيل أنه الابن البكر لسيدنا إبراهيم، وظل ابنه الوحيد طوال أربعة عشر عاماً حتى رزق بأبناء آخرين من سارة ثم من قطورة. وأن تكون الغيرة قد دفعت بسارة إلى استبعاده عندما رأته يمزح يوم حفل فطام إسحاق فذلك لا ينفى عنه البكورة حقاً وشرعاً كما رأينا. وبما أن ملاك الرب قد أسكنه برية فاران وباركه ووعد بأن يكثره تكثيراً ويجعله عظيماً جداً جداً فذلك يعني استمرار العناية الإلهية به كابن لإبراهيم عليه أن يعمّر منطقه أخرى من الأرض، ذلك لأن الصلة لم تنقطع بينهم. فما تبقى من إشارات يؤكد على استمرار الصلة بين الأخوة وبين أبنائهم حتى أن خيام قيدار قد صارت مثلاً يتغنون بجمالها (نشيد الإنشاد 1: 5)..

وها نحن نقرأ في **قصص الأنبياء** لابن كثير، عن إسماعيل الذي كان أول من ركب الخيل، وأول من أجاد التحدث باللغة الفصحى: «ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحق. وزوّج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحق، فولدت له الروم، ويقال لهم بنو الأصفر» (صفحة 295). كما نقرأ في سفر التكوين عن وفاة سيدنا إبراهيم: «وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعان أياماً وانضم إلى قومه، ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون» (15: 8 - 9).

وعلى الرغم من استقدام النص لاسم إسحاق زوراً وتحريفاً لأن إسماعيل هو الأكبر بأربعة عشر عاماً، إلاّ أننا نخرج بأن نصوص العهد القديم تؤكد أنه منذ مولد إسماعيل حتى وفاة والده فهو يعد ابنه وأن الصلة ظلت قائمة بين أولاده ونسلهم. وأن استبعاد إسماعيل ونسله تحريف لاحق لاستبعاد أية صلة لنسب الرسول محمد ﷺ بإبراهيم عليه السلام، وفصم امتداده الطبيعي لغلق الباب أمام نسل سيدنا إسماعيل، ومنهم سيدنا محمد.

بل على العكس، لقد رأينا للتو كشف أبناء إسماعيل في سفر التكوين (25: 12 ـ 16) ومنهم قيدا الذي هو أحد أجداد سيدنا محمد وكيف أن العلاقة بين أبناء إبراهيم ظلت قائمة وتزوج الأبناء من أبناء عمومتهم.. مما يؤكد الخلط أو التحريف الذي نطالعه في رسائل بولس إلى أهل رومية حين يعلن: «بإسحاق يدعى لك نسل أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله» (9: 7 ـ 8) وهو ما يقصد به بولس أن إسماعيل مرتبة دنيا، بل يكاد قصده يشي بأنه أقرب للسفاح، وذلك على الرغم من أن كلا من إسماعيل وإسحاق قد ولدا ببشارة ووعد من الله لإبراهيم. وأن ملاك الرب قد بشر هاجر أولاً ـ مثلما بشر سارة بعد ذلك بأربعة عشر عاماً كما رأينا، وكما سيقوم ملاك الرب بتبشير اليصابات والسيدة العذراء فيما بعد.. وبالتالي فإن تأكيد بولس الرسول للمعنى السابق الإشارة إليه مرة ثانية في رسالته إلى أهل غلاطية يؤكد بداية تحريف النصوص عمداً منذ عهده، إذ نراه يكرر:

«كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة. لكن الذي من الجارية **ولد حسب الجسد** وأما الذي **من الحرة فبالوعد**. وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان أحدهما من **جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر لأن هاجر جبل سيناء في العربية** ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها. وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعاً فهي حرة. لأنه مكتوب افرحي أيتها العاقر التي لم تلد. اهتفي واصرخي أيتها التي لم تتمخض فإن أولاد الموحشة أكثر من التي لها زوج. **وأما نحن أيها الأخوة فنظير إسحق أولاد الموعد**. ولكن كما كان حينئذٍ الذي ولد حسب الجسد يضطهد الذي حسب الروح هكذا الآن أيضاً. لكن **ماذا يقول الكتاب** أطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة. إذاً أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد

الحرة» (4: 22 - 31).

التعليق جد مرير.. فلقد رأينا بوضوح أن الذي طرد هاجر هي سارة «ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها» (تكوين 21: 9 - 10) وليس «الله» أو «الكتاب» كما يزعم بولس الرسول بنصٍ يؤكد بمرارة على تفرقة طبقية تمثل نغمة نشاز بالنسبة لرسالة السيد المسيح المنادية بالمحبة أولاً وأخيراً.. كما نرى أن نفس الآيات التي يذكرها بولس تربط شبه الجزيرة العربية التي سكنها إسماعيل وذريته، بالعبودية.. كما أن استبعادهم كان سبب تحقيره لأمهم.

وتزداد الدهشة مرارة حينما نطالع إصرار بولس الرسول على المغالطة قائلاً في محاولاته الدائبة لاستبعاد إسماعيل عن نسل إبراهيم قائلاً: ولكن ليس هكذا حتى أن كلمة الله قد سقطت لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد. بل بإسحاق يدعى لك نسل. أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً». (رسالة بولس إلى أهل رومية 9: 6 - 8).

ويا لها من مغالطات ممجوجة على لسان من يعتبرونه أول بابا في روما، وهي مغالطات يتشربها الغرب على مر العصور فينمو كارهاً للعرب محتقراً محقراً من شأنهم، وبأنهم يتمسحون عنوة في إبراهيم بحثاً عن نسب يتلفعون به.. وذلك ما نطالعه في كتابات العديد من الذين يتناولون القضايا العربية أو الإسلامية في كتبهم أو حتى في القواميس والمعاجم..

ولا يعد تطاولاً منا أن نقول: أن المعروف تاريخياً أن نظام العبيد هو الذي ساعد على انتشار المسيحية. ذلك أن ثلثي الأمبراطورية الرومانية كانوا من العبيد الذين يعانون قهر الحكام وطغيانهم. والعبد، على حد قول ڤارون Varon، لم يكن سوى آلة ناطقة.. ومن الغريب أن أحداً في تلك العصور القديمة لم يقم بشيء من أجل إلغاء العبودية التي قام عليها الغرب وطغاته المتعصبون..

لقد أوضحنا فيما تقدم ما لمكانة إسماعيل وكل ما خصه الله به من تكريم ونبوءات، وكيف أنه بانتقاله وإقامته في جبال فاران وانتشار ذريته يثبت بوضوح لا مواربة فيه صحة كل النبوءات الخاصة بسيدنا محمد، مهما حاولت

الأيادي المتعصبة طمسها أو تحريفها باستبعاد سيدنا إسماعيل وذريته.

* * *

الواضح من كافة المراجع التي تناولت موضوع إثبات نبوة سيدنا محمد أن الإنجيل بعهديه يتضمن العديد من الإشارات، بل يكاد لا يخلو منها سفر من الأسفار، وإن كانت درجة الوضوح فيها متباينة وفقاً لما لحق بها من حذف وتبديل أو تحريف. ولا يسع المجال هنا لتناولها جميعاً، وإنما سنتعرض لأكثرها وضوحاً ـ على سبيل المثال لا الحصر.

ففي الفصل الحادي عشر من التوراة في السفر الخامس وهو الأخير لبني إسرائيل نقرأ: «أن الرب إلهكم يقيم نبياً مثلي من بينكم ومن أخوتكم فاسمعوا له». وتقول التوراة في نفس ذلك الإصحاح بعد عدة آيات: «أني مقيم لهم نبياً مثلك من بين أخوتهم، وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها ذلك الرجل باسمي أنا انتقم منه» (الطبري صفحة 137). ويوضح الطبري قائلاً: ولم يقم الله نبياً من أخوة بني إسرائيل إلاّ محمداً عليه السلام. وقوله من بينهم تأكيداً وتحديداً أنه من ولد أبيهم لا من ولد عمومته. فأما المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء صلى الله عليهم فإنهم كانوا منهم أنفسهم» (**الدين والدولة** صفحة 138).

وحتى قراءة الآية في نص حديث كما هو وارد في طبعة 1980، فإن المعنى لا يتغير: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من أخوتك مثلي له تسمعون... أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك **وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصي به**» (تثنية 18: 15 ـ 17). وهو ما يتفق مع ما جاء في إنجيل يوحنا في الآيات الخاصة «بالفريقليطس» والتي سنتناولها عما قليل، وغني عن القول أن عبارة «واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصي به» لا تنطبق إلاّ على سيدنا محمد، النبي الأمي، الذي كانت الرسالة توصى إليه ويبلغها هو بالكلمة..

ولقد أوضحنا آنفاً أهمية تعبير «أخوته» أو «جميع أخوته» عند التحدث عن إسماعيل وسكنه أمام أخوته أو عند تخوم جميع أخوته.. أي أن النبي القادم المشار إليه سيأتي من بين هؤلاء الأخوة الذين هم نسل إبراهيم ويسكنون فاران.

وهنا يقول عبد الصمد السهواري: «فاليهود يقولون أن هذه البشرى

لسيدنا يوشع عليه السلام لكن هذا غير صحيح لأن يوشع عليه السلام ما كان من إخوان بني إسرائيل وقد قال الله تعالى «من إخوانهم» هذا وجه والوجه الثاني أن يوشع كان نبياً في عهد موسى عليه السلام فلا يحتاج إلى بشارة والوجه الثالث أن موسى كان صاحب شريعة وكتاب ويوشع ما كان صاحب شريعة أو كتاب بل كان من أتباع موسى فكيف يقال أن التابع كالمتبوع؟ والوجه الرابع أن هذه البشرى ليست ليوشع عليه السلام كما جاء في بيبل الاستثناء باب 24 ورس 4 لغاية ورس 10 ما نصه «مات موسى عبد الله بأمر ربه في أرض المواب ودفن في صحراء المواب قرب البيت الغفور ولا يعرف أحد أين قبره. ما جاء في بني إسرائيل نبي مثله»: فثبت من هذا الجزء الأخير أن البشرى ليست ليوشع عليه السلام... فإذا نظرنا بإمعان في هذه النصوص علمنا أن بني إسماعيل هم إخوان بني إسرائيل والبشرى عن النبي في أمر بني إسماعيل وما جاء نبي في بني إسماعيل إلاّ محمد (ص) وقد كان صاحب كتاب وشريعة وجهاد كما كان موسى عليه السلام كذلك وولد رسول الله محمد ومات على مثل ما كان لموسى عليه لسلام أي موتاً عادياً بلا حادث غريب عند موته بخلاف ما كان لعيسى عند ولادته وموته فقد كان موضع دهشة العالم حيث ولد من غير أب وما تزوج وصلب (كما يقولون) فهذه البشرى في حق نبينا محمد (ص) بلا ريب وتسمى هذه البشارة بالبشارة المثالية» (**البشائر** صفحة 15 - 17).

أما السيد بشرى زخاري ميخائيل، فيقول عن هذه الآية/ البشارة، أنها «ليست بشارة يوشع كما يزعم أحبار اليهود، كما أنها ليست بشارة السيد المسيح كما يفسر ذلك علماء اللاهوت المسيحي، بل هي بشارة محمد وذلك لعدة أسباب: أن اليهود المعاصرين للمسيح كانوا منتظرين نبياً آخر مبشراً به. وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح بدليل أنهم سألوا يوحنا قائلين: أأنت المسيح؟... إنه جاء في هذه البشارة لفظ «مثلك» ويوشع والمسيح لا يصح أن يكونا مثل موسى بدليل الآية العاشرة من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية: «ولم يقم بعد ذلك نبي في بني إسرائيل مثل موسى يعرف الرب وجهاً لوجه» فإن قام أحد مثل موسى بعده من بني إسرائيل يلزم إذن تكذيب هذه الآية... ومن ناحية أخرى موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على

أوامر ونواه ويوشع لم يكن كذلك بل هو تابع للشريعة... ولفظ «من بين أخوتهم» ولا شك أن الأسباط الإثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى حاضرين معه فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم لقيل «منهم» لا «من بين إخوتهم» لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببني إسرائيل، أي من فرع آخر غير فرعهم وهو ما لا يكون إلاّ من إسماعيل. كما جاء لفظ الأخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله لهاجر في حق إسماعيل «وقباله جميع أخوته ينصب المضارب» (تكوين 16: 12 طبعة 1844، وفي الترجمة العربية المطبوعة عام 1811 هكذا وبحضرة جميع أخوته يسكن» والمقصود بالأخوة ها هنا بنو عيسو وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهيم... وجاء بالبشارة لفظ «سوف أقيم» ويوشع كان حاضراً عند موسى داخلاً في بني إسرائيل نبياً في ذلك الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ؟!... فالآية تصدق على سيدنا محمد عليه السلام أكمل صدق لأنه غير السيد المسيح ولأنه يماثل موسى في أمور كثيرة... وكان من أخوة بني إسرائيل لأنه من بني إسماعيل... ولم يكن وعد الله في حقهم (بني إسرائيل) وإنما الوعد كان لبني إسماعيل» (**هكذا بشرت الأناجيل** صفحة 65 - 70).

وبعد تناول تسع بشارات من العهد القديم يختتم السيد بشرى زخاري ميخائيل ذلك الفصل قائلاً: هذا بعض ما جاء في العهد القديم من بشارات ليس لها في رأيي سوى هذا التفسير وهو أن القادم من نسل إسماعيل هو النبي المنتظر ولذا يجب أن نعترف بأن رسالته رسالة صدق وحق» (صفحة 85).

أما في الإصحاح الثالث والثلاثين، فترد إشارة واضحة أخرى، بل إنها آخر رسالة قالها موسى لقومه والبركة التي باركهم بها، إذ يقول النص: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال. جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. فأحب الشعب. جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك» (تثنية 33: 1 - 3).

ونخرج من هذا النص الذي يمثل البركة التي بارك بها موسى قومه قبل وفاته، وهي تتضمن الإشارة إلى الديانات التوحيدية الثلاث بدرجات نزولها وترتيبها، مع تشبيه مراحل نزولها كنور الشمس فقد **جاء** الرب من سيناء، وهي

مهبط الوحي، بالتوراة على يد سيدنا موسى، ثم **أشرق** أي لاح من جبال سعير، وهي جبال الروم عند أدوم وتجاور القدس، أي ازداد وضوحاً على يد سيدنا عيسى، ثم **تلألأ** من فاران، وهي جبال مكة، أي على يد سيدنا محمد الذي أتى بالشريعة التي تضمنها القرآن.

وتشبيه الوحي الإلهي في هذه الآية النبوءة/ البركة بنور الشمس يذكرنا بأخناتون، أول الأنبياء، وأول من ألغى تعدد الآلهة منادياً بعبادة الأله الواحد. القوى المتجلية خلف قرص الشمس واهب الحياة والحركة، والذي يرتبط اسمه بالآية الواردة في رسالة بولس إلى أهل رومية: «لأنه يقول الكتاب لفرعون أني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي ولكي يُنادى باسمي في كل الأرض» (9: 17). فاخناتون هو أول من تغنى بالتسابيح «للإله الأحد الذي وجد منذ الأزل والذي لا شريك له» (النشيد الكبير)، «وأناشيده إلى الشمس هي التي نقلها موسى في «المزامير» كما أكدها العديد من علماء الآثار ومنهم جولنيشوف وبرستد وسليم حسن. كما أن ما نقرأه عن موسى يؤكد ذلك: «**فتهذب موسى بكل حكمة المصريين** وكان مقتدراً في الأقوال والأعمال» (أعمال الرسل 7: 22).

أما الغريب في صيغة هذه الآية / البركة كما هي واردة في طبعة 1980 العربية، التي أوردناها آنفاً فهي عبارة: «وأتى من ربوات القدس» التي تغير من ترتيب نزل الوحي. فلو رجعنا إلى النص الذي استعان به الطبري في القرن التاسع الميلادي لوجدناه على النحو التالي: «أن الرب جاء من طور سينين وطلع لنا من ساعير وظهر من جبل فاران ومعه عن يمينه ربوات **القديسين** فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب».. أي أن كلمة «القديسين» قد تحولت إلى كلمة «القدس»، لنقل الدلالة إلى السيد المسيح واستبعادها عن سيدنا محمد ـ على الرغم من الوضوح الشديد لهذه النبوءة التي تمثل آخر ما نطق به سيدنا موسى من رسالات مباركة..

إن متابعة تغيير نص هذه الآية بالذات في عدة طبعات فرنسية متباعدة للكتاب المقدس تغني عن أي تعليق.. إذ نقرأ في طبعة 1860 باللغة الفرنسية:

«L'Eternel est venu de Sinaï, et s'est levé sur eux de Séhir, il leur a resplendi de la montagne de Paran, et **il est sorti d'entre les dix milliers des saints, et de sa dextre le jeu de la loi est sorti vers eux» (p. 188).**

ومعناها: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران وخرج من بين العشرة آلاف من القديسين. ومن يمينه خرجت نار الشريعة تجاههم». وهو الرقم الذي يمثل بالفعل عدد المجاهدين الذين كانوا مع سيدنا محمد عند فتح مكة. أما في الطبعة الفرنسية لعام 1931 فنقرأ:

«L'Eternel est venu de Sinaï, Il s'est levé sur eux de Séir. Il a resplendit de la montagne de Paran, et **il est sorti du milieu des saintes myriades:** Il leur a de sa droite envoyé le feu de la loi» (p.188).

ومعناها: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وخرج من **وسط عدد لا يحصى** من المبجلين: وبيمينه أرسل لهم نار الشريعة». واستبدال تعبير «Les dix miliers de saints» المحدد الرقم بعشرة آلاف مجاهد، بتعبير «des saintes myriades» أضاع التحديد الرقمي، الذي يشهد على الوقعة التاريخية عند فتح مكة بصحبة عشرة آلاف مجاهد، لأن كلمة «myriade» مشتقة من اليونانية «murias» وتعني عشرة آلاف، ووضعها في صيغة الجمع قد أضاع قيمتها كدليل على الرقم بالتحديد.. وفي كل الأحوال فالدليل بيِّن وإن أرادوا حتى طمس الرقم.

أما في أحدث الطبعات الفرنسية المنقحة، الصادرة عام 1986، أي بعد مجمع الفاتيكان الثاني، فنقرأ:

«Yahvé est venu de Sinai. Pour eux, depuis Séir, il s'est levé **à l'horizon,** il a resplendi depuis le mont Parân. Pour eux, il est **venu depuis les rassemblements de Cadès, depuis son midi jusqu'aux Pentes»** (p. 237).

ومعناها: «يهوه جاء من سيناء. من سعير، أشرق لهم في الأفق، وتألق منذ جبل فاران. جاء لهم من تجمعات قادش، من جنوبها حتى تخومها»!! وبذلك انحصرت النبوءة في اليهود فحسب، فقد جاء لهم يهوه من سيناء وأشرق لهم من سعير ولاح تألقه حتى فاران! وبذلك تم استبعاد أي أثر لسيدنا محمد، كما انحصرت تحركات يهوة في منطقة قادش، أي في فلسطين، من جنوبها حتى أطرافها.. وقد راعت الأيادي العاتية تبرير غموض الآية في نصها الجديد المحرّف بأن وضعت لها هامشاً يقول: «إنها فقرة صعبة وأجروميتها قديمة مهجورة» **(La Bible de Jérusalem Paris 1986 p.237)**.

ولا تعليق لنا سوى ما ينضح به النص..

أما في الطبعة الإنجليزية التي استخدمها الأسقف بنيامين كلداني / عبد

الأحد داود في القرن الماضي، فهي تتفق والنص المتداول آنذاك. وهذا نصها:

«The lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them; he shined forth from mount Paran, and he came with ten thousands of saints; from his right hand went a fiery law for them» **(Mohammad in the Bible** p.3).

ويورد القرطبي، وهو من القرن الثاني عشر الميلادي، نصاً آخر بخلاف ذلك النص الذي أورده الطبري، معتمداً على ترجمة أخرى، إذ يقول: «وفي بعض التراجم: «أقبل السيد من سيناء، ومن سعير تراءى لنا، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين، ومعه كتاب ناري وهو ختم الأجناس. وجميع الصالحين في قبضته ومن تدانى من قدميه يصب عليه علمه» **(الاعلام** صفحة 265).

وفي كل الأحوال، فمن المعروف أنه ما من نبي يهودي، بما فيهم السيد المسيح، كانت له أية علاقة بجبال فاران. وأن الذي سكن فاران هو إسماعيل وزوجته المصرية وأبناؤه الإثنا عشر، ومنهم قيدار الجد المباشر نسلاً لسيدنا محمد، الذي ظهر في جبل فاران ودخل مكة بصحبة عشرة آلاف مجاهد وأعطى شعبه الشريعة التي يعيش بها.. الأمر الذي يعد بمثابة تحقيق لنص آخر النبوءات التي نطق بها سيدنا موسى وبارك بها شعبه.

ويورد الطبري آية أخرى: «في المزمور الثامن والأربعين: أن ربنا عظيم محمود جداً، وفي قرية الهنا وفي جبله قدوس ومحمد، وعمت الأرض كلها فرحاً **(الدين والدولة** صفحة 139). وقد تحول النص ليصبح في الطبعات العربية الحديثة للكتاب المقدس: «عظيم هو الرب وحميداً جداً في مدينة الهنا جبل قدسه» (مزامير 48: 1)! أي أنه تم حزف اسم سيدنا محمد وتغيير صفته من «قدوس» إلى كلمة «قدسه» التي تقع على الجبل!! ولتصبح العبارة «في مدينة الهنا جبل قدسه» غير مفهومة بالمرة..

أما في الطبعة الفرنسية التي ظهرت عام 1986 بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني فنجدها على النحو التالي:

«grand, Yahvé, et louable hautement dans la ville de notre Dieu, le mont sacré, superbe d'élan, joie de toute la Terre» p. 765.

وتعني: «عظيم يهوه ومحمود جداً صبراً في مدينة الهنا، الجبل المقدس الرائع الحمية فرحة كل الأرض».. وهنا نلاحظ أيضاً إضافة اسم يهوه، ولم يكن موجوداً في الطبعات الفرنسية السابقة، وحذف اسم محمد..

وفي إصحاح أشعياء نقرأ: لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر. الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه» (42: 11 - 13). ومن الواضح الجلي أن النص يعني المنطقة التي سكنها قيدار وأن من خرج منها كرجل حرب هو سيدنا محمد إذ أن عيسى عليه السلام لم يحارب. إلا أن طبعة 1986 الفرنسية قد أضافت بعد كلمة «ليهتفوا» العبارة التالية «ليمجدوا يهوه» (صفحة 1134).. وقد رافق النص هامش يقول في نفس الصفحة: «قيدار: تعني قبيلة من الرحل»!!

وآية أخرى في نفس إصحاح أشعياء تقول: «... حينئذٍ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غِنَى الأمم. تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفه كلها تأتي من شبا تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جَمَالي» (60: 5 - 7).

من الواضح أن النص يتعلق بالعرب، فمديان وعيفه وشبا في شبه الجزيرة العربية، وقيدار هو الابن البكر لإسماعيل ونبايوت هو ابنه الثاني وشقيق قيدار.. إلا أن الطبعة الفرنسية قد أضافت اسم يهوة أيضاً كما نجد هامشاً يوضح أن «نبايوت اسم قبيلة عربية» ولا يذكر شيئاً عن أنه ابن إسماعيل وشقيق قيدار الذي سبق وأشرنا إلى أنهم زعموا أنه «قبيلة من الرحل»!!

وإن كان ما تقدم يعد مجرد نماذج جد قليلة مما ورد في العهد القديم، فإن ما لا يزال يوجد في العهد الجديد، وخاصة في إنجيل يوحنا، وهو أحد الأناجيل الأربعة الرسمية، لهو أكثر وضوحاً وأشد دليلاً. إنها الآيات التي ترد فيها كلمة «الفريقليط».. تلك الكلمة التي كانت سبباً في إشهار القس إنسلم تورميدا Encelm Turmeda إسلامه في القرن الخامس عشر، ليتخذ اسم عبدالله الترجمان (**تحفة الأريب** صفحة 136)..

وما أكثر الذي كتب حول هذه الكلمة المحرفة من Periclytos إلى Paraclete والتي تشير إلى اسم أحمد.. فلا يكاد يخلو من الاشارة إليها مرجع من المراجع التي بحثت هذا الموضوع ومحاولة استبعاد النبوة المذكورة عن سيدنا محمد. إلا أن ما أجراه القس السابق بنيامين كلداني من أبحاث لغوية

تقطع الشك باليقين. وكلّ ما تكشّف له من تحريف وحقائق هو الذي دفع به للإسلام. ولقد كرس كافة أبحاثه للتعريف بالحق، والكشف عن كل ما لحق بالإنجيل من تحريف، ومن أهم ما كتبه: **محمد في الإنجيل (Mohammad in the Bible)**، حيث جمع وأوضح بالدراسة اللغوية كل ما يشير إلى محمد، وكم من برهان أورده مصحوباً بعبارة «أتحدى بجسارة دارس اليونانية القديمة»..

ولا يسع المجال هنا لعرض الكتاب بأسره وإنما سنعرض منه ما يؤكد يقيناً تحريف كلمة «الفريقليط» التي تعني «أحمد». وينتهي به الأمر بعد إثبات صحتها إلى أن يقول: «أتحدى بجسارة كافة الباحثين الضالعين في اللغة اليونانية القديمة أن يعارضونني عندما أعلن أن مترجمي النص السرياني واللاتيني قاموا بأخطاء فادحة في ترجمتهم» (**محمد في الإنجيل** صفحة 146)، وأن «إنكار النبوة والتبشير عن رسالة محمد يعد إنكاراً أساسياً لكل الرسالة الإلهية برمتها ولكافة الرسل الذين بشروا بها. وذلك لأن كافة الأنبياء مجتمعين لم يتموا العمل العملاق الذي قام به نبي مكة بمفرده في فترة وجيزة ليست إلا ثلاثة وعشرين عاماً هي فترة رسالة النبوة» (المرجع السابق صفحة 167).

وقبل تناول الأمر بالإيضاح، نبدأ بكتابة الآيات في شكلها المتداول حالياً في إنجيل يوحنا وهي: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الأب فيعطيكم **معزياً آخر** ليمكث معكم إلى الأبد... وأما **المعزى** الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (14: 16 و26)؛ «ومتى جاء **المعزي** الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» (15: 26)؛ «لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم **المعزي**. ولكن أن أذهب أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيه وعلى بر وعلى دينونة... وأما متى جاء ذاك **روح الحق** فهو يرشدكم إلى جميع الحق **لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية**» (16: 7 - 8 و13).

وكلمة «المعزي» هي آخر تحريف لكلمة «الفريقليط» التي شاع معناها المحرّف على مر العصور. إذ يورد الطبري: «أن الفارقليط روح الحق الذي

يرسله أبي باسمي يعلمكم كل شيء... أن الفارقليط لن يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئاً لكنه يسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب... أني سائل أبي **أن يرسل إليكم فارقليطاً آخر** يكون معكم إلى الأبد» (**الدين والدولة** صفحة 184).

وما نخرج به من هذه الآيات أن كلمة «فارقليط» قد تحولت في الطبعة العربية الحديثة إلى «معزي». وفي طبعات أخرى إلى «مواس»، بينما تم تحريفها في الطبعات الفرنسية والإنجليزية من Periklytos إلى Paraclet. كما نخرج من نفس هذه الآيات بتعبير «معزياً آخر» أو «فارقليطاً آخر» بأن المسيح عليه السلام كان يعتبر نفسه «معزياً» أو «فارقليطاً» وأنه سيسأل الله أن يرسل معزياً أو فارقليطاً آخر غيره ستوحى إليه الرسالة بالسمع ويبلغها هو بالكلمة. وهو نفس المعنى الذي ورد في العهد القديم الذي أشرنا إليه آنفاً حينما قال الرب: أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك **واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصي به»** (تثنية 18: 17).

وهنا يضيف الطبري: «فأما تأويل قوله أنه يرسله باسمي، فإنه لما سُمي المسيح بفارقليط، وسُمي محمد بهذا الاسم، لم ينكر من المسيح قوله أنه يرسله باسمه، أي أن يكون سمّي، فقلّ ما يوجد ذكر المسيح عليه السلام في باب من كتب الأنبياء عليهم السلام إلا كان ذكر النبي ﷺ متصلاً به، يتلوه ويشفعه لأنه جاء بعده» (**الدين والدولة** صفحة 185).

ويبدأ عبد الأحد داود بإثبات أن الفارقليط ليس الروح القدس، ثم قام بتفنيد كلمات المعزي والمواسي والمدافع والشفيع التي ظهرت كتحريف للكلمة الأصلية والتي تعني في أصلها قبل التحريف «أحمد». ويرجع إلى الأصل العبري لكلمة معزي / مواسي وهي «مناحم» وترد في مراثي إرمياء (1: 2 و9 و16 و17 و21 إلخ). ولقد تمت ترجمتها قديماً إلى كلمة Parakaloon اليونانية المشتقة من Parakaloo، وتعني ينادي، يدعو، يحث، يرجو، وإن كان المعنى الأكثر شيوعاً هو الرجاء لصيغة الأدب. ثم يوضح كيف أن هناك كلمات أخرى في اليونانية للمعزي أو المواسي وهي Parygorytys. أما كلمة المدافع باليونانية فهي Sunegorus، والشفيع فهي Meditéa. ثم يقوم بإعادة صياغة الآية

بعد تعديل الكلمات المحرفة وإضافة ما حذف منها لتصبح: «**سأذهب إلى الآب وهو سيرسل لكم رسولاً آخر اسمه فريقليطوس**، حتى يبقى معكم إلى الأبد» (صفحة 211). وبعد التأكيد على استحالة المعنى الذي يفرضونه راح يوضح كيف أن كلمة Periqlytos لغوياً وحرفياً تعني: الذائع الصيت، الحميد، المجيد، وهي مشتقة من Kleos وتعني المجد، الشهرة، الصيت، مستعيناً بأكبر قاموس يوناني فرنسي وهو: Alexandre: **Dictionnaire Grec-Fran5ais**. وأن هذه الكلمة مركّبة من Peri ومن Kleotis وهي مشتقة من الحمد ويحمد لأن أصلها الآرامي يعتمد على أحرف حَ مَ دَ. ثم يقول: «وبذلك فإن الاسم الذي أكتبه بالأحرف الانجليزية Periqleitos أو Periqlytos يعني بالتحديد أحمد باللغة العربية... وهو ما يتفق مع ما جاء في القرآن: مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد: «صفحة 215 . ثم ينتقل ببحثه بعد ذلك للتأكيد على أن محمد رسول حقاً وأن القرآن منزل إلهياً، إذ «لم يكن بوسع محمد أن يعرف أن كلمة الفريقليط تعني أحمد، إلا من خلال الوحي والإلهام. أن حجة القرآن قاطعة ونهائية لأن المعنى الحرفي للكلمة اليونانية تعني تماماً وبلا أي جدال أحمد ومحمد» (صفحة 216)، الذي هو «روح الحق الذي كشف تزييف اليهود والمسيحيين وكيف أنهم حرّفوا كتاباتهم... وبصفته روح الحق فقد شهد بحقيقة يسوع، الإنسان، النبي، وخادم الله؛ وجعل من المحال أن يصبح المسلمين عبدة أوثان، وسحره، أو أن يؤمنوا بغير الله» (صفحة 218).

أما في كتاب الخزرجي (**مقامع الصلبان** صفحة 126) فنجد النص على النحو التالي: «وكذلك قال المسيح في الإنجيل الذي بأيديكم: اللهم ابعث الفارقليط ليعلم الناس أن ابن الإنسان بشر»، ويعلق محقق الكتاب، عبدالمجيد الشرفي، قائلاً: لم أعثر على هذا النص في الأناجيل التي بين أيدينا»! وهذا يعني أن هذه الفقرة قد حذفت بعد القرن الثاني عشر.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قد قال عن «الفارقليط» أنها تعني «الحامد أو الحماد، أو الحمد، أو المعز. وهذا الوصف ظاهر في محمد - ﷺ - فإنه وأمّته: الحمادون، الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته، ومفتاح صلاته. ولما كان حماداً جوزي بوصفه، فإن الجزاء من جنس العمل، فكان اسمه: محمداً وأحمداً. وأما محمد فهو على

وزن مكرم ومعظم، وهو الذي يحمد حمداً كثيراً مبالغاً فيه، ويستحق ذلك، فلما كان أحمد، كان محمداً....

وأما أحمد، فهو أفعل التفضيل، هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محموداً أكثر من غيره، يقال هذا أحمد من هذا، أي هذا أحق بأن يحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل له على غيره في كونه محمداً. فلفظ محمد يقتضى فضله في الكمية. ولفظ أحمد يقتضي فضله في الكيفية» (**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وارد في الاعلام** صفحة 21).

ومما تقدم نخرج بأن هذه الآيات التي تثبت بالقطع و«التحدي الجسور» على حد قول عبدالأحد داود، أن كافة الكلمات التي وُضعت تباعاً كتحريف لكلمة «فريقليطوس» لا تتفق والمعني الأصلي الناجم عن الأصل الآرامي حَ مَ دَ، وإذا ما كان الأمر كذلك، فإن ما يعرفه كافة رجال الكهنوت على مر العصور وكافة دارسي هذه القضايا التاريخية العقائدية، هو أن السيد المسيح قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ومحمد...

وهنا نورد ما يؤكده زخاري بشري ميخائيل قائلاً: «ويشهد التاريخ أن من أسلم من علماء اليهود والمسيحيين في القرن الأول قد شهد بوجود البشارات المحمدية في كتب العهدين القديم والجديد مثل عبدالله بن سلام وابني سعيد، وبنيامين، ومخيريق، وكعب الأحبار. وغيرهم من علماء اليهود ومثل بحيرا ونسطور الحبش وضغافر وهو الأسقف الرومي الذي أسلم على يد وحيد الكلبي وقت الرسالة، والجارود بن العلاء والنجاشي والقسس الرهبان الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة وغيرهم من علماء المسيحيين... فإذا ما انتقلنا إلى الأشخاص الذين تولوا التبشير بمجيء محمد نجد منهم الكثير نذكر منهم على وجه الخصوص بحيرا الراهب الذي كان من أعظم من تولى تبشير الناس أن نبياً من بني إسماعيل حان أن يبعث بالاسم والصفات وحدد له مكان المطلع والمهجر، ولم يكن من شأن التوراة الأصلية أن تخفي أو تنكر، ولا من شأن رهبان الصوامع أن يضلوا أو يحسدوا لأن الله هو الذي قال الكلمة في التوراة» ولأن القسيسين والرهبان لا يجحدون ولا يستكبرون» (**هكذا بشرت الأناجيل** صفحة 113 - 116).

من هذا العرض الذي أوضحنا خلاله كلا الخطين الأساسيين لعملية

تحريف نصوص الإنجيل بعهديه، منذ حقبة باكرة لم تتوقف، وذلك في خطين متواكبين، أحدهما لتغيير معالم المسيحية الأم، التي بشر بها السيد المسيح، وإعادة نسجها لأغراض سياسية اقتصادية واجتماعية؛ والآخر بغية استبعاد النبوة عن سيدنا محمد وطمس معالم أي نسب يربطه ويربط المسلمين بسيدنا إبراهيم، وهو ما قمنا معه بإثبات التزييف المتعمد للنصوص، إلى استبعاد متعسف لإنجيل برنابا بأن إسماعيل هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم الذي تزوج هاجر وحملت منه «بالموعد» (الوعد) كما أن العهد قد تم بين الله وإبراهيم الذي قام بتنفيذه هو وابنه إسماعيل، وكان في الثالثة عشر حينما ختن هو وأبوه وجميع أهل البيت من الذكور. كما أوضحنا كيف أن الشريعة اليهودية تنص صراحة على أن الابن البكر حتى وإن كان من الزوجة «غير المحبوبة» **فليس من حق أبيه** أن يحرمه حق البكورة بل ويحق له ضعف ما للأبناء الآخرين..

وهنا لا بد من الاشارة إلى معطى تاريخي آخر، قلما أغفله مرجع من المراجع على مر العصور، وهو «أن اليهود تقر بأن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم **في تبديل ثلاثة عشر حرفاً** من التوراة. وذلك بعد المسيح في زمان القياصرة» (**مقامع الصلبان** صفحة 147).

وقبل التعليق على وقعة التحريف هذه، والثابتة تاريخياً لا بد أولاً من توضيح معنى كلمة «حرف» في هذا النص، وأن المقصود به ليس أحد حروف المباني الثمانية والعشرين التي تتركب منها الكلمات وتسمى حروف الهجاء، كما أن حروف الهجاء في العبرية أو اللاتينية لم تنقص حرفاً، مما يشير إلى أن المقصود بالحرف هنا إنما هو المعنى الآخر لها وهو: «الكلمة». إذ يقال مثلاً: هذاالحرف ليس في لسان العرب. أي أن هذه الكلمة ليست في لسان العرب. وبذلك تتضح حقيقة ما قام به «السبعون» من تزييف وتبديل لثلاثة عشرة كلمة، بعد وفاة السيد المسيح بكثير..

ولا شك الآن في أن هذه الكلمات الثلاثة عشرة كانت تتضمن اسم سيدنا محمد أو علها كانت في جلها تشير إليه بوضوح من قبيل ما رأيناه في بعض النماذج التي أوردناها في هذا السبيل.. وهو ما يتفق وما جاء في القرآن الكريم في أكثر من موضع، عندما يكشف تزييفهم وتحريفهم وعبثهم: ﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ النساء 46)؛ و﴿**يحرفون الكلم من**

مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ (المائدة 13)؛ و﴿**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون﴾** (البقرة 75)..

أن الكهان اليهود يحرفون العهد القديم ويكتبونه بعد وفاة موسى بعدة قرون، والعهد الجديد يتعرض لتحريفات أوردنا مجرد طرف منها، ومع ذلك، فها هو **كتاب التعليم الديني** الكاثوليكي الجديد، الصادر في 18 ديسمبر عام 1992، يصر على اعتبار الإنجيل بعهديه «كتاباً منزلاً».. الأمر الذي يؤكد الخلاف المستمر بين التعصب الأكمه والعلم الذي يكشف يوماً بعد يوم عن وثائق ومعطيات وإدانات وتحريفات جديدة.. ولا يبقى لنا إلا أن نقول للقائمين على مثل هذا التعصب وتغذيته بدأب: «اختتنوا الرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهوذا... (وكفوا عن) شر أعمالكم»!!. (أرمياء 4: 3 - 4).

الفصل الخامس

محاصرة.. وإبادة..

«إن كانت الحقيقة التاريخية أسطورة، فإن الكذب التاريخي هو الحقيقة الوحيدة التي يمكن إثباتها» بهذه الكلمات الواقعية ينهي اندريه جيلوا A. Gilois كتابه عن **الكذب التاريخي**.. عن ذلك الكذب الذي دأبت الحكومات والمؤسسات السياسية أو الدينية على الاستعانة به، فلقد جرى العرف على عدم إطلاع الجمهور على أسرار الدولة. وأنه عادة ما يتحدث المسؤولون لكي لا يقولوا شيئاً.. وتمتلىء الجرائد والمجلات بالتصريحات والعبارات الرسمية المليئة بالجمل الطنانة والوعود أو بالألفاظ التي اجهضت معانيها.. وبذلك يصبح الإعلام الموجه من أكبر وسائل الضغط على الشعوب ومن أكبر مجالات التواطؤ الرسمية.. الأمر الذي يؤدي إلى تحويل الحقائق التاريخية إلى أساطير، والكذب التاريخي إلى واقع معاش لا يقل رهبة عن منطق الدولة التي تحذر من تناول القضايا الرئيسية للحفاظ على النظام والسيطرة عليه.

وإن كان هذا المبدأ الذي لا ينص عليه أي تشريع يسمح للجهاز السياسي بالدولة بالإفلات من مسؤولياته، فإن تقبله يمثل العبودية بعينها أو أحد جوانبها.. لذلك تنبثق الحقائق دوماً بفضل بعض الأمناء لتكشف عن الأحداث ووقائعها مهما طال التعتيم ومهما امتدت عمليات التمويه..

ومن أهم القضايا التي انبثقت من غياهب القرن العشرين قضية اغتيال الشعوب وأن لم تكن قاصرة على هذا القرن وحده.. وتمتد سلسلة الاغتيالات الفردية أو الجماعية منذ الأساطير القديمة وإبادة الآلهة للمردة والأشرار، حتى الاغتيالات السياسية والثأرية أو الإجرامية، مروراً بالإبادات الجماعية الاستيطانية أو تلك الناجمة عن الحروب السياسية الدينية.

وعلى الرغم من أن الديانة المسيحية تنص صراحة في وصاياها: «ولن تقتل أبداً»، ذلك لأن الذي يتم قتله هو مخلوق من مخلوقات الله وجزء من نوره إلاّ أن تاريخ الغرب مثقل بأنهار من الدماء التي أنسابت باسم الدين حيناً، وباسم التطهير العرقي حيناً آخر، وكلاهما باسم نفس ذلك الرب الذي حرم القتل.

ولا يسع المجال هنا لتناول مجازر الحروب الصليبية والحروب الطائفية أو اغتيالات عصر الرعب أيام الثورة الفرنسية، كما لا يسع لسرد قوائم الإبادة الجماعية التي يذخر بها تاريخ الاستعمار في القارة الأمريكية والقارة الأسترالية أو في غزوه للقارة الأفريقية واحتلاله لجزء كبير من آسيا، فكلها مذابح تمت في الماضي، وأن كان بعضها لما يزل قائماً، فهي برمتها تمثل أكبر عمليات إبادة جماعية في التاريخ.. إلاّ أن المرير فيها أن نقرأ عنها: «ولقد كانت الإبادة مستمرة، تتم في وضح النهار، مع مباركة كافة الكنائس» (روجيه كاريتاني R. Caritani: **قوة الضعفاء** صفحة 27).

وما يعنينا في عمليات الإبادة هذه هو ما يتم حالياً من محاولات دائبة متواكبة في كافة القارات لمحاصرة الإسلام وإبادته بصورة لا تخطئها العين.. بل والأكثر غرابة أن يتم ذلك - في كثير من الأحيان - بأيادٍ عربية مسلمة!! وإن كانت الغارة على الإسلام قد بدأت منذ بداية انتشاره، أو هي للحق قد بدأت قبل مجيء سيدنا محمد ودعوته للإسلام، ووصلت هذه الغارة إلى ذروتها - قديماً - في محاكم التفتيش التي قامت أساساً لإبادة المسلمين في جنوب أوروبا وأسبانيا والبرتغال بحيث لم يبق مسلم واحد، لذا فإن ما يدور حالياً من محاصرة الإسلام على الصعيد العالمي إنما هو عود لبدء لم يتوقف، ويحتاج إلى وقفة حاسمة لا هوادة فيها.. فالأمر لا يتعلق بإبادة شعب مسلم في البوسنة مثلما أبيد الإسلام في أسبانيا، وإنما هي عملية إبادة للإسلام برمته أينما كان، وإبادة لا رحمة فيها للشعوب الإسلامية أينما كانت. وأن كان ذلك يتم بمسميات مختلفة وبمحاولات وأساليب متنوعة..

بل لقد أعلن أكثر من مسؤول في الغرب ومنهم نيكسون أن العدو الباقي والذي يتعين مواجهته الآن إنما هو الإسلام - وذلك بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بتضافر جهود المخابرات المركزية الأمريكية والجهاز السياسي/ الديني للفاتيكان، وهي نفس الأجهزة التي تتصدر العمليات حالياً، وهو ما سنعود إليه

بعد قليل.. وأن لم ينف ذلك عوامل موضوعية في الواقع الاجتماعي - الاقتصادي - السياسي للمجتمع..

وقبل أن نتناول هذا الوضع بشيء من التفصيل، لا بد من الإشارة إلى معاهدة جنيف للحد من جريمة إبادة الجماعات الإنسانية والتي تدرج تحت مسمى Génocide. ويبدو أن الضمير الغربي لم يكن ليعبأ بجرائم الإبادة التي يقوم بها تحت مختلف المسميات، ذلك أن كلمة «إبادة جماعات إنسانية» (génocide) لم تكن موجودة قبل عام 1944 ولم يكن هناك أي عرف دولي يعاقب على عملية القتل أو الاضطهاد حتى الموت لجماعة عرقية أو لغوية أو دينية. ذلك أن قوانين الحرب كانت تحرّم ضرب الأحياء السكنية بالقنابل، واغتصاب النساء وغيرها من بشاعات، ولم يتم اتخاذ أي قرار بشأن هذه الجرائم ولم يستيقظ الضمير الغربي الممثل في الأمم المتحدة إلاّ عام 1948، حينما أتخذت هذه الهيئة قرارها في التاسع من شهر ديسمبر، بتحريم الإبادة الجنسية أو العرقية.. ومما تجدر الإشارة إليه توافق هذا التاريخ مع انشاء الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة!!.

ويشير روجيه كاريتاني إلى أن بنود هذه المعاهدة تتضمن مغالطات غريبة إذانها لا تعتبر ضرب المدن من أشكال الإبادة الجماعية، وإنما تهتم بالإبادة المتعمدة العامة أو الجزئية. كما أن الإبادة العامة أو الجزئية لجماعة سياسية لا تُدرج تحت بند الإبادة، وبالمثل إبادة ثقافة شعب ما!!.

ومن أكثر الأمور غرابة في هذه المعاهدة المتناقضة الفحوى أنها تنص على ضرورة وجود «نية مبيتة» لإعتبار الجريمة جريمة إبادة!! مما يسمح للحكومات بالاختباء خلف أدلة قانوينة لتبرير ما تقترفه من اغتيالات جماعية أو فردية، ولا أدل على تلاعب الحكومات بالمسميات القانونية من المجازر الناجمة عن الغزوات الاستعمارية أو ما أعقبها من أحتلال ومذابح - وإن كانت هذه المذابح تتم تحت زعم السيطرة على السلطة أو الصراع عليها بين فصيلتين عرقيتين. وهناك نمط آخر للإبادة غير مدرج في بنود معاهدة 1948 هذه، وهو يتعلق بالجماعات السياسية وعمليات الطرد الجماعية أو القتل التي تدفع إليها السلطات الحاكمة، من قبيل طرد الفلسطينيين من أراضيهم والعمل على إبادتهم

يبطء، ومثل تلك المجازر الدائرة في البوسنة والهرسك والتي تجمع بين طياتها كل المحرمات اللاإنسانية.

وينص البند الثالث على اعتبار إبادة «جماعات إنسانية» فعل إجرامي إذا ما كان هناك «اتفاق مسبق» أو «نية مبيتة» للقيام بها أو لتنفيذها! كما أن المعاهدة لا تنص على معاقبة الإجراءات الاستعدادية لهذه الجرائم.

ولم يمنع النص على عقاب القائمين بأمر جريمة الإبادة هذه من اقترافها لأن قمعها يرتطم بعقوبات قانونية وسياسية تتلخص في فجوات ومسالب في قانون العدل الجنائي الدولي. فمن الوهلة الأولى يبدو أن كل شيء قد تم بحثه في هذه المعاهدة إذ أن البند الرابع منها ينص على أن كافة الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الجريمة لا بد من عقابهم أياً كانت صفتهم: حكاماً، موظفين أم أفراد عاديين.. وبذلك تم استبعاد المسؤولية القضائية للدول والحكومات في حين أن هذه الاغتيالات مرتبطة بالدولة بشكل معلن أو ضمني.. وبما أن جريمة إبادة جماعات إنسانية تعد جريمة سياسية من الدرجة الأولى، فإن مرتكبها يكون لديه دائماً فرصة الإفلات من العقاب. ومما له مغزاه أن العديد من الدول لم توقع على هذه المعاهدة ومنها الولايات الامريكية والمملكة المتحدة البريطانية!.

ولم نشر إلى هذه المعاهدة إلاّ لتوضيح عدم جدوى محاولة اللجوء إلى المؤسسات الدولية الغربية، فكلها متواطئة بصورة أو بأخرى في تلك اللعبة الدائرة حالياً من محاصرة مميته للإسلام والمسلمين، يتوقع لها البابا يوحنا بولس الثاني أن تتم قبل الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر عام ألف وتسعمائة وتسع وتسعين!! (جوردون توماس وماكس مورجن ويت: **في دهاليز الفاتيكان** 1983). وعشر سنوات، من تاريخ صدور هذا الكتاب، وتضافر الأحداث وسرعة إيقاعها حتى يومنا هذا غنية عن أي تعليق..

وبصرف النظر عن ردود الأفعال المختلفة حيال هذا التنبؤ، والثمان سنوات الباقية لإتمامه واندلاع الهجمات الضارية على الإسلام في كافة البلدان، تعد من المؤشرات التي لها مغزاها كما أن تتبعها في أهم أماكن الصراعات الدائرة حالياً تكشف عن ترابط أبعاد هذا المخطط. ولن نتناول هنا إلاّ أهمها وباقتضاب حيث أنها تعد من أحداث الحياة اليومية ووقائعها مطروحة على الملأ

بالرغم من عمليات التعتيم والتمويه.. وإن كان الغرض منها واحد إلاّ وهو: فرض الوصايا الغربية/ المسيحية على العالم الثالث الذي وصموه بتعبير البلدان النامية ـ متناسين أن تخلفه ناجم عن استعمارهم له وامتصاصهم لثرواته البشرية والطبيعية والاقتصادية بعامة.. وهنا يقول رنية ديمون R. Dumont: «في العشرين سنة الماضية تم استخراج ثروات من العالم الثالث أكثر مما تم استخراجه طوال القرن الماضي (**تلك الحرب التي تخزينا** 1992، صفحة 180).. وكلها مخططات تتم بواسطة تعديل البنيات الاقتصادية التي يفرضها «صندوق البنك الدولي» و«البنك الدولي»، إلى جانب الإجراءات السياسية والعسكرية والتبشيرية.. وخاصة تلك الحروب والقلاقل التي لم تهدأ في العالم العربي منذ غرس الكيان الصهيوني الاستيطاني في قلب فلسطين المحتلة عام 1948.

لقد بدأت حرب العراق/ إيران يوم 22/ 9/ 1980 واستمرت ثمانية أعوام، لم تكف خلالها فرنسا عن إمداد العراق بالسلاح «بموجب أكبر اتفاقية عسكرية عرفها القرن العشرين» (المرجع السابق صفحة 25). وقد ساند الغرب والمؤسسات البترولية العالمية هذه الحرب التي لم يكف البترول خلالها عن التدفق إليها.. وإذا ما كان الغرب قد استخدم صدام حسين لضرب لبنان قبل ذلك، فها هو يسانده مرة أخرى طالما أن الضارب والمضروب بلدان عربيان!.

واستغلت إسرائيل هذه الأحداث لضرب المفاعل النووي العراقي في يونيو عام 1981، ثم لتغزو لبنان في العام التالي.. وأياً كانت الأسباب والمزاعم فالنتيجة هي إبادة وجرح ملايين من العرب وهدم القوى العسكرية التي تجاور إسرائيل.. وتكديس الثروات في خزائن الغرب..

وفي الثاني من أغسطس 1990 اندلعت حرب العراق/ الكويت. ولم يتح للعقل العربي أن يتروى الأمر، إذ أن الولايات المتحدة بادرت بإرسال قواتها لتفرض ما أطلقت عليه «عاصفة الصحراء».. تلك العاصفة التي تضافر فيها الغرب لاغتيال الشعب العراقي البريء من حرب أجمع كل المعلقين السياسيين في الغرب على أنه كان من الممكن بل وكان لا بد من تفاديها!!.

وكانت صرخة قائدها المسعورة لقواته: «دكّوهم حتى يعودوا إلى العصر الحجري»!. (المرجع السابق).

وتم دك البنية الأساسية للعراق وكافة مؤسساته ومنشآته المدنية. وذلك بواسطة تسعين ألف طن من القنابل التي تولي قادة الولايات المتحدة العسكريين توجيهها بغلٍ عشوائي متعمد لا تفسير له إلاّ الرغبة الدؤوب في إبادة شعب من الشعوب العربية والتخلص من أية إمكانيات عسكرية تجاور إسرائيل.

ولا يمثل الحظر الجوي والعقوبات المفروضة حالياً على العراق إلاّ امتداداً مُقنعاً لحالة الحرب واستمراراً للقتل البطيء لشعب بأسره، فأياً كان الموقف من حاكمه، فهو فرد واحد، ولم تكن الولايات المتحدة بكل جبروتها ومخابراتها لتعجز عن التخلص منه ـ الأمر الذي يكشف حقيقة الموقف.. ذلك الموقف الذي يقول عنه رنيه ديمون: «أن حرب العراق عبارة عن تحذير لبقية البلدان العربية في المنطقة لتذّكرها بأنه لا يمكن تحدي القوى العظمى الأولى العسكرية/ الصناعية وإلاّ لواجهت نفس المصير»!، ذلك إذا غضضنا الطرف عن اللعبة القذرة التي باتت أوراقها مكشوفة عن الدور الأمريكي في تحريك صدام حسين للاستيلاء على الكويت.. مع الإصرار على تقسيم العراق بشكل مقنّع بضرب الجنوب حيناً وتوصيل المعونات للشمال حيناً آخر.

وها هي نفس عملية الموت البطيء تفرض على ليبيا منذ شهر إبريل عام 1992 بسبب حادثة طائرة مشكوك في مصداقية التهمة الملصقة بفاعليها وليس الدليل الذي وجده الغرب في «زرار بدلة» وسط انقاض الطائرة المتفحمة المتناثرة، ليتعرف من خلاله على شخصيه ليبيين إلا ذريعة رخيصة ساخرة لفرض الحظر على الشعب الليبي، ليعاني نفس المصير بصورة مختلفة.. مع فرض تأكيد قوة النظام العالمي الجديد بزعامة أمريكا وتواطؤ منظماتها المتعددة..

أما عن حرب الإبادة الدائرة في البوسنة، أو تلك الفضيحة الدولية التي تعجز الكلمات عن وصفها والتي لا تشهد على تواطؤ الغرب فحسب، وإنما على امتداد تواطؤه إلى حكام أمة الاسلام الخاضعين له، لتصفعهم فرداً فرداً.. فقد أعلن ليفنستون، الرئيس السابق لمفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في البوسنة «أن اغتصاب النساء المسلمات لم يعد نوعاً من الجرائم التي يرتكبها الأفراد على نطاق واسع فحسب، وإنما أصبح جزءاً في السياسة الصربية وأحد المحاور الأساسية لعملية التطهير العرقي... الذي يجري تنفيذه ضمن

الأساليب الأخرى المعروفة: الفصل من العمل والقتل في الشوارع والإعدام على الملأ، فضلاً عن ترويع الناس بإحراق البيوت وهدمها... إن مسألة الاغتصاب المنتظم يجب إلاّ ينظر إليها منفصلة عن سياق التطهير العرقي التي عمد إليها الصرب أو استهدفوا إجلاء أكبر عدد من السكان المسلمين من الأراضي وتدمير معنوياتهم»(**الأهرام** 5/ 1/ 1993 نقلاً عن جريدة **الجارديان** البريطانية في 27/ 12/ 92). ولن يتمكن إدراج كل ما تقدم - علماً بأنه يدور على الملأ وفي وضح النهار - لإدانة قائد الصرب بموجب معاهدة جنيف، فلن تخرج الإجابة عن أنه لم يكن في «نيته» أن يقوم بما اقترفه!..

وفي خطابه السنوي بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد المجيد، في الرابع والعشرين من ديسمبر 1992، أعلن نيافة البابا يوحنا بولس الثاني إدانته للمعارك الدائرة في يوغسلافيا ثم ناشد المسؤولين السياسيين في العالم بأسره «أن يسمعوا لصوت المسيح في السهر على مصير الشعوب.. أسمعوا صوت الحب الحنون القوي يا من تشهرون أسلحة العنف والقتال»!!! (جريدة **ليموند** 27 - 28/ 12/ 1992).. وكان سكرتير الدولة الفاتيكاني قد أعلن «أن الفاتيكان سوف يؤيد نوعاً ما من الإجراءات لوقف القتال في البوسنة».

وقبل ذلك بيومين كان «سفاح صربيا يعلن رفض العالم قيام دولة مسلمة في البوسنة قائلاً: إنه من غير المقبول وجود دولة مسلمة في قارة أوروبا كلها «(**الوفد** 27/ 12/ 92) وكان قد أعلن ذلك مراراً من قبل.

ولا تعليق لنا على تلك الأنشودة التي ترنم بها نيافة البابا ولا على «صوت الحب الحنون» الذي يواجه بها قداسته عمليات القتل والإبادة الدائرة باسم المسيحية، واغتصاب خمسين ألف مسلمة أعمارهم ما بين سن السادسة إلى ما فوق الستين، واغتيال الأطفال فيما فوق العاشرة أو تنصيرهم جماعياً..

ترى هل نسي نيافته مساعيه وتصريحاته للحد من الصراع الدائر في إيرلندا عندما زارها عام 1979؟ أم أن رفضه للعنف ومساعيه للسلام التي تتجاوز دور الكلمات قاصرة على النزاع بين دولتين مسيحيتين؟!.

ولا تعليق لنا إلى كافة المسلمين الأجباس القُعدد، المتواطئين إلاّ أن نقول لهم: إن الإسلام يغتصب في مسلمات البوسنة، ورجولتكم تنتهك في صمتكم البهيم..

ولا يمثل تدخل الغرب في مجاعة الصومال ومنازعاتها التي تم تدبيرها منذ أعوام، إلاّ ستاراً يتلفع «بعودة الأمل» لإقامة قاعدة عسكرية جديدة في إفريقيا عند مدخل البحر الأحمر، يستكمل بها قواعده الحربية التي تمثل استعماراً جديداً «يدك» به أية محاولات استقلالية أو إسلامية في المنطقة وليعود بها إلى العصر الحجري.. إلى جانب قيام أشهر أربع شركات أمريكية بنهب اكبر مستودع بترولي تم اكتشافه في تلك المنطقة!

وها هي الحقيقة تتكشف سريعاً: فما كاد العراق يوم 92/12/27 يخترق مجاله هو نفسه الجوي، المحظور عليه اختراقه منذ 27 أغسطس 1992، ويخترقه لأول مرة، حتى تم «دك» الطائرة وإسقاطها فوراً، وبادر بوش في اليوم التالي (92/12/28) بإرسال حاملة طائرات أمريكية من طراز س س هوك عليها أكثر من سبعين طائرة حربية، قادمة من الصومال ـ ولا نعتقد أن مجاعة الصومال كانت بحاجة إلى كل هذا الحشد العسكري ـ وهي حاملة طائرات «على استعداد للرد حسبما تأتي التطورات»!!.

ولا نملك إلاّ أن نسأل السيد بوش ـ الذي قام رمزي كلارك، وزير العدل الأمريكي الأسبق، بإتهامه كمجرم حرب ووجه إليه تهمة «جرائم ضد السلام، وجرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية وأفعال أخرى إجرامية تمت وتعد خرقاً لميثاق الأمم المتحدة، والقانون الدولي، ودستور الولايات المتحدة والقوانين التي تتبناها سياساتها» (**تلك الحرب التي تخزينا** صفحة 99) ـ ترى أين حماسه الحاسم الباتر وضميره المتيقظ حيال العدد الذي لا يحصى لإختراق الصرب المجال الجوي للبوسنة؟! أو اختراقهم قرارات الأمم المتحدة؟ ومواصلة ارتكاب إسرائيل لمختلف أنواع جرائم الحرب التي تحتم محاكمة مرتكبيها، واستمرارها اختراق قرارات الأمم المتحدة بأحتلالها القدس وفلسطين والأراضي العربية؟!.

أن كل ما نطالعه أنه «ما زال يفكر».. وساسة الغرب «ما زالت تفكر».. وها هو وزير خارجية فرنسا يعلن أن تحذير بوش للعراق «يمكن» أن يكون «ذات يوم» تحذيراً للصرب في الأيام القادمة.. وما زال الكل يفكر ويسوّف، والسيد «الأمين» العام **يحذر من اتخاذ أي قرار** أو من محاولة استخدام القوة ضد الصرب!!. وبين التخاذل والتسويف والتلويح والتشدق بالعبارات تتم إبادة أمة بأسرها ذبحاً واغتصاباً..

وها هو خليفة بوش الجديد يسارع بالتعهد - حتى قبل أن يتولى مهام منصبه رسمياً - بتنفيذ الحظر والتوعد الذي تم فرضه على العراق، ومواصلة نفس النهج في استنفاد موارد الدول العربية وامتصاصها حتى لا تترك إلاّ وهي نخرة!.

أما عن بؤرة الصراع الجديدة/ القديمة الدائرة في الهند، تلك الهند، التي قسمها الاستعمار البريطاني تقسيماً يرمي إلى عزل المسلمين وإقامة الحروب العرقية التي لا تكف عن التطاحن.. فليست مسرحية هدم مسجد بابري الاستفزازية إلاّ من قبيل ما يطلق عليه الموسيقيون «البروفة جنرال» أي البروفة الأخيرة. وذلك في ظني الذي أتنبأ به - لجس نبض المسلمين ودراسة ردود أفعالهم عندما يقوم الغرب الصهيوني بهدم المسجد الأقصى!!. فلقد أعلن كلينتون في حملته الانتخابية أنه سيعترف بالقدس رسمياً عاصمة لإسرائيل على الرغم من أنها جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية، وعلى الرغم من قرارات الأمم المتحدة.. كما تسربت الأخبار - سواء من باب الخطأ أو العمد - بأن هيكل سليمان قد تم بناؤه بنظام المباني السابقة التجهيز حتى لا تستغرق إقامته إلاّ سويعات!.. وهو ما يتفق مع استمرارهم القيام بتقويض بنيان المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة..

ولا تأتي الإشارة إلى الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة إلاّ لمواكبته بأفعاله المتواصلة في هذه الأحداث وقيامه منذ عام 1948 بعمليات القتل والقمع والتطهير العرقي والاغتصاب المادي والمعنوي وآخرها ما قام به من طرد 418 فلسطينياً انتقاماً لمقتل ضابط واحد من جنود احتلاله.. بينما محادثات السلام المزعومة تترنح. وهؤلاء المبعدون وهم من صفوة الفلسطينيين، من أساتذة الجامعات والأطباء والصيادلة والمهندسين أو - حتى على حد زعمهم - من النشطين الحركيين البارزين، ملقون في العراء وتمنع عنهم المعونات ويحرمون قهراً من العودة إلى ديارهم.. وما زال الغرب يفكر والمستعمر الصهيوني يتعنت بينما يفوت الوقت والمبعدون محاصرون بالبرد وبنيران القذائف وبالصمت المهيب..

ومن الطريف أن نطالع أن مجلس الأمن قد أدان إسرائيل بالإجماع لطردها 418 فلسطينياً، وذلك بقراره رقم 799 موضحاً أن هذا التصرف يخالف الاتفاقية الرابعة لجنيف.. وعلى الرغم من هذه الإدانة الجماعية «فإن إسرائيل لم

تعباً كثيراً من هذا القرار **لأنه صدر بدون تحديد أي التزام أو أية عقوبات**»! (**ليموند** 20/ 12/ 1992).

وليست هذه إلاّ شذرات لذلك التعصب المقيت.. فقرار طرد الفلسطينين الأربعمائة وثمانية عشر يمثل جزءاً لا يتجزأ من تلك المذابح الجماعية التي ترتكبها اسرائيل منذ غرسها لاحتلال الوطن العربي، ومنها مذبحة الفلسطينيين في ساحة المسجد الأقصى عام 1990، وهي جزء من ذلك المخطط الذي أعلنه موشي ديان **للصنداي تايمز** في 10/ 9/ 1967:

«أن هناك مليون يهودي جاءوا محل العرب، وسواء أعتبر هذا العمل أخلاقياً أم لا، **فالحقيقة هي أنه لا يوجد مكان للعرب في إسرائيل**» !!.
وكيف لنا أن ننسى دير ياسين وكفر قاسم وكل ما يتم من قتل جماعي؟

وإذا ما ربطنا المشروع الاسرائيلي الذي تم إعداده في الثمانينات، على أيدي مجموعة من خبراء الأمن والسياسة العسكريين، والذي كان يرمي إلى تفتيت العالم العربي المحيط بها إلى دويلات صغيرة، وذلك عن طريق استغلال النزعات الاستقلالية الاقليمية العرقية والدينية والطائفية، وتشجيعها إن لم يكن تحريكها، لأدركنا المغزى الحقيقي لما دار من أحداث وما زال يدور في العالم العربي.. بل وإذا ما ربطنا كل هذا بما أعلنه البابا يوحنا بولس الثاني عام 1985 عن القضية الفلسطينية وأن الشرق الأوسط يمثل جزءاً من الاهتمامات الرئيسية للكرسي الرسولي، «وأن البابا ودبلوماسييه سيواصلون البحث بحيوية عن وطن لمنظمة التحرير الفلسطينية»!!! (**رسل الفاتيكان**، 1985 صفحة 372) لأدركنا حقيقة المخطط: فإلى أن يتم البحث عن وطن آخر للمنظمة لن يكون هناك ما يطلق عليه «الشعب الفلسطيني»!.

ولا نملك إلاّ أن نذكر تعليقاً صحيفاً يجمع بين الحديثين السابقين يقول: «لقد أثار طرد 418 فلسطينياً قلق البابا يوحنا بولس الثاني الذي كان يأمل في مباحثات السلام في الشرق الأوسط إذ كانت ستسمح له بالاعتراف الكامل القطعي بدولة إسرائيل والحد من العداء اليهودي المسيحي الذي دام ألفي عام، وأن يحمي مصالح الأقليات المسيحية في البلدان العربية بشكل أفضل... **إن الاعتراف الكامل بإسرائيل من قِبل الكنيسة الكاثوليكية يعد حدثاً له اعتباره من الناحية الرمزية والسياسية**... وقد تم إنشاء لجنة ثنائية بين الكرسي الرسولي

وإسرائيل... وبإعلانه الذهاب إلى السودان في شهر فبراير القادم (1993) فإن البابا يتحدى الأصوليين الإسلاميين.. وإذا ما كان لاعتراف البابا بدولتين كاثوليكيتين هما سلوفينيا وكرواتيا له ثقله في تفتيت الاتحاد اليوغسلافي، فإن البابا يجاهد حالياً في ربط الحوار مع الصرب الأورثوذكس...»!! (**ليموند** 27 ـ 28/ 12/ 1992) وما نود التأكيد عليه هنا أن الاعتراف الكامل بإسرائيل لم يكن «دينياً بحتاً» كما أكدوا للحكومات العربية وإنما هو اعتراف سياسي من الدرجة الأولى.

ومن سياق الأحداث السابقة ندرك مدى تدخل البابا في الساحة السياسية العالمية، على الرغم من أن الديانة التي يترأسها ديانة أخروية لا علاقة لها بالشؤون الدنيوية. لذلك نتناول باقتضاب ذلك الدور الذي تقوم به الكنيسة بعامة والدور الذي يقوم به قداسته بصفة خاصة.. فمن المعروف أنه منذ أن تولى الاسقف البولندي كارول ڤويتيلا رئاسة الفاتيكان تحت اسم يوحنا بولس الثاني فإن ذلك لم يضع حداً للسيطرة الإيطالية على البابوية منذ أكثر من أربعة قرون فحسب، وإنما يكشف عن مدى توغل المخابرات الأمريكية وسيطرتها على الكرسي الرسولي الذي له علاقات سياسية دبلوماسية في جميع أنحاء العالم..

ويقول جوردون توماس وماكس مرجان ـ ويت في كتابهما الثاني المشترك عن **رسل الفاتيكان** (1985): «إن العلاقات مع الأمريكان قد تحسنت. وأن رجال الكهنوت الأمريكان قد أقاموا علاقات وطيدة مع يوحنا بولس الثاني لم تكن قائمة مع سابقيه» (صفحة 9).

وعلى الرغم من إعلان الصحفيين عدم توغلهما في تفاصيل الفضيحة المالية ـ الماسونية التي ألقت بظلالها على نيافته وعلى علاقات الكنيسة بالدولة وبالماسونية (صفحة 9)، فهما يؤكدان على الدور السياسي الدبلوماسي الذي يقوم به نيافته بدءاً برئيس حرسه الرسمي، وهو من رجال الدين الذي يحمل جهازاً للإنذار أحد أزراره الثلاثة متصل بالبوليس والآخر متصل بمسؤول المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) بالسفارة الأمريكية في روما (صفحة 13)، وأن جهاز المخابرات المركزية يمثل أحد أهم مستشاري الفاتيكان في شئون المعلومات بالإضافة إلى تعاونهما مع جهاز الموساد!!. ولقد تأصلت العلاقات وتوطدت بين الكيانين (الأمريكي والفاتيكاني) لضرب عدوهما المشترك في

بولندا أولاً ثم في عقر داره، حيث انتهى الأمر بانهيار الاتحاد السوفياتي في أواخر عام 1991.

ولا يسع المجال هنا لتناول الدور الذي لعبه البابا في قلب نظام الحكم في بولندا ولا تدخله شخصياً للإفراج عن ليخ فاليسا عندما اعتقل في بداية مشواره السياسي عام 1982 تحت راية حزب «التضامن».. وهو الاسم المأخوذ من إحدى خطب البابا بعد استئذانه ـ وكانت تدور حول ضرورة «التضامن الجماعي».. وبذلك قد أعلن نيافته عن موافقته على تدخل الكنيسة في الشؤون السياسية الخارجية (صفحة 36 ـ 37).. وكانت بولندا آنذاك بمثابة حقل التجارب أو التجربة العامة قبل تطبيقها على البلدان السوفيتية فيما بعد.

ثم يتناول الصحفيان التدخلات السياسية في البلدان الأخرى مروراً بلبنان، حتى يصلا إلى القارة الافريقية قائلين: «إن الولايات المتحدة لن تسمح أبداً بالحد من سيطرة البيض على جنوب أفريقيا فهي وحدها التي تسمح بحرية تحرك الأساطيل الغربية في هذه المنطقة» (ولا ننسى أن الكتاب صادر عام 1985)..

وبالتضافر مع جهود الموساد تم اتخاذ قرار اندلاع الثورة في جنوب افريقيا.. ولا نذكر ذلك إلاّ للإشارة إلى الدور الذي يمثله تواجد القوات الأمريكية في الصومال حالياً و«عودة الأمل» إلى مصالحها ومخططاتها الاستعمارية في شكله «الإنساني» الجديد، الذي بدأت «إنسانيته» تنعكس على العراق وتتقاعس عن البوسنة والهرسك!!.

وتدفعنا مقولة «البحث عن وطن آخر لمنظمة التحرير الفلسطينية»، على الرغم مما بها من أجحاف لإغفال حتى اسم الشعب الفلسطيني، أن نعود إلى تناول دور ذلك التعصب الأكمه وتقاربه المغلوط من الإسرائيليين وتعنته الدؤوب ضد الإسلام والمسلمين.. وذلك بتناول الموقف غير الرسمي أو غير المعلن للمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني واللقاءات التي سبقته أو أعقبته..

ونبدأ بما يتضمنه الكتاب المعنون **«فاتيكان اثنين»** (1966) الذي يتضمن الجلسات التمهيدية لإعلان موقف الكنيسة وعلاقاتها بالديانات غير المسيحية.. ومن الملفت للنظر أن تأتي دراسة الدين الإسلامي، من حيث الترتيب، بعد الديانة الهندية والبوذية.. بل والأكثر سخرية أن يقول الأب كاسبار

Caspard في مطلع بحثه: إن دراسة الإسلام في هذا المجمع لم تطرح إلاّ بشكل عرضي وغير متوقع.. أي أنه لم يكن في الحسبان.. بل لقد هاله صمت ممثلو الكنائس الشرقية وعدم قيامهم بالإشارة إلى الإسلام في إجتماعهم وكأنهم لا يعيشون في تواجد متواصل مع الإسلام والمسلمين!.

والأب روبير كاسبار هو أستاذ علم الدين الإسلامي في المعهد البابوي للدراسات العربية في روما ومستشار السكرتارية لغير المسيحيين. وأثناء انعقاد جلسات المجمع كان عضواً في اللجنة الفرعية الخاصة بالإسلام في سكرتارية وحدة المسيحيين..

وبدأ الأب كاسبار بتوضيح الحذر الشديد أو القدر الشحيح في تناول قضية الإسلام في دورته الثانية عام 1962. ثم أخذ يوضح كيف بدا الأمر وكأن الدين الإسلامي لا يدخل في اهتمامات الأساقفة وكيف أن المسئولين منهم عن عمليات التبشير لا يتحدثون عنه إلاّ فيما ندر ذلك لأنهم يعتبرون «**إن الإسلام خطأ مطلق لا بد من رفضه لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة ولا بد من محاربته**» (صفحة 202).. ولو أن البعض يرى أن هناك شذرات من الحقائق وأوجه الشبه بين المسيحية والإسلام ولا بد من تنميتها.. ولقد أثيرت قضية الإسلام لأن البطريارك ماكسيموس الرابع قد أوضح أنه لا يمكن للمجمع أن يتحدث عن اليهود دون أن يتناول الديانات الأخرى وخاصة الإسلام..

وبدأت أولى المبادرات الفعلية المتعلقة بالإسلام في دورة 1964، وعهد إلى لجنتين كتابة فقرة خاصة بالإسلام لتدرج في الوثيقة الرسمية للمجمع وتناولت إحدى اللجان الموضوع وعلاقة الكنيسة مع «الذين لم يتقبلو الإنجيل بعد»!. وجاءت صياغة الفقرة على النحو التالي: «وأبناء إسماعيل ليسوا غرباء أيضاً على الرسالة التي نزلت على الأباء، لأنهم يعترفون بإبراهيم كأب لهم ويؤمنون أيضاً برب إبراهيم» (المرجع السابق صفحة 203).. وكان النص مصحوباً بهامش يوضح أن «أبناء إسماعيل» هؤلاء هم المسلمون..

وفي أثناء انعقاد هذه الدورة وقعت ثلاثة أحداث لفتت أنظار العالم إلى الديانات الأخرى غير المسيحية وخاصة بالإسلام، وهي زيارة البابا بولس السادس للأراضي المقدسة والتي أرسل أثناءها أكثر من تحية للمسلمين ثم تشكيل الكسرتارية الخاصة بدراسة الأديان غير المسيحية عام 1964 وقد أضيفت

لها لجنة فرعية عام 1965 خاصة بالإسلام ثم نشر بيان بولس السادس في 8/6/ 1964 الذي أقر فيه الحوار مع الديانات الأخرى غير المسيحية وخاصة مع الإسلام.

وعلى الرغم من قصر النص الذي أشاروا به إلى الإسلام إلاّ أنه قوبل باعتراض جامح من أغلبية الحاضرين عند التصويت عليه في المجمع.. وذلك اعتراضاً على أن تعبير «ليسوا غرباء على الرسالة التي نزلت على الآباء» قد يفهم منها «**حلاً للمسائل الصعبة والتي دار حولها الجدل طويلاً من قبل: سلالة العرب من إسماعيل وخاصة ربط الإسلام بالرسالة الإنجيلية** (صفحة 205) «ولكي لا يبدو الأمر وكأن الله قد خاطبهم أيضاً»!! مما يؤكد كل ما قاموا به من تحريف متعمد يتنصلون منه شكلاً أو ظاهرياً..

وتم تعديل النص حتى تستبعد الإشارة إلى أن العرب من سلالة إسماعيل وبالتالي استبعاد قرابتهم السلفية لإبراهيم وللمسيحيين أو أنهم أبناء عمومة.. واعترض البعض ثانية عند التصويت على الصياغة التي تم تعديلها. وفي الجلسة الرابعة تم الاقتراع بعد التعديل النهائي بموافقة 2221 أسقفاً واعتراض ثمانية وثمانين أسقفاً.

والتعديل الأخير يضع سيدنا إبراهيم في موضع «النموذج الذي يحتذي به المسلمون في إيمانهم لخضوعه لرغبة الله، ولا يصفه في أصل سلالتهم ولا في موضع جدهم الأول، على عكس الصياغة الأولى التي كانت تبدو تأكيداً لإنحدار العرب من ابنه البكر المفدى، إسماعيل، وتأكيداً لشخصيته كما وصفها القرآن (صفحة 220).

ولقد حاول الأب روبير كاسبار تبرير موقف المعترضين قائلاً إن لقاء الإسلام والمسيحية قد وقع منذ البداية في سوء فهم، وقد استمر لمدة قرون طويلة في عداء سافر وعلى أصوات السلاح والمناقشات الدينية العنيفة الناجمة عن الانتشار السريع للإسلام في عصوره الأولى.. الأمر الذي أدى إلى تراجع المسيحية في كثير من البلدان. وأوضح كيف أنه بعد الحروب الصليبية قد «عاد الغرب إلى الهجوم واحتل معظم البلدان الإسلامية تحت شكل الاستعمار المباشر أو الحماية وأن المرحلة الأخيرة والتي لم تنته بعد هي مرحلة التحرر من

الاستعمار بشكل متدرج أو عنيف. الأمر الذي أدى إلى تحرير معظم البلدان الإسلامية»! (صفحة 209).

ثم يوضح كاسبار أن كل محاور المناقشات الجانبية للمجمع تدور حول كيفية الإحاطة أو كيفية الاستحواذ على الإسلام وامتصاصه أو إذابته داخل المسيحية. ولم يتغير هذا الموقف الذي بدأ منذ ظهور الإسلام بل ومن قبل ظهوره ـ كما سبقت الإشارة لذلك ـ عندما كثر الكلام بين الأحبار ورجال الكهنوت على السواء، عن اقتراب مجيء الرسول الذي بشر به السيد المسيح، فقام مجمع نيقية ـ كما رأينا ـ بتأليهه لوصد الباب نهائياً أمام سيدنا محمد.. فبعد الله ومنزلته الجليلة لا يوجد أي شيء...

وها هو **الكتاب الديني الجديد**، الصادر في نوفمبر 1992 يؤكد حقيقة هذا الموقف. ففي البند التاسع من «**عقيدة الإيمان بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة**»، في النقطة الثالثة التي تنص على أن **الكنيسة كاثوليكية**، وأن كل كنيسة خاصة هي كاثوليكية، يأتي الجزء الذي ينص على موقف الكنيسة من غير المسيحيين ويبدأ بالعبارة التالية: «أما فيما يتعلق بالذين لم يتقبلوا الإنجيل بعد، بأشكال مختلفة، فهم أيضاً مأمورون بأن يصحبوا شعب الله» (صفحة 184):

«**علاقة الكنيسة بالشعب اليهودي**: إن الكنيسة، شعب الله في العهد الجديد، **اكتشفت** علاقتها بالشعب اليهودي «الذي تحدث الله إليه أولاً» **وذلك بالتنقيب في أسوارها الذاتية**، وعلى خلاف الديانات الأخرى غير المسيحية، فإن العقيدة اليهودية تمثل إجابة لما أنزله الله في العهد القديم. ذلك لأن «الذين هم إسرائيليون ولهم التبني والمجد والعهد والاشراع والعبادة والمواعيد ولهم الآباء ومنهم المسيح **حسب الجسد** (رومية 9: 4 ـ 5) لأن «هبات الله ودعوته هي بلا ندامة» (رومية 11: 29).

وقبل الانتقال إلى النقطة التالية التي تتعلق بعلاقة الكنيسة مع المسلمين، لا بد من وقفة نشير خلالها إلى الآية الواردة في النقطة السابقة والتي تنص على أن «لهم الآباء ومنهم المسيح **حسب الجسد**» التي يؤكد بها بولس الرسول قرابة اليهود وانتمائهم للسيد المسيح «حسب الجسد». فبعدها بآيتين اثنتين من نفس الاصحاح التاسع نراه يستبعد إسماعيل ونسله من نسل سيدنا إبراهيم بنفس

ذلك السبب قائلاً وبإصرار: «لا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد. بل بإسحاق يدعى لك نسل أي ليس **أولاد الجسد** هم أولاد الله بل **أولاد الموعد** يحسبون نسلاً»!!.

ولا نملك إلاّ أن نتساءل بكل أسف: أما من نهاية لهذا التحريف وهذا التلاعب بالألفاظ؟! كيف يمكن التأكيد عل قبول اليهود «حسب الجسد» واستبعاد إسماعيل لأنه ابن إبراهيم «حسب الجسد»؟!. ومن المعروف والثابت في سفر التكوين أن إسماعيل أتى بالموعد والبشارة قبل إسحاق بأربعة عشر عاماً، وقد أتى إسحاق أيضاً بالموعد والبشارة مثلما أتى يوحنا المعمدان بالموعد والبشارة وبعده بستة أشهر أتى المسيح أيضاً بالموعد والبشارة، وقد كلمه الله «ثانياً» مثلما كلم موسى «أولاً».. فلماذا استبعاد إسماعيل والنبي القادم من نسله والذي كلمه الله ثالثاً وأخيراً؟! لماذا هذا الاستبعاد وأنتم تعرفونه علم اليقين؟!.

أما في النقطة التالية التي تتعلق بعلاقات الكنيسة مع المسلمين فنقرأ منها: «إن هدف الخلاص يتضمن أيضاً من يعترفون بالخالق، وأولاً المسلمون الذين يؤمنون بإبراهيم ويعبدون معنا الله الواحد، الرحيم، حاكم الناس في اليوم الآخر».. وتعترف الكنيسة للديانات الأخرى ببحثها عن الله وهو بحث «ما زال في الظل وتحت الصور»... لذلك تعتبر الكنيسة كل ما هو طيب وحقيقي في هذه الديانات «بمثابة إعداد إنجيلي وهبه من الذي يغير كل إنسان لكي يحصل، أخيراً، على الحياة» (صفحة 185) و«هدف الخلاص» هذا يعني ضرورة فرض المسيحية الكاثوليكية على الإسلام وعلى العالم أجمع!.

ثم يوضح الكتاب كيف أنه لا يوجد خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية، وأنه من واجبها المقدس تبشير كل الذين ما زالوا يجهلون الإنجيل (صفحة 186)، وكيف أن المجهود التبشيري يتطلب صبراً (صفحة 187)، «وأن عملية التبشير تبدأ بالتبشير بالإنجيل إلى الشعوب والجماعات التي لا تؤمن بعد بالمسيح، وتستمر بإقامة جماعات مسيحية تعد بمثابة «علامات على وجود الله في العالم»، وفي إقامة كنائس محلية، وبدء عملية محو ثقافي لتجسيد الإنجيل في ثقافات الشعوب... وفيما يتعلق بالناس والجماعات الإنسانية والشعوب، فإن الكنيسة لا تصل إليهم ولا تتوغل فيهم إلاّ بالتدريج وبذلك تستحوذ عليهم

في شمولية الكاثوليكية»!! (الفقرتان رقم 854 و855 صفحة 187 ـ 188).

ذلك هو المخطط المعلن في كتاب **الكنيسة الكاثوليكية** الصادر في نوفمبر 1992، والذي يعد بمثابة توجيه إجباري يتعين على كافة الحكومات المسيحية أن تتبعه سواء أرادت أم لم ترد على حد قول ميشيل ليجري في مجلة **أكسبرس** (المشار إليها سابقا)..

ولا يمثل ذلك أية صعوبة، إذ يكفي أن نرى كيف واجهت الكنيسة ومؤسساتها حركة العصرية وإن كان اللفظ العربي المستخدم في المجال الديني هو: التجديدية. والتجديدية هي «ذلك الاتجاه الذي يدفع المسيحي إلى محاولة التوفيق ما بين العقائد الدينية والحقائق العلمية ويطالب بحق تفسيرها بصورة مختلفة عن تلك الصورة الحرفية الممتده على طول تاريخ الكنيسة» (موسوعة **بورداس** صفحة 232). وبرز هذا التيار حوالي عام 1860 نتيجة للدراسات التي تمت في مختلف بلدان أوروبا وخاصة ألمانيا وجامعاتها اللاهوتية وكلية توبنجن بصفة خاصة، والتي راحت تؤكد أن الإنجيل بعهديه لم يكتبه الأشخاص الذين يزعم التراث الكنسي أنهم كتبوه ولا في الظروف التي يفترضونها. وراحت هذه الأبحاث تؤكد أنه لا توجد اختلافات واضحة بين الأناجيل فحسب بل أن هناك متناقضات شديدة وأنه لا بد من إعادة النظر بشكل علمي في هذه الأناجيل..

فما كان من البابا بيوس التاسع إلاّ أن أصدر قرارَه في 11/ 12/ 1862 وذلك في إحدى رسائله (وهي بعنوان gravisima) جاء فيها: «لا يمكننا قبول قيام العقل بغزو المجال المخصص لشؤون الإيمان ليزرع فيه الاضطراب..

وتوارثت البابوية محاربة تيار التجديدية للحد من انتشار موجة الإلحاد الناجمة عن مزيد من كشف المتناقضات الواردة في النصوص الإنجيلية وكل ما أجراه التعصب من نسيج مغرض وتحريف للعقيدة الأصلية فقامت الكنيسة الكاثوليكية باستحداث وسائل جديدة تزعمها كل من البابا ليون الثالث عشر وبيوس الحادي عشر الذي تولى البابوية من 1922 إلى 1939، وهو الذي أنشأ دولة الفاتيكان واستقلال الكرسي الرسولي عن الحكومة الإيطالية. ففي حربه ضد التجديدية أعتمد على تجنيد المدنيين للعمل على نشر الدعوى الكاثوليكية إلى جانب رجال الدين الأصليين، كما استعان بالعمال كمبشرين ـ وهو ما لجأ

إليه البابا يوحنا بولس الثاني في بولندا واستعانته بليخ ڤاونسا عامل الموانى زعيماً للعمال..

ومن أهم المنظمات التي تم خلقها للتصدي للتجديدية والإلحاد منظمات تسمح بتجميع الجماهير مثل: منظمة الشباب العمالية، الجامعة العمالية الكاثوليكية، الشباب الزراعي الكاثوليكي، الشباب الطلابي الكاثوليكي، شباب المستقبل الكاثوليكي، الشباب البحري الكاثوليكي. وذلك بالإضافة إلى بعض الحركات والأنشطة مثل حركة الكشافة للبنين، وأخرى للبنات، والمعتزلين القدامى، ورحالة التجارة الكاثوليكية، ورابطة القلب المقدس، والرابطة الكاثوليكية النسائية، والشفاعات والجهاد الديني القرباني، وجمعيات السيدة العذراء، وفيلق مريم، والحركة المسماه «باكس رومانا» أي السلام الروماني نسبة إلى روما.. الخ وكلها من المنظمات والهيئات التي تكشف عن مدى التخطيط والتضافر لمحاصرة أي خلاف أو تهديد من العلمانية ثم يفرضونها على الإسلام!!.

أما عن للقاءات التي تلت مجمع الفاتيكان الثاني فلقد تم أحدها في شهر يوليو عام 1974، بين عدد من الشخصيات المسيحية والمسلمة، في مدينة قرطبة. وبعد ذلك بعدة أشهر التقى عدد من الجامعيين المسلمين والمسيحيين في تونس بمدينة القيروان، في مؤتمر بعنوان: «الوعي المسيحي والوعي الإسلامي في مواجهة تحدي التطور». وكان ذلك بناء على مبادرة من مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع لجامعة تونس. كما تم تنظيم حوار إسلامي مسيحي في مدينة طرابلس في فبراير عام 1976، بالتنسيق المشترك بين الجماهيرية الليبية وسكرتارية الفاتيكان للعلاقات مع الديانات غير المسيحية، حضره مائتان مسلماً ومائتان مسيحياً جاءوا من مختلف بقاع العالم.

ويقول الأب ميشيل ليلونج M. Lelong في كتابه الذي أتخذ له عنواناً: **«ما انزل الله»** وهو جزء عن الآية 48، عن سورة المائدة. إن هذا المؤتمر كان أكثر حظاً من قِبَل الإعلام: «أن الصحافة، والاذاعة، والتلفزيون قد تحدثوا كثيراً عن هذا اللقاء - وإن لم يكن بشكل موضوعي باستمرار. إذ اهتمت هذه الوسائل بالتأكيد على المتناقضات وكثيراً ما قدموها على أنها مجرد فشل» (صفحة 12).

وبعد لقاء طرابلس بعام تقريباً، تم لقاء له أهمية خاصة، إذ قامت بتنظيمه اللجنة البابوية للعلاقات الدينية مع الإسلام في مدينة فيينا بالنمسا. كما قامت هذه اللجنة التي يرأسها الكاردينال بنييدولي Pignedoli بدعوة كافة لجان أسقفيات أوروبا، والمجمع الكنسي في مدينة جنيف، وعدد من الشخصيات الإسلامية لدراسة العلاقات بين المجتمعات المسيحية والإسلامية في البلدان الأوروبية. وعقب هذا اللقاء تم تبادل الأمنيات اتخاذ القرارات خاصة أن الفاتيكان قد حث الاسقفية الأوروبية على «تكثيف جهودهم لكي يتخذ المسيحيون من المسلمين وعقيدتهم وأمتهم موقفاً يتسم بالاحترام والصداقة والأخوة وفقاً للتوجيهات التي حددها هذا المجمع» (**ما أنزل الله** صفحة 13).

وإذا ما كان تبادل الزيارات بين المسؤلين من رجال الدين على الجانبين يشير إلى بداية تغيير في العلاقات والمواقف فقد انعكس ذلك أيضاً بعض الشيء في المجلات الدينية الكاثوليكية أو البروتستانتية وخاصة التابع منها لإرساليات المبشرين. وهنا يقول الأب ليلونج «بينما كانت تتحدث في مطلع هذا القرن عن الإسلام والمسلمين بصورة سطحية وغير عادلة، بدأت تكرس لهم المقالات والأعداد الخاصة المدعمة بالوثائق الأخوية الطابع» (المرجع السابق صفحة 14).

إلاّ أن كل ذلك أدى بالبعض، في مختلف الأوساط الكاثوليكية والبروتستانتية إلى التساؤل عما إذا لم تكن الكنيسة تنساق بعيداً في هذا المجال، أو بقول آخر: «ألن يؤدي احترام عقيدة الآخرين واحترام قيم الإسلام إلى مجازفة نسيان الخاصية المسيحية، وأن ذلك قد يؤدي إلى التراخي بعض الشيء في دينامية المبشرين الذين هم رسل الإنجيل؟ وهل يتعين على هؤلاء تجاهل وعدم ملاحظة التوسع الحالي للإسلام وتأثيره المتزايد في إفريقيا السوداء؟ وهل لا يمثل هذا التأثير تهديداً للكنيسة؟» (المرجع السابق صفحة 14 ـ وهو صادر عام 1977).

ولعل هذه التساؤلات ـ على حد قول الأب ليلونج ـ ترجع إلى أن معظم الكاثوليك والبروتستانت الذين ما زالوا يحتفظون بأفكار خاطئة مسبقة عن الإسلام كاستمرار للموقف العدائي المتوارث من القرون الماضية، لا يرون جدوى للحوار المسيحي ـ الإسلامي.. ومن ناحية أخرى فإن التقارب في هذا

الحوار «يثير قلقاً ما في الأمة اليهودية» وهو قلق يفسره الأب ليلونج على أنه يمكن فهمه على ضوء المحن الماضية والمصاعب الحالية ومجازفة الوصول إلى صراع سياسي - ديني قد يقع فيه أتباع الديانات التوحيدية الثلاث...

ثم يشير الأب ليلونج إلى أن القرآن والإنجيل يتحدثان عن سيدنا إبراهيم كأب للمؤمنين، ويتحدثان عن موسى ويوسف ويوحنا المعمدان وكثيرين غيرهم، إلاّ أنهما يختلفان في بعض النقاط الأساسية حول شخصيه وتاريخ ورسالة هؤلاء الرسل، موضحاً اختلاف العقيدتين فيما تقولانه عن السيد المسيح وعن سيدنا محمد قائلاً: «إن نبي الإسلام، الذي أتى بعد خمسة قرون من وفاة آخر الرسل - الذي تعتبره الكنيسة تراثياً نهاية النبوة - قد أسيء الحكم عليه لفترة طويلة من قِبَلْ المسيحيين بصورة سلبية بحتة، عدوانية وصراعية، ويشهد على ذلك بكل أسف، ذلك الكم الوفير من المؤلفات..

«لقد حان الوقت ليحدث تغييراً عميقاً في وجهة النظر حيال هذه النقطة الأساسية. وأثناء المؤتمر الإسلامي - المسيحي، المنعقد في فبراير عام 1976، قام المتحدث الرسمي للوفد الكاثوليكي بالاعتذار رسمياً لممثلي الأمة الإسلامية عن الجور البالغ الذي قامت به الكنائس المسيحية منذ قرون ضد الإسلام والمسلمين».. ثم يختتم الأب مقدمة الفصل الثاني من كتابه الذي قام خلاله بتناول الآيات التي تتشابه بين الإنجيل والقرآن قائلاً: «إذا ما كنا ندين بالعقيدة المسيحية فلا يمكننا أن نتقاسم إيمان المسلمين حول نبي الإسلام. ولكن إذا ما كنا مسيحيين حقاً فيجب علينا أن نتخذ حيال القرآن ومحمد موقفاً محترماً، دينياً وقائماً على المعطيات التاريخية الموضوعية» (المرجع السابق صفحة 67).

والأب ليلونج يعتبر من الأباء الذين يتبنون موقفاً يتسم بالموضوعية إلى حد ما، وقد تم اختياره عضواً في «جمعية الحوار الإسلامي المسيحي» التي أنشئت في أواخر شهر ديسمبر 1992 بباريس. وهو من الذين يعتبرون بيان مجمع الفاتيكان الثاني نداءً لمزيد من التقارب.. إلاّ أن مجريات الأحداث، منذ عام 1965 حتى الآن في أوائل أيام يناير عام 1993، تؤكد أننا لسنا بحاجة إلى محاولات تقارب أو إلى مزيد من المحاولات السطحية وإنما نحن بحاجة إلى وقفة أمينة جادة وصادقة.. وقفة لا نقرأ فيها عما يواجه رجال الدين الأجلاء من

صعوبة لتخطيهم مغالطاتهم وفرياتهم في حق الإسلام، «خاصة وأنها قد دامت طويلاً».. وقفة لا يتمسكون خلالها إلاّ بالصدق والأمانة الذي طالبهم به السيد المسيح ـ خاصة وأن موقفهم من اليهودية يختلف تماماً عن موقفهم من الإسلام. ومثلما عرفوا كيف يجتازون حقبة امتدت إلى ألفي عام من الوقائع والأحداث الثابتة المعاشة بغية تبرئة اليهود من قتل المسيح، ولم يكن ذلك إلا من أجل أغراض سياسية بحتة، وها نحن نقرأ عن واقعة الاعتراف باليهود وتبرئتهم في موسوعة **اونيفرساليس**: «أن السكرتارية الخاصة بالوحدة بين الكنائس نجحت بعد حملات مكثفة من جمع المعلومات **في إقناع الحكومات العربية بالمرمى الديني البحت فيما يتعلق بالإعلان الخاص باليهود**»!! (المجلد 16)..

ولا تعليق على مثل هذا الاستشهاد إلاّ التأكيد على مدى التلاعب بالألفاظ.. فإذا ما كانت التبرئة دينية كما يزعمون لصدر بيان بإلغاء كافة الخلافات الدينية التي ما زالت قائمة، خاصة أن السيد المسيح الذي لم يرسل «إلاّ إلى خراف بني إسرائيل الضالة» (متى 2125: 24). قد قال: «لا تظنوا إني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل» (متى 5: 17).. ولا نذكر من هذه الخلافات إلاّ اعتراف اليهود بالسيد المسيح إلهاً ـ وفقاً للتحريف المسيحي الذي تم في مجمع نيقية الأول، وقيام الكنيسة بتوحيد عيد الفصح، الالتزام بالختان، والاعتراف بقدسية يوم السبت واعتباره إجازة رسمية كما جاء «أذكر يوم السبت لتقدسه» (خروج 20: 8) بدلاً من التحايل والتمسك بيوم الأحد على أنه اليوم الثامن ويمثل صبيحة السبت «أي أول يوم لكل شيء» ويوم بعث السيد المسيح! (**كتاب التعليم الديني الكاثوليكي** صفحة 446).. بل أن العقاب الذي نجم عن «صلب» السيد المسيح «هو تدمير الهيكل في القدس تعبيراً عن رفض الله لشعب إسرائيل الذي يعاني تيهاً وذلاً في الأرض نتيجة غلظة قلوبهم وسيظلون كذلك آية لنقمة الله حتى يعود المسيح في مجيئه الثاني» وهذه النقطة الثالثة من النقاط الأربع التي التقت فيها جميع الكنائس المسيحية بكافة أنواعها في خلافها مع اليهودية (**إسرائيل فتنة الأجيال** صفحة 208 ـ 209)..

ولم تتحقق نبوءة خراب الهيكل آنذاك نحسب ولكن القدس كلها دمرها

الأمبراطور هدريان سنة 135 ميلادية إخماداً لثورة باركوبية وطرد منها اليهود جميعاً وبنيت مكانها مدينة جديدة وحرّم على جميع اليهود دخولها. وقد دامت الامبراطورية الرومانية أكثر من ستمائة عام.. (**إسرائيل والتلمود** صفحة 165).

ولسنا هنا بصدد تحركات اليهود وطردهم أو فترات بقائهم فكلها أحداث تغص بها الكتب والأبحاث وإنما ما نود التأكيد عليه هنا هو عدم أحقية اليهود في هذه الأرض أصلاً وعلى عدم احقيتهم في إقامة دولة عرقية/ دينية. وذلك لأن دولة اسرائيل ـ على حد قول الأب جان ماري لامبير Jean - Marie Lambert أبعد ما تكون عن أنها وعد الله، أو شعب الله المختار الذي يعود إلى أرضه بعد ألفي عام، وإنما هي ثمرة الصراعات السلطوية بين فرنسا وبريطانيا العظمى في المنطقة. ثم أنها رأس الحربة التي يوجهها الغرب في قلب الشرق الأوسط بالمساندة الكاملة من الولايات المتحدة وبالاتفاق الكامل المؤكد مع الأحزاب الحاكمة في إسرائيل وهما حزب الليكود وحزب العمل (**المنظمات غير الحكومية حيال المشكلة الفلسطينية** صفحة 151).

وفي المائدة المستديرة التي تليت مؤتمر «مسيحيو العالم العربي» قال المهندس بول أبيلا P. Abla «هناك العديد من الفقرات الشديدة الحرج والتناقض في الإنجيل حتى أن بعض القسس لم يعد بمقدورهم قراءتها في قداساتهم (فيما يتعلق بالشعب اليهودي)... وأن الإنجيل يستخدم كدعامة إيديولوجية من الصهيونية السياسية».. أما الأب ميشيل جوندو M. Jondot فيقول عن إسرائيل أنها طردت الشعب الفلسطيني من أرضه للاستيلاء على أرض بلا شعب تحت زعم العصرية والديمقراطية والعدالة «قد فرضت على وجه ضحيتها قناع الفسق والفجور فالفلسطيني الذي يقاوم هو الإرهابي الذي لا إيمان له ولا قانون ويرفضه العقل والمنطق».

وإذا ما أجمع عدد لا حصر له من الآباء على عدم أحقية إسرائيل في هذه الأرض وعلى التلاعب السياسي بالعبارات الإنجيلية، بل وهناك العديد من الأبحاث والرسائل الجامعية التي تمت في هذا الصدد، فإننا نلخصها جميعها في حقيقة واحدة هي: إنه ما من عهد أو وعد قد أنزله الله على ذلك الشعب اليهودي إلاّ وكان مشروطاً بالصلاح والاستقامة والخضوع لله وتعاليمه وعدم الشرك به وإلاّ تحق عليه اللعنة. وتفضيل الله لليهود آنذاك كان مشروطاً إذ

يقول: «فالآية أن **سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي** تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمه مقدسة» (خروج 19: 5 - 6). وكان التفضيل المرتبط بالالتزام والطاعة في أن يكونوا رجال دين وليست قتله آثمين..

ولا يسع المجال هنا لكتابة كافة التحذيرات والشروط التي واكبت أي وعد، ومنها: «فأحبب الرب، إلهك واحفظ حقوقه وفرائضه وأحكامه ووصاياه كل الأيام... فاحفظوا كل الوصايا التي أنا أوصيكم بها اليوم لكي تتشددوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي أنتم عابرون إليها ولكي تطيلوا الأيام على الأرض التي أقسم الرب **لآبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم...** فإذا. سمعتم لوصاياي التي أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم وتعبدو من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم... فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم. وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق وحين تنامون وحين تقومون. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك... **انظر. أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة.** البركة إذا سمعتم لوصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها اليوم. واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم وزغتم عن الطريق التي أنا أوصيكم بها اليوم لتذهبوا وراء آلهة أخرى لم تعرفوها» (تثنية 11: 1 - 28)..

وكانت نفس الشروط واضحة صريحة بالنسبة لسليمان: «إن كنتم تقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتها إياها، والبيت الذي قدسته لاسمي انفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة في جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت؟ فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر» (الملوك الأول 9: 6 - 9).

وأخطأ سليمان ولم يلتزم كما أخطأ اليهود من قبله ومن بعده وكلها آيات ما زالت في الإنجيل، إلى أن أتى السيد المسيح مرسلاً من أجل هذه

«الخراف الضالة». وما نخرج به من هذا التاريخ هو ما نخرج به من أي اتفاق آدمي، فما بالنا وهو من أقوال الله: إن أي عهد أو أي وعد كان قد تم بين الله قد فسخ وألغيت شرعيته ولا يحق لهم أي زعم فيه، وإلاّ لما لعنهم السيد المسيح أربعة عشر مرة ولما لقبهم بالحيات أولاد الأفاعي المراؤون، ولما اختتم قوله: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا هوذا بيتكم يترك لكم خراباً لأني أقول لكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب» (متى 23: 27 ـ 29). أي أن السيد المسيح لم يلعنهم لقتلهم الأنبياء ولانحرافهم فحسب وإنما اشترط عليهم الاعتراف به والتبرك بمجيئه لأنه مرسل إليهم. ونخرج من كل ما تقدم بالنقاط التالية:

1 ـ كافة رجال الكهنوت يعرفون بحقيقة تزييف وتحريف الإنجيل بعهديه على مر العصور..

2 ـ لا يوجد في الإنجيل بعهديه أية آية تنص صراحة على مقولة «شعب الله المختار أزلياً وإلى الأبد» كما يزعمون وأنه **منذ البداية كان اختياراً مشروطاً ولم يلتزمو به**، فأي حق يطالبون به؟ فلقد عاش موسى في مصر وتعلم حكمة التوحيد من ديانة أخناتون وحينما انحرف المصريون القدماء بدينهم بعد وفاة اخناتون، وعادوا لتعدد الآلهة، أنقذ الله موسى وشعبه على أن يكونوا من الصالحين.. وكلم الله موسى وأنزل إليه الوصايا العشر ولم يلتزموا كما رأينا وكما يعلم الكافة.

3 ـ وعد الأرض كان لكافة نسل إبراهيم وأولهم إسماعيل.

4 ـ أن اعتراف الفاتيكان باليهود وتبرأتهم لم يكن اعترافاً دينياً على الإطلاق، كما ضحكوا على الحكومات العربية، وإنما هو اعتراف لمبررات سياسية بحتة، من أجل تضافر الجهود لمجابهة العدو الذي اختلقوه ظلماً وتزويراً، فالإسلام ليس عدواً لليهودية أو للمسيحية وإنما أتى مكملاً وخاتماً للرسالة التوحيدية، بل أن الاعتراف بالديانتين السابقتين يمثل جزءاً من العقيدة الإسلامية.. ومنها أيضاً لتنفيذ مخطط الاستيلاء على منابع البترول والسيطرة عليها..

5 ـ إن كل ما يدور حالياً على الصعيد العالمي من تضافر جهود مختلف

سلطات الغرب المسيحي، وعلى رأسه جهاز المخابرات المركزية والتعصب الكاثوليكي، يمثل تضافراً حميماً من أجل محاصرة الإسلام والشعوب الإسلامية والعربية، وانتزاع الإسلام من جذوره أو إبادتها مباشرة أو بواسطة أفراد أو حكومات عملية متواطئه.. وهو ما يتفق وما جاء في كتاب الأب زويمر الشديد العداوة للإسلام: «إن تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها» (**مهدالإسلام**).. فالتضافر خارجي وداخلي لتوجيه هذه الضربة العاتية للإسلام.. ولا نقول «الضربة القاضية» لأن الله أنزله وهو حافظه..

لكننا لا نملك إلاّ أن نتساءل: لما كل هذا الغلّ العارم حيال الإسلام والمسلمين؟ لما هذه الرغبة اللحوح والعداوة الشحناء التي يبثها الغرب رياح سموم كاسحة؟! «إن الشرق لم يضمر للغرب الاساءة... مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلاّ السلامه» على حد قول اتيين دينيه أو نصر الدين دينيه بعد أن أسلم ـ وقد توفى عام 1929..

ومهما قيل عن أن كافة أجيال الغرب شبّت على كره الإسلام بسبب كل ما تتشربه من تشويه له في كافة مجالات العلم والدين والتنشئة، فإن ذلك لا يبرر هذا الرعب الدفين الذي يكمن في أعمق أعماق الغرب وفي حنايا لا شعوره.. ولا تفسير لذلك إلاّ أن الإسلام والمسلمين يمثلون جسم الجريمة التي أرتكبها التعصب اليهودي والمسيحي.. جريمة لا بد من إبادة معالمها ـ في نظرهم ـ حتى لا تظل ماثلة تؤرق وتدين فعلتهم.. جريمة تمت عمداً بإسقاط سيدنا إسماعيل، الابن البكر، من نسل سيدنا إبراهيم، وكأنه لم يكن إذ نقرأ: «ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم. إبراهيم ولد إسحاق وإسحاق ولد يعقوب... الخ (متى 1: 1 ـ 17).. وإغفال أن العهد قد تم كما أوضحنا أيام كان طفلاً، وغلق باب النبوة في وجه سيدنا محمد بتأليه السيد المسيح، ومحو وتحريف أو تزييف ما استطاعوه من إشارات تدل على مجيء سيدنا محمد في الإنجيل بعهديه..

ذلك هو العمل المشترك بين متعصبي اليهودية والمسيحية، وذلك هو الدافع الحقيقي لتضافر جهودهما لضرب ما يهدد مصالحهما.. فقد تم ضرب الشيوعية بزعم الإلحاد، والشيوعية لم تقم في واقع الأمر إلاّ بفصل الدين عن

الدولة بحسم باتر: فليصلّي من يشاء لكنه ليس من حق أي إنسان إتخاذ الدين ذريعة لتحقيق مكاسب أو أغراض سياسية. فالإلحاد الناجم عن الكفر بسبب التزييف الكنسي وواقعه الذي فرض على البلدان الاشتراكية إنما مثله مثل الستار الحديدي، كان ذريعة لضرب هذه البلدان نفسها لأنها تمثل نظاماً اقتصادياً مغايراً، يهدد دعائم نظام رأسمالي آيل للسقوط. بينما يمثل الإسلام الملجأ الذي يستكين إليه الفارون بصدمتهم - عند اكتشافهم تزييف دينهم الذي يُفرض عليهم قهراً فعليهم أن يؤمنوا به وبكل متناقضاته وبلا تفكير، وإلاّ أصبحوا كفرة تحق محاربتهم!!.

ولما كان الحال كذلك - بلغة رجال القانون، كان لا بد للفاتيكان من تدبير حملة صليبية جديدة، على حد قول جاك ديكورنوا J. Decornoy في مقال له عن ازدياد توغل البابا يوحنا بولس الثاني في المسرح العالمي السياسي والديني أكثر من أي وقت مضى.. حملة صليبية ضد الإسلام تتخذ شكل الكاسحة الدولية أو «النشابة» الدولية كما أطلق عليها: «خاصة بعد أن تم السيطرة دينياً على أمريكا اللاتينية، بالاتفاق مع واشنطن، ومنع أية منظمات ذاتية حرة في افريقيا السوداء، وسحق الشيوعية أخيراً، فلا يبقى أمام البابا إلاّ توجيه المد الكاسح إلى الأصوليين الإسلاميين، ليقوم بعدها بمهمته الأخيرة وهي دمج الكنائس المسيحية بأسرها تحت لواء روما الكاثوليكية (**ليموند دبلوماتيك** سبتمبر 1992).

ذلك هو ما يقوم به رجال السياسة الاستعماريون ورجال الدين المتعصبون.

لذلك لا نملك إلاّ أن نتوجه إلى البابا يوحنا بولس الثاني، إلى من يؤمّ الصلاة في العالم باسم السيد المسيح، لكي لا نقول إلى من يبارك القتل والطرد ومجازر الاغتصاب المنسق وزرع أجنّه الكلاب في أرحام البوسنايات قائلين مع السيد المسيح: «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس بإسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا الشياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذٍ أصرح لهم أني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (متى 7: 21 - 23). ذلك هو ما قاله السيد المسيح بعد أن قام

بتقديم وشرح الوصايا التي تمثل الشريعة. و«إرادة أبي الذي في السموات» هنا تمثل ذلك الدين الحنيف الذي أنزله الله في الوصايا العشر على سيدنا موسى، وهي إجمالاً: التوحيد وتحريم الوثنية، صنع الإحسان، عدم نطق اسم الله باطلاً، ذكر يوم السبت وتقديسه والراحة طواله، إكرام الأب والأم، عدم القتل، والزنا والسرقة والشهادة الزور أو اشتهاء بيت الجار بكل ما فيه..

وبعد ضلال اليهود مراراً وتكراراً أتى السيد المسيح مكملاً وليس ناقضاً.. واتبع نفس الوصايا مع تغيير ترتيبها وزيادة النزعة الإنسانية لكل بند من بنودها إلى درجة جد كريمة تجعل البشر جديرين بإنسانيتهم.. ثم أختتم وصاياه قائلاً بعد أن حذر من الصلاة الزائفة: «فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبه برجل عاقل بنى بيته على الصخر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسساً على الصخر. وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يُشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط. وكان سقوطه عظيماً» (متى 7: 24 - 27).

وضل المسيحيون بتعصبهم وتزييفهم للدين الحنيف، وكان سقوطهم عظيماً وأثمهم أكبر وأعظم..

وبعد هذه الآيات الكريمة وهذه الوصايا التي تمثل جوهر الدين الحنيف، الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، قبل أن ينزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، لا نجد ما نختتم به هذا الجزء إلاّ أن نسأل نيافة البابا يوحنا بولس الثاني: ترى هل ما يدور من تدبير لسحق الإسلام والمسلمين واقتلاعهم من أراضيهم ونهب ثرواتهم وامتهان كرامتهم يتفق وأقوال السيد المسيح والوصايا التي جاء من أجل ترسيخها؟!..

سؤال نترك الرد عليه لأعماق ضمير نيافته الإنساني، وليس لما يمثله كرسيه الرسولي من تعصب دنيوي.. سؤال موجه إلى ذلك الضمير الذي سيمثل به أمام الله سبحانه وتعالى..

وهناك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل الأمناء في الغرب والشرق، سواء أكانوا من رجال اللاهوت أم من العلماء والباحثين.. إن نضمه إلى كل الشرفاء الذين أبوا التواطؤ على مر العصور أو الاشتراك فيه، وراحوا يكشفونه

آملين الحد من طغيانه الجارف، لنناشد صوت العقل والعدل الإنساني فالعدل هو الناموس الأعلى.. والحب هو الإضافة الحقيقية التي أتى بها السيد المسيح ويعتبرها الوصية العظمى.. والحب عطاء.. والعطاء الذي نطلبه ونطالب به ليس استجداءً وإنما هو حقنا ولا شيء سواه..

لذلك نناشد الضمير الحي في الفاتيكان، ذلك الضمير الذي راح يبحث في «ارشيفه السري» لتبرأة جاليليو والاعتذار له ورد اعتباره بعد ثلاثمائة وخمسين عاماً من حرقه حياً (مجلة **القاهرة** عدد ديسمبر 1992)، وكان قبلها قد قام «بالتنقيب في أسراره الذاتية ليكتشف قرابة اليهود ونسبهم إلى السيد المسيح «حسب الجسد» وتبرئتهم من قتله (**الكتاب الديني الجديد** صفحة 185)، وبذلك تخطى كل ما كان يفصل بينهما من أحقاد ومجازر امتدت إلى ألفي عام.. نناشد نفس ذلك الضمير الحيّ في كنيسة الفاتيكان أن يلجأ إلى «ارشيفه السري» وأن «ينقب في أسراره الذاتية» ليكتشف علاقته بالإسلام والمسلمين وتبرئتهما من كل ما فرض عليهما على مر العصور ليعلن:

- الكشف عن كل ما تم من تحريف وتزييف في الإنجيل بعهديه عبر المجامع وخارجها.
- الاعتراف بالسيد المسيح نبياً من الأنبياء ـ وهو ما تؤكده وثائق قمران وغيرها وأقوال السيد المسيح نفسه.
- الاعتراف بإنجيل برنابا النبي المختار، الذي تم استبعاده لمخالفته تيار التعصب.
- الاعتراف باسماعيل الابن البكر لسيدنا إبراهيم والكف عن استبعاده كابن «سفاح» فهو الذبيح وهو الذي تم العهد في صباه كما أنه جد العرب أجمعين..
- الاعتراف بهاجر، زوجة إبراهيم كما ورد في نص سفر التكوين وكما تم في الواقع، والكف عن اتهامها بتهمة لا تليق بأبي الديانات التوحيدية الثلاث.
- الاعتراف بسيدنا محمد خاتم المرسلين، فقد أتى الوحي في سيناء ولاح في ساعير وتلألأ في فاران.. كما أنه «روح الحق» الذي بشر به السيد

المسيح والذي يمتلىء الإنجيل بعهديه بالتبشير بمجيئه.

• الحد من تحريف اسم سيدنا محمد وتزييف سيرته واتهامه بكل باطل، والحد من كل ما يكيله الغرب له في كافة المجالات والمنابر الدينية والتعليمية والإعلامية.

• الحد من تحريف ترجمة معاني القرآن الذي أنزله الله وحياً وتم حفظه بلا تحريف وعدم التشكيك فيه.

• الحد من سب المسلمين والعرب والحد من تقليل شأنهم وشأن حضارتهم - فالغرب لم يقم إلاّ على حضارة المصريين القدماء كأصل سابق على الحضارة اليونانية والرومانية وعلى حضارة العرب والإسلام التي قام على أكتافهما عصر النهضة.. فالعرب والمسلمون ليسوا «زبالة العالم» كما يقول الغرب وإنما هم دليل الجريمة التي اقترفها الغرب في حقهم وحق دينهم. فإن ما وصل إليه المسلمون من تخلف وفقر ليس إلاّ نتيجة استنزاف الغرب له ولموارده بالحروب المتواصلة، والاستعمار، والتبشير، والتفتيت، وبكافة أنواع المغريات والصراعات المفتعلة والثورات، وامتصاص موارده وثرواته البشرية والمادية والطبيعية وأولها النفطية..

• الحد من افتعال صورة «الإرهاب» على الساحة العالمية لوصم المناضلين المدافعين عن حقوقهم، والحد من وصم المسلمين بها واتخاذها ذريعة لقمعهم وإبادتهم، ووسيلة من وسائل ضربهم من الداخل وبأيادٍ مسلمة أحياناً..

• نزع رأس الحربة التي غرسها الغرب الصهيوني في قلب الشرق الأوسط وقلب العرب وإعادة فلسطين للفلسطينيين. فلا يوجد في الإنجيل بعهديه أي دليل على أحقية اليهود فيها.. فما من وعد إلا وكان مشروطاً وما من وعد إلا واخلوا به، وبالتالي فلا تحق لهم المطالبة به..

• الحد من استغلال العالم العربي وامتصاص ثرواته وخاصة ما يمتلكه من بترول.

• الحد من تقسيم العالم وافتعال هذا التقسيم إلى سادة وعبيد.. وإلى شمال وجنوب..

أن المشاكل الإنسانية والطبيعية والبيئية التي تواجه العالم بحاجة إلى تضافر الجهود والميزانيات فبدلاً من الحصار والإبادة القائمة على الزيف والظلم الأسود، ليكن السلام الإنساني القائم على العدل والمساواة هو القانون.. فليس المطلوب من أحد أن يغير عقيدته إذ ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ (البقرة 256).. لكن المطلوب هو أن نعي درس التاريخ، ودرس الحياة، فكلنا عابري سبيل في تجربة قائمة على الاختيار والعطاء والالتزام.. ولا يبقى منا إلاّ العمل الذي قمنا به والعطاء الإنساني الذي بذلناه في سبيل الله والحق وفي سبيل الآخرين..

لقد عانت الشعوب كافة من القتل والصراع والاضطهاد آلاف السنين، وآن لها أن تعيش في سلام في ظل العدل والحب والخير للجميع، ونبذ ذلك الشر المتعصب الذي فرض قهراً..

وبعد أن تناولنا جذور وأبعاد مخطط التعصب الديني ـ السياسي، منذ أولى خطواته، وكشفنا عما يدور وعما تتم محاولة تنفيذه، ومناشدتنا صوت العقل والضمير، بقي لنا أن نسأل نفس ذلك الغرب: ماذا لو واجه مسيحيو الشرق عين المصير؟! ماذا لو تعرضت هذه الأقليات لنفس التعذيب والقتل والطرد؟ ماذا لو تعرضت مسيحيات الشرق لاغتصاب متتابع وعلني أمام آبائهن وأزواجهن وأبنائهم؟! ماذا لو تعرضن لبقر البطون وبتر الأطراف وتقطيع الأثداء وجذ الشعر وغيره كثير.. كل ذلك على قارعة الطرق، وفي معسكرات التعذيب وما يتبعه من تجاوز لكل الحرمات والمحرمات حتى العبث بالجثث وتقاذف الرؤوس بالأحذية؟! ماذا لو تعرضن لزرع أجنّة كلاب في أرحامهن أو لكل ما تتعرض له المسلمات من جرائم لم يكشف عنها النقاب بعد في البوسنة والهرسك وفي فلسطين المحتلة وكافة البلدان المسلمة على الصعيد العالمي والتي تدور عليها رحى هذه الوحشية في آن واحد وفي تضافر غريب؟؟.

إن هذا السؤال الطويل المرير لا نوجهه للغرب وحده وإنما للكنيسة الشرقية بعامة، تلك الكنيسة التي يتبعها الصرب الأرثوذكس، والكنيسة المصرية بصفة خاصة ـ لذلك الدور الذي تلعبه بأشكال متعددة ـ كمصيدة لضرب المسلمين تحت زعم التطرف.. والتطرف، كما يقال، «على الجانبين» على حد قول بعض الأمناء من الأخوة الأقباط، وما أكثر الأشكال الاستفزازية التي يقوم

بها المتطرفون من الجانبين.. الأمر الذي يعيد إلى الأذهان كثيراً من أصداء أيام الاحتلال البريطاني وما بعدها.. فالغرب دائماً ما يستعين بأبناء عقيدته حتى وأن اختلفت طوائفهم..

كما أننا جميعاً نعلم بمخطط «فرّق تسد» الذي فرض على المسلمين والعرب، أيام الاستعمار وبعده وكلنا نعلم بذلك المخطط الرامي إلى تفتيت الدول إلى دويلات.. فما تم في الهند وفي الاتحاد السوفيتي وفي غيرها من بلدان مثلما يتم حالياً في يوغسلافيا السابقة، وهو بعينه ما يحاول الغرب تنفيذه في مصر والعراق وتونس والجزائر منذ سنوات.. وليس ذلك بسر دفين، فقد تم اكتشاف عديد من المخططات التي تطل برأسها من حين لآخر في مصر، مثل حادثة قطار الصعيد أو فتنة مطلع السبعينات، ومنها أحداث الخانكة وتقرير لجنة تقصي الحقائق عنها.. بل وما أحداث عام 1954 واقتحام مقر البابا آنئذٍ والتنظيمات السرية المتعددة التي ينضوي بعض المتعصبين تحت لوائها غير مثال، علينا أن نعمل معاً مسلمين وأقباط على نبذها.

وحقناً لمزيد من الدماء، نقول إن مثال عماد الدين زنكي الذي بدأ الجهاد بتوسيع الجبهة الإسلامية وتوحيد صفوف أمة الإسلام؛ وابنه نور الدين محمود الذي كان أول من جعل من الجهاد نظرية كاملة، تعكس خطأ سياسياً واضحاً، ذلك لأنه أضاف مفهومين جديدين لمضمونه هما: قداسة القدس كأرض مقدسة، **وضرورة إقامة الوحدة السياسية** للإسلام في الشرق الأوسط كقاعدة أولية للجهاد ضد الجيوش الصليبية، ثم صلاح الدين الأيوبي الذي جمع قوات مصر والحجاز وسوريا وما بين النهرين ليحرر القدس عام 1187 وليرد جحافل الصليبيين.. كلها حقائق تاريخية مازالت حية في الأعماق.. ومهما استطاع الغرب بتعصبه الديني السياسي الأسود أن يخدع أو يقنع بعض الحكومات العربية والإسلامية، أو أن يشتري ذممها بلوي الأعناق، فلن يستطيع أن يمنع كل قطرة دم أهدرها من أن تتحول إلى قلب ينبض بالحياة ليقاوم ويكافح، ولن يستطيع أن يمنعها عن أن تتلألأ في أمة الإسلام ليشرق منها عماد الدين.. ونور الدين.. وصلاح الدين..

خاتـمة

بعد أن أوضحنا موقف الغرب من الإسلام، بالوثائق الغربيه الرسمية، والاستشهادات الدينية والعلمية، وكيف أنه على الرغم من الشعارات الدارجة والأحاديث السيارة التي يضحك بها على الشعوب والحكومات أو يقنعها بها بالخدع والتحايل.. فحقيقة الموقف هي: أن الغرب لا يعترف بالإسلام وأنه لا يأخذ في الاعتبار أية ديانة بعد المسيحية. بل أنه يعتبر «الإسلام خطأ مطلقاً لا بد من رفضه لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة ولا بد من محاربته» - على حد قول الأب روبير كاسبار في الجلسات التمهيدية لمجمع الفاتيكان الثاني.. كما أوضحنا كيف أن قرار هذا المجمع العالمي فيما يتعلق بالمسلمين قد تمت صياغته بحيث «لا يعتبر حلاً للمسائل الصعبة والتي دار حولها الجدل طويلاً من قبيل سلالة العرب من إسماعيل وخاصة ربط الإسلام بالرسالة الإنجيلية»!.

وبذلك تم غلق باب النبوة أمام سيدنا محمد بتأليه عيسى ابن مريم وجعله هو الله أو مساوياً له.. فبعد الله لا يمكن لإنسان أن يتبوأ أية مكانه.. ومن هنا كانت ضرورة استبعادهم للآيات التي تشير إلى محمد أو إلى مجيئه..

كما رأينا كيف قام التيار المتعصب بتزييف الإنجيل بعهديه على مر العصور حتى يتفق وما يضمره من أطماع سياسيه وسلطوية، وكيف أصبحت المجامع أدوات هدم مزدوج: هدم المسيحية الأصلية التي بشر بها السيد المسيح لنسج تعاليم جديدة أبعد ما تكون عن تعاليم السيد المسيح لكنها تتفق والأغراض السياسية التوسعية؛ وهدم الإسلام الذي أتى مكملاً وخاتماً للرسالة التوحيدية بعد انحراف المسيحيين عنها.. وبذلك أصبح هذا الهدم المزدوج مخططاً يتوارثه الغرب عبر العصور ويقوم بتنفيذه من خلال كافة المجالات

وبشتى الوسائل، بغية ضرب الإسلام من الداخل وضرب جوهره وكيانه المنزّل بفرض العلمانية على القرآن لفصل الدين عن الدولة.. والغريب أن ترفض الكنيسة هذه العلمانية وتمنع تطبيقها على نصوص قامت هي بنسج خيوطها وتفرضها قهراً على أتباعها رغم تناقضها..

بل وها هو كتاب تعليم الدين الكاثوليكي الجديد، الصادر في نوفمبر 1992، والذي يعد بمثابة توجيه عام للحكومات المسيحية، يتضمن كيفية ضرب الشعوب التي لم تعتنق المسيحية بعد، وكيفية التوغل فيها بصبر وأناة.. وذلك بتضافر جهود المتعصبين والسياسيين وتداخل جهودهم لتوجيه ضربة تتزامن على الصعيد العالمي لاقتلاع الإسلام..

كما أوضحنا ما تم من تحريف في الإنجيل بعهديه وما تم استبعاده من نصوص أساسية لاستبعاد إسماعيل وإنكار أنه الابن البكر لإبراهيم، لاستبعاد العرب من نسب إبراهيم ونسله واستبعادهم عن جوهر ديانة التوحيد، وعن أية شرعية لهم خاصة حقهم في ضعف الميراث.. ميراث الأرض التي وعد الله بها إبراهيم ونسله ـ حينما كان يحق للإسرائيليين نصيباً في الوعد قبل أن يحنثوه وقبل أن يلعنهم الله ويشردهم.. وبالتالي لم يعد لهم أي حق فيها فلا يوجد أي دليل ديني على استمرارية مقولة «شعب الله المختار» ولا على زعم «أرض الميعاد».. فما من وعد أتى إلاّ وكان مشروطاً بالالتزام والاستقامة والابتعاد عن الوثنية.. وما من مرة إلاّ وحاد اليهود عن هذا الشرط.. وكيف أن الغرب واتباعه يتناسون هذه الحقيقة الجوهرية ويكسبون الوقت لاستتبابها بالتفاوض في تفاصيل تعد هامشية بالنسبة للموضوع الذي هو: اغتصاب أرض لا حق لهم فيها؟

ولقد أوضحنا زيف موقف الفاتيكان المتواطىء مع المخابرات المركزية الامريكية لتبرئة اليهود من قتل المسيح للاعتراف بالكيان الصهيوني الاستيطاني في فلسطين المحتلة والتحالف معاً لضرب الإسلام والعرب.. وتم تبرير هذا الاعتراف على أنه ديني بحت، في حين أنه تم لأغراض سياسية بحتة، ففي واقع الأمر، لم يتم أي تقارب ديني بين العقائد المسيحية واليهودية.. وإنما المطلوب هو إبادة شعب لاستيطان شعب آخر، وأنه على حد قول ديان: لا مكان للفلسطينيين في فلسطين.. بينما يعد البابا بالبحث عن بلد آخر لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ مع إغفاله أو إسقاطه الشعب الفلسطيني من الحساب..

ولقد دأب الغرب على غرس كراهية العرب واحتقارهم بفضل تلاعبه في لألفاظ، وتعريف العرب بأنهم «أولاد الجارية» أو «أولاد سفاح».. وهو ما تتشربه أجيالهم من كافة الوسائل التعليمية والدينية.. على الرغم مما في ذلك من ظلم حقير ومن مساس بمكانة سيدنا إبراهيم كأب لأنبياء التوحيد.. ويعد هذا التجريح المهين من السمات الرئيسية التي يكاد لا يخلو منها مرجع من المراجع التي تتناول القضايا العربية والإسلامية. وهو ملمح من ملامح الاستعمار الذي يمثل بديلاً شكلياً واستمراراً للحروب الصليبية.. لذلك يقوم الغرب بضرب محاولات الاستقلال بشراسة ولا يغادر مستعمراته إلاّ بعد غرس المؤسسات الاقتصادية والتبشيرية التي يواصل تواجده من خلالها.

ومما تقدم أوضحنا السبب الحقيقي لذلك الغلّ الدفين والعنف اللحوح في كراهية الغرب للمسلمين والعرب، لأنهم - في واقع الأمر - يمثلون جسم الجريمة التي اقترفها ذلك الغرب المتعصب: جريمة استبعاد إسماعيل من نسل إبراهيم، وجريمة غلق باب النبوة أمام سيدنا محمد.. ومن المعروف أن أي جريمة تتم لا يهدأ بال مرتكبها إلاّ بإبادة معالمها وبخاصة أن الإسلام أتى بمفاهيم سمحة تصحح وتعيد للسيد المسيح إنسانيته ونبوته، وإن خالفت حشداً من التحريفات التي زيفوا بها أباطيلهم.. وهذا هو التفسير الحقيقي، المخزي والمرير، في موقف الغرب من الإسلام، وفي كل ما يدور حالياً من تضافر بمختلف الأسباب والأساليب والحجج لضرب الإسلام والمسلمين على الصعيد العالمي وامتصاص ثرواتهم والتحكم في مخزونهم النفطي.. وهو ما يفسر كل ما يدور من تضافر شرس ومن صمت متواطىء بلا ضمير للعمل على تدمير أمة الإسلام، واغتصاب المسلمات باستيلاد أطفال من صلب الصرب ومن نطفة التعصب.. الأمر الذي يتوافق مع ما يقوم به البابا يوحنا بولس الثاني من فرض لمنع الإجهاض على المسيحيات ومن تحريم لوسائل منع الحمل عليهن لتعمير الأراضي المسلمة بعد إخلائها من المسلمين!! ولعل ذلك ما يحلم به نيافته..

فالأرض بلا شعب هي المطلوبة لمخطط الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وهو ما يدور حالياً في البوسنة والهرسك، وهو نفسه ما يدور في الهند وبورما والفيلبين وغيرها من البلدان.. تقسيم الدولة، ثم القتل والطرد والإبادة،

مع فرض تغيير العقيدة وامتصاص الهوية في غياهب التعصب.. وهو ما يتم حالياً مع البوسنويات اللاتي «انقذهن» الصليب الأحمر في لندن ـ الأمر الذي أعلنته شبكة الـ CNN مساء يوم الست 1/9/.1993. وهو ما تحاول فرنسا القيام به تحت لواء وزيرها لوپن أو جان كلود بارو وغيرهما لامتصاص هوية المسلمين المقيمين بها وتغيير دينهم أو المطالبة بطردهم..

لقد تضافرت جهود الثلاثي الاستعماري عام 1956 لضرب مصر وحماية إسرائيل، كما تضافرت جهوده لدكّ العراق.. .ولا يسع المجال هنا لسرد كل ما قاموا به من مواقف عنصرية مخزية، ولا كل ما يقومون به حالياً.. فها هي التصاريح تتسابق في أولى لحظات هذه الضربة الجديدة التي يصوبونها للعراق مع سبق الاصرار.. وها هو الزعيم الأمريكي الجديد يعلن عن تأييده وتدعيمه الكامل لقرار جورج بوش وتصميمه على سحق العراق، بل ويعلن في نفس هذا التصريح عن مزايداته بتصرفات أكثر حسماً عند توليه مهام منصبه في 1/20/ 1993!!.

ولا يحق لنا أن نسأل أعضاء هذا الثالوث الغاشم الظالم والمتعصب: أين ضميركم وعدلكم من انتهاكات الصرب وانتهاكات كل من تحركونهم، ومن انتهاكات رأس الحربة التي زرعتموها منذ عام 1948 في فلسطين المحتلة ومئات المرات التي تم فيها عدم الانصياع لقرارات الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو غيرها من المنظمات؟! أين هذا الحسم الباتر من ذلك التخاذل المائع الذي تواجهون به بجاحة الصهاينة وطردهم 418 من صفوة الفلسطينيين منذ أوائل ديسمبر 1992 وذلك الوعد المتبلّد بمحاولة حل قضيتهم قبل العشرين من شهر فبراير القادم.. أي بعد أن يكون البرد والجوع والمرض قد أتى عليهم بعد ثلاثة أشهر في العراء.. بينما «الأمين» المتخاذل المتواطيء يصمت ويرفض التعليق على هذه الغارة الأخيرة على العراق بزعم أنه لم يتلق أية معلومات رسمية بشأنها.. مثلما ظل وما زال يتملص أو يحذر من اتخاذ أي قرار لوقف مجازر الصرب ومذابحها.. بل ها هي فرنسا تمنحه درجة الدكتوراه الفخرية وكأنها تكافئه على مواقفه المخزية..

لا يحق لنا أن نتساءل.. لأن جزءاً مما يقوم به الغرب المتعصب يتم اعتماداً على ما أتخذه من قرارات تبشيرية «لضرب الإسلام من الداخل» و«أن

قطع الشجرة يجب أن يتم بمعرفة أحد أفرادها».. وضرب الإسلام من الداخل يعني الاعتماد على حكومات عميلة تحت أي مسمى، وعلى وسائل إعلام متواطئة، وعلى أفراد ومؤسسات مختلفة، سواء أكانت تبشيرية أم اقتصادية أم مدنية لهدم الإسلام أخلاقياً وعقائدياً وتشريعياً وسياسياً.. وكل ذلك لم يعد خفياً على أحد فالمراجع والأبحاث والتقارير بل ووسائل الإعلام تتناقلها شرقاً وغرباً.. لكنني هنا لا أملك إلاّ أن أتوجه إلى المسلمين أينما كانوا.. إلى المسلمين الذين أفقدهم الغرب البصر والبصيرة وجرفهم في زيف حضارته المنهارة وإفلاسه الذي يداويه ويداريه ببيع أسلحة مكدسة تمتص ثروات العرب وتحرث أبناءهم..

وهنا لا بد من وقفة قصيرة نوضح فيها باقتضاب ما قام به علماء الغرب من تحريف لكلمات أساسية في القرآن وفي التراث الإسلامي عندما قام بترجمتها فريق مستشرقيه.. ومن أهم هذه الكلمات كلمة الإسلام ذاتها، وكلمة الحمد التي منها أحمد ومحمود ومحمد، وكلمة الجهاد التي قصروها على معنى القتل فحسب لتأكيد معنى العداوة في القرآن، وكلمة الكفر التي قصروها على اليهود والمسيحيين وحدهم لتأكيد معنى الكراهية ضدهم، وفي حين أنها تنطبق على أتباع الديانات التوحيدية الثلاث الذين أتاهم الكتاب ثم كفروا به أو حادوا عنه.. وكلها وغيرها كلمات بحاجة إلى دراسات لغوية لتصويب معانيها في عيون الغرب، لكنا لن نتناول هنا إلاّ معنى كلمة الإسلام لتصويب المنظار الذي ينظر منه الغرب إلى المسلمين بعد أن زيف نسبهم وابتلع حقهم وشرعهم وها هو يحاول إبادتهم أو امتصاصهم!.

فلقد دأب الغرب على ترجمة كلمة اسلام بكلمة Soumission، والتي لا تقف عند معنى الاستسلام والخنوع فحسب بل، وتتضمن معنى من فجر وأتى أمراً قبيحاً فخجل منه ونكس رأسه، إنه الخنوع والخضوع ذلاً ومهانة.. في حين أن كلمة إسلام مشتقة من سَلِمَ، أي برىء وخلص، ومنها أسلم أي أخلص، ومنها السلام، وهو أحد أسماء الله الحسنى، وهو التحية عند المسلمين، وهو الوفاق الذي يجب أن يسود العالم ومنها السلامة أي البراءة من العيوب والأمان والصلح.. وكلمة إسلام لغوياً هي فعل تفضيل من سلم وسلام، وتعني في الشرع قبول ما أنزله الله من تعاليم بصدق وإخلاص.. ومنها قوله تعالى: ﴿ومن

أسلم وجه لله وهو محسن﴾ أي من أخلص لله وحده. فمن أسلم هو من أخلص.. ذلك لأن للعمل المتقبل شرطين كما يقول ابن جبير: أن يكون خالصاً لله وحده وأن يكون صواباً موافقاً للشريعة..

وإنطلاقاً من هذا المفهوم الكريم الحقيقي لكلمة إسلام نورد آية: ﴿أن الدين عند الله الإسلام. وما أختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ (آل عمران 19). أي أن الإسلام هو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد. فالإسلام كعقيدة ليس إلاّ الحلقة المتممة والأخيرة للرسالة التوحيدية التي جاءت في سيناء ولاحت في سعير قرب القدس، وتلألأت في جبال فاران بمكة.. وهو ما يتفق وآية: **﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾** (الحج 78). أي أن الذين اتبعوا ما أنزل إليهم على أيدي موسى من توحيد بالله في وصاياه العشر بصدق وإخلاص، دون أي ابتغاء سوى مرضاة الله هم مسلمون لله مخلصون له. ومن اتبعوا ما أنزل إليهم على أيدي عيسى من توحيد في وصاياه العشر التي زاد من تساميها الإنساني، بصدق وإخلاص دون أي ابتغاء سوى مرضاة الله هم مسلمون لله مخلصون له. ومن اتبعوا ما أنزل إليهم على أيدي محمد من توحيد بالله وتفضيل صنع الخير بعشرة أمثال والتزموا بشرعة وتعاليمه بصدق وإخلاص دون أي ابتغاء سوى مرضاة الله هم مسلمون لله مخلصون له..

وبهذا المعنى يمكن فهم آية: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين﴾** (آل عمران 67).. فهو أول من حطم أصنام والده وابتعد عن الوثنية وأخلص لله وحده.. لذلك كان على المسلمين أن يقولوا: **﴿آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** (آل عمران 84) أي أن المسلمين يؤمنون بكل ما أنزل من توحيد قبلهم وهم له مخلصون.. فهم يؤمنون بالله وما أنزل على أنبياء التوحيد كما يؤمنون بيوم الحساب واليوم الآخر.. ويطلق عليهم «أهل الكتاب».

لذلك نتوجه إلى المتعصبين والمنحرفين من أهل الكتاب أينما كانوا،

قائلين: لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون... لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون... لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون.؟!.

لقد تكشفت اللعبة بكل أبعادها وخباياها دينياً وسياسياً.. لذلك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل الأمناء المخلصين في الغرب الذين طالبوا الفاتيكان بالاعتراف بكل ما قام به من تزييف كما نطالب الكنيسة الشرقية بالانضمام لهذا المطلب. فإن ما يتهددها ليس بخفي على أحد فهو الخطوة الثالثة في مخطط البابا يوحنا بولس الثاني بعد أن ضرب الشيوعية ويقوم حالياً بضرب الإسلام.. نطالب الكنيسة الشرقية وخاصة اقباط مصر باتخاذ موقف إيجابي فعال بدلاً من الصمت أو رفع الشعارات غير المجدية، أن يتخذوا موقفاً إيجابياً برفضهم أن يكونوا رأس حربة أخرى في الوطن العربي.. وليس المطلوب من أحد أن يغير دينه فسماحة الإسلام معروفة على مر التاريخ ومعروفة خاصة لأقباط مصر فهو الذي حماهم من مذابح التعصب الغربي، ومعروف أن من مبادئه: «الاّ إكراه في الدين»..

إن تضامن المسلمين والمسيحيين ليس قاصراً على مصر وحدها. فها هو المطران أيليا خوري - راعي الكنيسة الأسقفية في رام الله والذي اعتقلته السلطات الإسرائيلية عام 1969، قد انضم لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح عضواً باللجنة التنفيذية ليكافح ضد أعمال القهر والقمع وانتهاكات الكيان الصهيوني لمقدسات القدس المحتلة.. وهو الذي أطلق صيحته الشهيرة في مؤتمر «حماية المقدسات في فلسطين المحتلة» المنعقد في القاهرة في نوفمبر 1988 قائلاً: «ما احوجنا اليوم إلى صلاح الدين لكي يقف المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب ضد الغزوة الصهيونية الاستعمارية البشعة لتحرير المقدسات من الظلم».. وما أكثر النماذج الوطنية المشرفة والتي لا يسع المجال هنا لعدها..

ولقد جاهد انبياء الرسالة التوحيدية الثلاثة ليضعونا على الصراط المستقيم، وألاّ نعبد إلاّ الله، وألاّ نكفر بنعمته علينا.. فإذا ما كنا - بعد كل ما توصلنا إليه من فهم وعلم، وبعد كل ما تكشف لنا ما زلنا غير قادرين على مواجهة التعصب الغربي والحد من أنانيته لنتعايش سلمياً، فتلك هي الساعة

الخامسة والعشرون، والساعة بعد الأخيرة، التي يستحيل معها وبعدها اي صلاح!! لذلك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل المؤمنين المخلصين في أنحاء العالم، لنصيح بكل ما أوتينا من قوة: يا أيها المسلمون يا أصحاب الحق.. يا من يساء لدينكم وشرعكم ومقدساتكم وتنتهك أعراض نساءكم.. يا من تستباح أراضيكم ويضربونكم بأياديكم، بل وتتخذ من بقاعكم قواعد لضرب أخوة لكم في الدين.. ليس أمامكم إلاّ أن تنسوا خلافاتكم المفتعلة التي يوقعكم فيها الغرب.. يا أيها المسلمون.. يا أصحاب الحق.. جاهدوا لرؤية ما أنتم مساقون إليه.. فليس أمامكم مرة أخرى إلاّ ما فعله عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.. ليس أمامكم إلاّ توحيد صفوفكم سياسياً لفك الحصار المضروب حول الإسلام على الصعيد العالمي ولصد الهجوم الضاري الذي يرمي إلى إبادته.. لا تطيعوا المتعصبين الكافرين وجاهدوهم **﴿واستجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله﴾**..

حزيران (يناير) 1993

المراجع

1 ـ أهم المراجع العربية

إبراهيم خليل أحمد: **إسرائيل فتنة الأجيال** مكتبة الوعي العربي.

د. إبراهيم مدكور: **في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه** دار المعارف 1983. جزئين.

ابن الخطيب: **هذا هو الحق! رد على مفتريات كاهن كنيسة** المطبعة المصرية ومكتبتها، طبعة ثانية.

ابن هشام: السيرة النبيوة مكتبة الحلبي 1955 طبعة ثانية.

أبو الفداء بن كثير: **قصص الأنبياء** دار الكتب الحديثة 1968.

أحمد بن عبد الصمد الخزرجي: **مقامع الصلبان** مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية 1975.

الإمام القرطبي: **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام** دار التراث العربي 1980.

البيهقي: **دلائل النبوة** المكتبة السلفية بالمدينة المنورة 1969.

بشرى زخاري ميخائيل: **محمد رسول الله: هكذا بشرت لأناجيل** عالم الكتب ب. ت.

د. توفيق الطويل: **قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام** دار الفكر العربي 1947.

حاي بن شمعون: **الاحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين** مطبعة كوهين روزنتال بمصر 1912.

د. خليل سعادة: **انجيل برنابا** مطبعة محمد علي صحيح القاهرة: 1958.

شمؤل بن يحيى بن عباس المغربي: **بذل المجهود في إفحام اليهود** مطبعة الفجالة الحديث ب. ت.

محمد السماك: **الأصوليه الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية** مركز دراسات العالم الإسلامي 1991.

طارق البشرى: **المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية** الهيئة العامة للكتاب 1980.

عبد الصمد صارم السهواري: **البشائر** مطبعة حجازي القاهرة ب. ت.

د. عبد العزيز كامل: **الإسلام والعروبة في عالم متغير** كتاب العربي 1989

علي بن ربَّن الطبري: **الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد (ص)** دار الأفاق الجديدة بيروت 1973.

عمر لطفي العالم: **المستشرقون والقرآن** مركز دراسات العالم الإسلامي 1991.

محب الدين الخطيب: «ترجمه عن الفرنسية» **الغارة على العالم الإسلامي (أ. ل. شاتليه). نشر قصى الخطيب** 1927.

محمد صالح البنداق: **المستشرقون وترجمة القرآن** دار الأفاق الجديدة بيروت 1983.

محمود علي قراعة: **الثقافة الروحية في انجيل برنابا** دار مصر للطباعة 1958.

منصور حسين عبد العزيز: **دعوة الحق أو الحقيقة المسيحية والإسلام** مكتبة علاء الدين، الطبعة الثانية 1972.

2 ـ أهم المراجع الأجنبية:

AMIOT, F: **Evangiles Apocryphes** Paris, Fayard, 1952.

Assfaly, J. & KRUGER, P.: **Petit Dictionnaire de L'Orient Chrétien,** Belgiun, Brépols. 1991.

BADAWI, Abdurrahman: **Défense de la vie du Prophète Mohammad contre ses détracteurs, éd Afkar, Paris, 1990.**

BALTA, Paul: **Islam et Civilisation,** éd. du Rocher, Paris 1991.

BARREAU, Jean-Claude: **De L'Islam en général et du Monde Moderne en Particulier,** éd. Le Pré aux Clercs, Paris 1991.

BERQUE, Jacques: **Le Coran,** Sindbad, Paris, 1990.

BIBLE de Jérusalem, èd; du Cerf, Paris, 1973.

BIBLE éd. 1860, 1931 et 1986.

BLACHERE, Régis: **Le Coran** P.U.F., Paris, 1969.

BREHIER, L.: **La Querelle des Images.**

BRUNO, Etienne: **L'Islamisne Radical,** Hachette, Paris, 1987.

BUCAILLE, Maurice: **La Bible, le Coran et la Science,** Séghers, Paris, 1978.

BULTMAN,, R.,: **Histoire de la tradiction Synoptique,** Seuil, Paris, 1973.

CARITANI, Roger (sous la direction de): **BORDAS Encyclopédie, Philosophie-Religion,** 1980.

CARITANI, Roger: **La Force des Faibles,** Larousse, Paris, 1987.

CARRE, Olivier: **L'Utopie Islamique,** Paris, P.F.N.S.P., 1991.

CATECHISME de L'EGLISE CATHOLIQUE, **Mane-Plon, Paris, 1992.**

CHEVALLIER, D.; GUELLOUZ, A.; MIQUEL, A.: **Les Arabes, L'islam et L'Europe,** Paris, Flammarion, 1991.

COLLOQUE 1987: **Les Chrétiens du Monde Arabe,**

Maisonneuve & Larose, Paris, 1989.
COMTE, Fernand: **Les Livres Sacrés**, Compactes-Bordas, Paris, 1990.
CONGAR, Yves: **Vocabulaires Oecuménique**, éd. du Cerf, Paris, 1970.
CORM, Georges: **L'Europe et L'Orient**, La Découverte, Paris 1991.
COURBAGE, Y. & FARGUES, PH.: **Chrétiens et Juifs dans L'Islam Arabe et Turc**, Fayard, Paris, 1992.
DAGRON, CH. & KANCINI, H.: **Arabes, vous avez dit Arabes?** Balland, Paris, 1990.
DAWUD, Abdul-Ahad: **Muhammad in the Bible**, Doha, Qatar, 3ed. ed., 1980.
DUPONT-SOMMER, A.: **Trente années de recherches sur les manuscrits de la mer Morte** (194 7-1977), Institut de France Académie des Inscriptions et des belles-letters, 1977.
ENCYCLOPDIA UNIVERSALIS, France, 1980, 20 vol.
FLICHE & MARTIN: **Histoire de L'Eglise**, Bloud & Gay, Paris, 1947, 27 vol.
FREMEAUX, Jacques: **La France et L'Islam depuis 1789**, P.U.F. Paris, 1991.
GEORGES, p: **l'Immigration en France:** faits et problèmes, Paris, A. Colin, 1986.
GILLOIS, André: **Le Mensonge Historique**, Robert Laffont, Paris, 1990.
HALEVI, Ilan: **Israël, de la terreur au massacre d'Etat**, Paris, Spag-Papyrus, 1984.
HALEVI, ILan: **sous Israel la Palestine**, Paris, Le Sycomore, 1978.
LECLERCQ, Hefelé: **Histoire des Conciles**, Letouzey & Ane, Paris 1907, 8 vol.
HENRY, A.-M. (sous la direction de): **Vatican II, Les Relations de L'Eglise avec Les religions non-chrétiennes**, éd. du Cerf, Paris, 1966.
KEPEL, Giles: **Les Banlieuse de L'Islam**, Paris, Seuil, 1987.
LELONG, Michel: **le don qu'il vous a fait**, textes du Coran et de la Bible, le Centurion, Paris, 1977.

LEON-DUFOUR (sous la direction de): **Vocabulaire de Théologie Biblique**, éd. du Cerf, Paris, 1988.
LEVEAU, R. & KEPEL, G.: **Les Musulmans dans la Société** Fran5aise référances, Paris, 1988.
LIGUE INTERNATIONALE (LIDPL): **Le Dossier Palestine**, Paris, la Découverte, 1991.
MASSON, Denise: **Monothéisme coranique et Monothéisme biblique**, Desclée de Brouwer, Paris, 1976.
MESSADIE, Gérald: **L'Homme qui devint Dieu**, Robert Laffont, Paris, 1988/9, 2 vol.
METEZ, M.: **Histoire des Conciles**, Paris, P.U.F., 1964.
POULET, E.: **L'Eglise, C'est un monde**, Paris, Casterman, 1986.
RENAN, Ernest: **Les Evangiles**, Calman-Lévi, Paris, s.d.
RODINSON, Maxime: **Mahomet**, Seuil-Politique, Paris, 1968.
ROYSTONPIKE, E.: **Dictionnaire des religions**, P.U.F., Paris 1954.
SCHWEITZER, A.: **Le Secret histoirique de la vie Jésus**, Albin Michel, Paris, 1961.
SIBONY, Daniel: **Les trois monothéismes**, Seuil, Paris, 1992.
TATE, Georges: **L'Orient des Croisades**, Découvertes Gallimard, Paris, 1991.
THOMAS, G. & MORGAN-WITTS: **Dans les couloirs du Vatican**, Stock, Paris, 1983.
THOMAS, C. & MORGAN-WITTS: **Les Emissaires du Vatican**, Stock, Paris, 1985.
WOLTON, D.: **L'Information et la guerre**, Flammarion, Paris, 1992.

الفهرس

1993/7/479

هذا الكتاب

في زمن أصبحت فيه الأحداث كاشفة، تتحدث عن نفسها دون الحاجة إلى مستندات لإثباتها، لم يعد خفياً على أحد ـ اليوم ـ أن القضية الحقيقية ليست مجرد صراع العالم الغربي ضد العالم العربي فحسب وإنما هي بكل أسف صراع التعصب ورياحه ضد الإسلام.. إنها قضية تعصب ديني / سياسي بعيدة المدى، متعددة الأشكال واستخدم فيها الغرب كل ما يمكن وما لا يمكن تصوره من وسائل لتحقيق أغراضه.

ولن نبدأ بسرد كل ما تعرض له الإسلام منذ بداية انتشاره من حملات تشويهية في مختلف المجالات وصلت إلى الترجمات المغلوطة لمعاني القرآن...

يكفي أن نضرب مثلاً لموقف الغرب المتعصب بآخر الأحداث التي تشغل الساحة العالمية، وهي:

- غرس الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.
- حرب الخليج المفتعلة.
- حرب الإبادة الدائرة في البوسنة والهرسك.

من المقدمة

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع